كشكول الوائلي

تأليف
الشيخ أحمد الوائلي

إعداد وإشراف
مصطفى آل مرهون

«الجزء الثالث»

مؤسسة المصطفى ﷺ للتحقيق والنشر

كشكول الوائلي/ ج٣


بسم الله الرحمن الرحيم

أمير المؤمنين عليه السلام في مرآة التاريخ

ويشتمل هذا المبحث على عدّة مقدمات توطئةً لما سيأتي من بحوث إن شاء الله تعالىٰ:

المقدّمة الأُولى: عظمة أمير المؤمنين عليه السلام

عندما يقدم أي باحث على ترجمة هذا الرجل العظيم فإنه يحار من أين يبدأ وأين ينتهي؛ فليس في حياته عليه السلام لحظة لا تستحقّ التوقف عندها، وليس فيها حركة لا ينبغي تسجيلها والتأمّل فيها، وليس منها موقف لا ينبغي الانحناء أمامه إجلالاً وإكباراً؛ فكل ما في كيانه ووجوده وحياته ألقٌ مشرق يأخذ بالأبصار. إن من يدخل بستاناً أو حتى جنة فيمكن أن يلفت نظره فيها زهرة جميلة شذيّة، أو شجرة وارفة نديّة، فيكتفي بهذه أو تلك وينشغل بها عمّا في البستان من أوراد وأشجار، أمّا من يدخل حقل حياة الإمام علي عليه السلام فإنه سيجد نفسه مشدوداً إلى كلّ ما فيه ـ وكلّ ما فيه معجب ـ وحائراً فيما ينبغي أن يبدأ به، فما من زهرة إلّا ومجاورها يعبق مثلها وما من شجرة إلّا وتؤتي أكلها حالها في ذلك حال أي شجرة أُخرى، وما من شيء إلّا وهو من نتاج الإرادة الإلهية التي أحنت على هذا الوجود ومنحته هذه العظمة.

ومن هذا أنه عليه السلام قد تساوت فيه جميع الميزات والكمالات، وهذا ما لا يمكن أن يكون لغيره ـ سوى نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ومن سبقه من الأنبياء ـ فمن ينبغ من الناس في البلاغة أو الشعر أو الشجاعة أو الكرم أو غيرها نجد عنده نقصاً في الجوانب

الأُخرى ممّا ذكرنا وغيره، أمّا أمير المؤمنين عليه السلام فخلاف ذلك؛ فقد نبغ في الجميع، وبزّ الناس جميعاً في كل ما أُوتي من فضائل ومناقب كان له فيها الحظّ الأوفر والكعب العالي والقدح المعلّى من بينهم، مع تساويها عنده في بلوغه القمّة فيها. وهكذا كان هذا الرجل العظيم.. لقد كانت كلّ حياته عطاءً وعنفواناً ومثاراً للإعجاب والحسد ممن عاصروه ومن جاؤوا بعده.

المقدمة الثانية: عطاؤه المتجدّد ومناقبه التي لا تنفد

إن بيننا وبين أمير المؤمنين عليه السلام أربعة عشر قرناً من الزمان تناولت فيها شخصيته وحياته ومواقفه الأقلامُ من مختلف الفئات والمشارب والأذواق؛ فبين محبّ موادّ، وبين مبغض شانئ، وبين متوقّف محايد. وقد كتبت هذه الأقلام ما حلا لها وما لم يحلُ، من واقع الحياة ومن وهم مخيلات أصحابها غير أنه عليه السلام بقي من بين كل الكتابات وهذه الأقلام إشعاعاً حضارياً وهّاجاً في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الدنيا أجمعه. لقد كان يعطي جديداً كلّما شرع أحد في الكتابة عنه؛ فلم تنفد مناقبه، ولم تفنَ محامده.

وسرّ هذه الظاهرة هو أن عناية الله تعالى به لم ولن تنقطع عنه أبداً منذ مجيئه إلى الحياة وولوجه فيها وحتى قيام الساعة. وربما يرد في ذهن البعض أن هذا يتنافى مع واقع حياته عليه السلام؛ ذلك أنه لو كان محطّ عناية السماء لما مرّت به في حياته مصائب عظيمة ونكبات جمّة جعلته يتمنّى الموت [1]. لكن هذا غير صحيح

---

(١) فقال عليه السلام يصف حاله وحال من معه: «لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم وطاعتهم لإمامهم ومعصيتكم لإمامكم، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم إياي. إني ولّيت فلاناً فخان وغدر، واحتمل فيء المسلمين إلى معاوية، وولّيت فلاناً فخان وغدر وفعل مثله، فصرت لا آتمنكم على علاقة سوط. وإن

من ناحية مبدئية؛ لأن هذه المصائب والنكبات هي بعض ما أعطته السماء ووهبته الإرادة الإلهية؛ لترفع بها كعبه فوق من سواه ولتبرز للدنيا أجمع مقدار إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام وصبره وتحمّله؛ وبهذا كان ألقاً، وبقي نجمه يسطع في سماء الإيمان والصبر، وكوكبه يلمع في دنيا الخلود، وبقي هو يتألق بين كل من هم سواه. ودليل هذا أننا حينما ندرس ما مرّ به من هذه المصائب المذكورة دراسة موضوعية فسنجد أنها كافية في القضاء على غيره وكفيلة بأن تأتي عليه، لكن هذا لم يحصل مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يدري بأنه حتى بعد الموت لم يسلم من أذى مدّعي الإسلام، فكان يعلم أنه لو دفن علناً لأُخرجت جثته الطاهرة ومثّل بها؛ فكان يوصي ولده الحسن عليه السلام عند وفاته بقوله: «**لا تشهدوا أحداً جنازتي ومكان دفني**».

وهذا الحذر لم يكن خوفاً من أن يمثّل به، بل إنه كان خوفاً من أن تنتهك حرمة الإسلام بالتمثيل بجسده؛ لأنه عليه السلام كان يعلم مدى حقد السلطة الأُموية وبطشها واعتدائها على حرمات الإسلام؛ وإلّا فأليسوا هم أبناء وأحفاد هند آكلة الأكباد، التي بقرت بطن حمزة رضي الله عنه وأكلت كبده نيئاً؟ مع أن المفروض أنه قد قتل وانتهى أمره بالنسبة لها ولجيش زوجها جيش الكفر والشرك؟ وأليسوا هم أبناء وأحفاد قائد جيش الشرك والنفاق أبي سفيان الذي كان يضع رمحه في خدّ الحمزة ويتّكئ عليه حتى تخرج من خدّه الآخر؟ فهذا المقدار من الحقد الكامن والدفين في صدر هؤلاء كافٍ لأن يدفعهم لفعل ما لا يجرؤ غيرهم على فعله مما يدفعهم إلى

☚ ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا، وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسلخ القرّ عنا. اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». ثم نزل. الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

إخراج الجثمان الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام والتمثيل به.

إن هؤلاء كانوا إذا عزم خطيب على أن يرقى أعواد المنبر أفهموه وأوهموه أنهم لا يريدون أن يذكر لعلي بن أبي طالب عليه السلام منقبة، وأنه غير مرغوب، فيه وأنه ليس أهلاً لأن تكون له مناقب يذكر بها بين الملأ، وأن عليه (الخطيب) [١] أن يحدّث الناس بفضائل الصحابة دون ذكر هذا الرجل. سئل أحدهم يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كلهم كأنهم أبناء لأُمّ واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن عَلة؟ فقال: ولم لا يكون كذلك، وقد سبقهم سلماً، وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل [٢].

فهذا الرجل قد تميّز فأصبح محسوداً.. تميّز عن غيره بالتحلّي بكل الفضائل والتخلّي عن جميع الرذائل؛ فكان طاهراً نقيّاً [٣]؛ ولذا فإن هؤلاء لم يتوقوا له ولم يميلوا إلى جانبه ولم يسلكوا مسلكه [٤].

---

(١) روى الطبري أن المغيرة دعا صعصعة، فقال له: إيّاك أن يبلغني عنك أنك تظهر من فضل علي شيئاً علانية، فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيرا ممّا أُمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد بدّاً منه، ندافع به هؤلاء القوم عن أنفسنا. فإن كنت ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك. تاريخ الطبري ٥: ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، والمسؤول هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي.

(٣) ورد في زيارة أبي عبد الله عليه السلام: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها». مصباح المتهجّد: ٧٢١.

(٤) مع أن مسلكه القرآن ومع القرآن بنصّ قول الرسول الأكرم فيه صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض». المعجم الأوسط ٥: ١٣٥، المعجم الصغير ١: ٢٥٥. وفي المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٩ أنه عليه السلام، حينما جاء يودّع أُم

محاولات أعدائه للنيل منه

وهؤلاء حينما وجدوا أنفسهم لا يستطيعون أن يرقوا مراقيه، ولا أن يصلوا إلى منزلته في الشجاعة والإيمان والسابقة والمناقب والجهاد في سبيل الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ ودينه الحنيف راحوا يشكّكون الناس به وبكلّ ما يمتّ إليه بصلة، وهي محاولات كثيرة نذكر منها:

الأُولى: نفي نسبة (نهج البلاغة) إليه

فحتّى (نهج البلاغة) لم يسلم من حقدهم الذي وصل إليه، وسمّهم الذي أرادوا أن ينفثوه حوله، وكانت هناك محاولات لنفي صحة نسبته إليه عليه السلام لأن فيه عطاءً أكبر من مستوى العصر الذي يعيش فيه[1]. كما أن البعض من المفسّرين أو المؤرّخين حينما يمرّ بمنقبة أثبتتها له آية كريمة أو حديث شريف يغفلها ويعمد إلى إهمال ذكرها أو نفيها عنه[2]؛ لأنّه لا يقوى على الوصول إلى مثلها.

الثانية: هدم داره التي ترك النبي ﷺ بابها مفتوحاً على المسجد

وكذلك بيت الإمام عليه السلام في المدينة، والذي بناه له رسول الله ﷺ ضمن الدور العشرة التي بناها حيث إنه ﷺ خصّص تسعة منها لنسائه وأعطى العاشرة لأمير

☚ المؤمنين أُم سلمة (رضي الله تعالى عنها) عند خروجه إلى الجمل، قالت له: «سر في حفظ الله وفي كنفه، فوالله، إنك لعلى الحقّ والحقّ معك، ولولا أني أكره أن أعصي الله ورسوله فإنه أمرنا ﷺ أن نقرّ في بيوتنا لسرت معك».

(١) انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) انظر حول تفسير سورة الدهر: تفسير ابن كثير ٤: ٤٨٤ ـ ٤٨٥، تفسير الجلالين: ٧٨١ ـ ٧٨٢، منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلّ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٣ في مكان نزول هذه السورة ممّا فيه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج٣ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ من موسوعة محاضرات الوائلي.

المؤمنينعليه السلام، وهي الدار الوحيدة التي لم يغلق بابها الذي يطلّ على المسجد بعد أن أوصى بإغلاق الأبواب كلّها [١].

لكن الأُمويين هدموا هذه الدار عن عمد؛ لأن فيها إيحاءً بحقيقة ساطعة أرادوا وأدها وتضييعها؛ فعدم إغلاق باب هذه الدار يشكّل علامة فارقة، كما أن وقوف الرسولصلى الله عليه وآله منادياً: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[٢] كلّ يوم صباحاً عند صلاة الفجر لهو صورة حيّة تبيّن أهمية هذه الدار وساكنيها. وهذه الصورة طبعاً ظلت ماثلة طيلة الوقت في أذهان صحابة الرسولصلى الله عليه وآله، كما أن بقاءها في أذهان الناس يؤذي الأُمويين، وإبقاءها وتركها كذلك يقضّ مضاجعهم؛ لأن ذلك يفشل مخطّطاتهم في إرجاع الناس القهقرى [٣] عن الدين إلى شريعة الجاهلية عبر محاولاتهم المتكرّرة لتحقيق ذلك، إلى أن جاء عهد الملك عبد الملك بن مروان الذي هدم هذا البيت مع كل البيوت التي حول المسجد بذريعة توسيعه [٤].

على أية حال فإن ولد أمير المؤمنينعليه السلام لم يزالوا في بيته إلى أيام عبد الملك بن

(١) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١١٩ / ٨٤٢٧ ـ ٨٤٢٨، خصائص أمير المؤمنينعليه السلام (النسائي): ٧٥ ـ ٧٦، المعجم الكبير ٢: ٢٤٦.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) قال رسولنا الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت بني أُميّة ينزون على منبري نزو القردة، يردّون الناس عن الدين القهقرى». فهبط عليه جبرئيلعليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر. جامع البيان ١٥: ١٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨.

(٤) مع أنها لا ضرر من بقائها داخل المسجد لو أُريد توسيعه؛ لأنها محراب رسول اللهصلى الله عليه وآله ومحراب الإمام عليعليه السلام وفاطمة الزهراءعليها السلام، فيكون بذلك شأنها شأن مقام إسماعيلعليه السلام وغيره؛ فهي لا تقلّ عنها شأناً.

مروان الذي ما إن عرف الخبر حتى حسدهم على ذلك واغتاض، وأمر بهدم الدار متظاهراً أنه يريد أن يوسّع في المسجد. وكان فيها الحسن بن الحسن عليه السلام، فقال: لا أخرج، ولا أُمكّن من هدمها. فضرب بالسياط، وتصايح الناس، وأُخرج عند ذلك وهدمت الدار [١].

فهناك محاولة لإقصائه عن أذهان الناس، وإبعاد دائرة النور عنه، وعدم تسليط الضوء عليه، وهذا هو حال كل ما أُثر عنه مع التاريخ الجائر والحكّام الحاقدين، فهؤلاء حاولوا جهد إمكانهم إلقاء ظلال من التشكيك حوله.

الثالثة: أُكذوبة خطبة بنت أبي جهل

وهكذا ما أثبت الحقّ ميزة له عليه السلام إلّا تحولت عند أهل الحقد إلى مثلبة، ومن هذا أن معظم الصحابة خطبوا فاطمة الزهراء عليها السلام، وكان النبي صلى الله عليه وآله يردّهم مبيّناً لهم أن أمرها ليس إليه بل إنه راجع إلى السماء، حتى أمرته السماء بأن يزوّج علياً عليه السلام منها، وهنا جاء علي عليه السلام فابتدأه رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: « **ارفع رأسك وقل لي عما جئت به** ». فقال عليه السلام: « **الحياء يمنعني** ». قال صلى الله عليه وآله: « **لعلّك جئت خاطباً فاطمة؟** ». فقال عليه السلام: « **إي والله** ». فقال صلى الله عليه وآله: « **الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرئيل، وقد أمرني أن أُزوّج النور من النور، فقلت: مَن ممّن؟ قال: زوّج علياً من فاطمة. وأنا زوّجتك ابنتي** ».

ثم قال صلى الله عليه وآله: « **يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟** ». فقال عليه السلام: « **الله ورسوله أعلم بحالي، ليس لي نقد، وليس عندي إلّا الدرع والناضح** ». فقال صلى الله عليه وآله: « **اذهب فقد زوّجتك ابنتي بالدرع** » [٢].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

وهذه البشرى استغلّها أعداء أمير المؤمنين عليه السلام ليحوّلوها إلى مثلبه ضده، يقول المؤرّخون: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي غضبى[١].

وبقيت هذه الأكذوبة مروية في الصحاح يقرؤها المسلم المغرّر فينحرف عن نهج علي ويتحامل عليه. وهذا واقعاً يؤلمني، لأنه يوجع قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وقلب السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام باعتقاده صحّة هذه الفرية، وبإثباتها في كتب الحديث. وهكذا حوّل أعداؤه عليه السلام منقبة هبة السماء له بتزويجه من سيدة نساء العالمين عليها السلام إلى مثلبة بفرية لم تحصل أبداً[٢].

الرابعة: محاولة تفضيل الزهراء عليها السلام عليه

ومن هذه المحاولات ما أثبته بعض المفسّرين في كتبهم حول قوله تعالىٰ: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ**﴾[٣]، فيقول هؤلاء: إن كلّ الناس يوم القيامة يدعون بأسماء أُمّهاتهم؛ وذلك لثلاثة[٤] أسباب أحدها تشريف الحسنين عليهما السلام

(١) السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٧.

(٢) قال الشاعر:

ومـا مـن كـاتبٍ إلا سـتبقىٰ كـتابتُه وإن فَـنِيَت يَـداهُ
فلا تكتُبْ بكفِّكَ غيرَ شيء يَسُـرُّكَ فـي القـيامة أن تَـراهُ

تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

(٣) الأحزاب: ٥.

(٤) انظر الأسباب الثلاثة في ج ٨ ص ٢٨٣ من موسوعة محاضرات الوائلي، وفيه أن صاحب هذا الرأي هو القرطبي وإن كنّا لم نعثر عليه في تفسيره.

بنسبتهما إلى أُمّهما وإشعار بشرفها هيعليها السلام. فهل إن فاطمة الزهراءعليها السلام أفضل من علي بن أبي طالبعليه السلام الذي نذر حياته للإسلام، فكانت عطاء ثرّاً في سبيل إعلاء كلمته. ثم إن فاطمةعليها السلام قد تشرّفت بالزواج من أمير المؤمنينعليه السلام، أليس رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال لها: «**زوّجتك خير الناس من بعدي**»[1]؟ لكن بما أن هذا الحديث وغيره[2] في جانب أمير المؤمنين، ويعدّ أعظم منقبة له حيث إنه صلى الله عليه وآله فضّله فيه على صحابته كافّة، فإن المحاولات الحاقدة راحت تعمل معاولها في هدمه ووضع قباله ما يمسخه بأكاذيب ليتحوّل من فضيلة إلى رذيلة.

وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ومورست في هذا المجال ممّا ذكرنا أو لم نذكر فإن قدح أمير المؤمنين بقي هو المعلّى وسهمه هو الصائب وحظّه هو الأوفر، وبقي عليعليه السلام مفخرة الدهر بما ترك من آثار حسده

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، وفيه: «خير من أعلم»، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق): ٤٣٤ / ٥٧٤ عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ذات يوم في منزل أم إبراهيم، وعنده نفر من أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالبعليه السلام، فلمّا بصر به النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا معشر الناس، أقبل إليكم خير الناس بعدي، وهو مولاكم؛ طاعته مفروضة كطاعتي، ومعصيته محرمة كمعصيتي».

وفي بشارة المصطفى (الطبري): ٤٢٠ ـ ٤٢١ / ٢٨: «يا علي أنت خير الناس بعدي، وأنت أوّل الناس تصدّراً، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع اللّه، ومن عصاك فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى اللّه، ومن أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ اللّه، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض اللّه، يا علي لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق أو كافر».

(٢) مع أن ابن حجر العسقلاني يقول: «قال أحمد وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حقّ أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥.

عليها الحاسدون وأبغضه عليها المبغضون الحاقدون. إن المعاول التي رفعوها للقضاء عليه ارتدّت خائبة خاسئة[1]، وشيّد له الحق قبال كل خلية من نسيج محاولاتهم البائسة بناءً يتسامى في النفوس وفي الدنيا. وهكذا رفعته السماء فلم يؤثر فيه الشتم ولا الهدم[2]، ولم تنحسر عنه الأضواء؛ فكم حاولوا عزله عن إسهاماته مع رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث إنه عليه السلام شاركه صلى الله عليه وآله في أربع وثمانين غزوة من غزواته لم ينكل عليه السلام ولم يفرّ في واحدة منها أبداً، وكان يحمل لواء الإسلام فيها كلّها، ومع ذلك فإن هؤلاء كانوا يصوّرونه على أنه كأي جندي عادي في جيش الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نعم، لقد بقي علي عليه السلام شاخصاً كالعلم يرقب المعاول وهي تتحطم على سفحه بعد أن ترتدّ خاسئة صاغرة، وما تهدّم في هذا المضمار إلا تلك المحاولات وأصحابها حيث أتت عليهم عفونة التاريخ.

المقدمة الثالثة: في حجم علي عليه السلام الذي منحته إياه السماء

هناك من يطعن فيما حُبي به أمير المؤمنين عليه السلام من فضائل ومناقب وكرامات ومعاجز، وما حبته بها إلّا السماء، وما حبته به إلّا لِما أعطى للإسلام وقدّمه في

(١) قال الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

(٢) قال حمزة بن عبد الله بن الزبير بعد أن انتقص ابنه الإمام علياً عليه السلام: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ ونسبي لعبد العزيز بن مروان. انظر: جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

سبيل إعلاء كلمته. وهذا الطعن يستند إلى القول بأننا بالغنا في تضخيم علي عليه السلام وتضخيم مناقبه ومواقفه؛ لأننا ننظر إليه بعين تختلف عن العين التي ننظر بها للآخرين، ونراه بنظرة غير تلك التي نرى بها غيره. فنحن نلوّنه بعيوننا، وعيون الوراثة التي عشنا نحملها هي التي تجعلنا نقول هذا ونراه فيه، وبأننا نقول فيه كما قال الشاعر:

لا عذب الله أُمّي إنها شربت ... حبّ الوصي وغذّتنيه باللبنِ

وكان لي والد يهوى أبا حسن ... فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسنِ[1]

أما غيركم فيراه بالعين الطبيعية، وبالتالي فهو يراه بحجمه الطبيعي، دون أن يمنحه ما تمنحونه إياه من ألقاب وكرامات وغيرها.

حديث عبادة الثقلين

ونقول لهذا المعترض: ألم تسمع أو تقرأ عن نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله عندما برز أمير المؤمنين إلى قتال عمرو بن ودّ العامري حيث رفعه فوق الثقلين بقوله: «**والله لضربة علي عليه السلام لعمرو ابن عبد ودّ تعدل عبادة أُمّتي إلى يوم القيامة**»[2]؟ فعندما يقرأ امرؤ هذه العبارة أو يسمعها من الرسول صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام يجد أن هذا تقييم موضوعي لم ينبع من عاطفة أبداً؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله لا ينطق عن الهوى [3] أبداً. فكيف يمكن أن يفسّر هذا المعنى إلّا بما نعطيه لعليّ عليه السلام وهو عين ما أعطته إيّاه السماء على لسان أمينها في الأرض نبيّنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله [4]؟ وهذا الحديث ترويه كتب

(١) نور البراهين ١: ٣٦.
(٢) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالي اللآلي ٤: ٨٦ / ١٠٢، ينابيع المودّة ١: ٤١٢ / ٥.
(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم: ٣ ـ ٤.
(٤) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام: «من مات يحبّك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهليّة وحوسب بما عمل في الإسلام».

المسلمين عامّة.

حديث برز الإيمان كله

وكذلك ألم يسمع هذا القائل قول رسولنا الأكرمﷺ فيه: «**برز الايمان كلّه إلىٰ الشرك كلّه**»[1] حينما برز لقتال مرحب؟ فالمشرّع الأعظم ورسول السماءﷺ حينما يجعله عليه السلام هو الإسلام والإيمان، فما يكون عليه موقفنا من علي عليه السلام بعد كلّ هذا؟ والرسول الأكرمﷺ لم ينطق من نفسه ولا من هواه وعاطفته بل إنه يترجم قول السماء؟ فهل بعد هذا يقال: إن أعيننا أعين ملوّنة أم إنها أعين طبيعية؟

القرآن يمدح علياً في أكثر من سبعين موطناً

وكذلك ألم يسمع هذا المعترض أو يقرأ ما ورد فيه في كتابنا الكريم حيث إنه ذكره في سبعين آية على أقل الروايات، وإلّا فإنها ثلاثمئة آية[2]. وهذه الآيات

☚ مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، كنز العمّال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١.

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزل في علي ثلاثمئة آية». الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ٢٣١، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧٢، نور الأبصار: ٧٣، إسعاف الراغبين: ١٦٠.
وقال رضي الله عنه: «ما في القرآن آية إلّا وعلي رأسها وقائدها وشريفها وأميرها. ولقد عاتب الله أصحاب محمدﷺ، وماذكر علياً إلا بخير». تفسير ابن أبي حاتم الرازي ٣: ٩٠١ ـ ٩٠٢ / ٥٠٢٥، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٦٣، الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ١٤٠، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، نظم درر السمطين: ٨٩، نور الأبصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، الرياض النضرة ٢: ٢٧٤.
وقال رضي الله عنه: «ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، شواهد التنزيل ١: ٣٩، نور الأبصار: ٣٧.
وقال رضي الله عنه: «ما أنزل اللّه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا وعلي أميرها وشريفها». الصواعق المحرقة: ٢٥، ١١٨، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، كفاية الطالب: ١٤٠، نظم درر السمطين: ٨٩، نور الأبصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، الرياض النضرة ٢: ٢٧٤.

تحيط بجوانب أمير المؤمنين عليه السلام حياطة كاملة بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر. وكيف لنا أن نقف بعيدين عن هذا، ونكتفي بموقف المتفرّج الذي لا يطيع القرآن بعد أن نعرف أن القرآن قد أعطاه كلّ هذه المساحة الواسعة؟ وهل يعدّ هذا النظر إليه نظراً بمنظار ملوّن وخاصّ؟ وهل من موقف له لم يمجّده الإسلام؟ وأي موقف لا يمكن أن يمجّد؟ أعبادته، أم شجاعته، أم تواضعه، أم كرمه، أم علمه، أم غير هذا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة التي ارتضتها له السماء؟

إذن فالقرآن الكريم يذكر الحقائق كما هي، ولسنا نحن من ننظر إليه بعين ملوّنة ولا غيرنا من ينظر إليه بعين طبيعية، بل العكس هو الصحيح، فنحن ننظر إليه بالعين التي رأته فيها السماء متمثّلة برسولها الكريم صلى الله عليه وآله، وغيرنا ينظر إليه بعين محوّلة كلها بغض وحقد وشنآن له لما وهبه الله تعالى من مزايا وصفات وكرامات أعيا أهل عصره فيها.

إننا لا نريد أن نعطي أمير المؤمنين عليه السلام حجماً أكبر من حجمه، ولا أن ننظر إليه على أنه فوق ماهو عليه. والدليل على هذا أننا نكفّر الغلاة فيه وفي أبنائه المعصومين [1]. وهو عليه السلام قد أعطانا دستوراً بهذا، فقد مرّ عليه السلام في شهر رمضان، فرأىٰ جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «**أنتم علىٰ سفر فتستعملون هذه الرخصة؟**». قالوا: لا. قال لهم: «**مرضىٰ؟**». قالوا: لا. قال: «**لماذا تأكلون في شهر رمضان؟**». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «**من أنا؟**». قالوا: أنت إله (والعياذ باللّه). فنزل الإمام من علىٰ راحلته، ومرّغ خدّه علىٰ التراب، وقال لهم: «**أنا عبد من عبيد اللّه، واللّه**

(١) فنحن لا نزوّج المغالي، ولا نغسله ولا ندفنه إذا مات، ولا نورّثه، ونحكم بنجاسته، وبعدم جواز أكل ما يذكّيه، بل نخرجه من حضيرة الإسلام. انظر: شرائع الإسلام ١: ١١ ـ ١٢، المعتبر شرح المختصر ١: ١٩٨، منتهىٰ المطلب ١: ١٥٢، قواعد الأحكام ٣: ٣١٨، تحرير الأحكام ٢: ١٧١ (حجري)، إيضاح الفوائد ١: ٢٦، ٤: ١٢٧، البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد ٢: ٣٢٧ (حجري).

إن لم ترتدعوا لأضرمن عليكم ناراً». ثم أنشد:

لمـــا رأيت الأمـــر أمـــراً مـــنكرا أجّـــجت نـاري ودعـوت قـنبرا[(١)]

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من الغلوّ عمد إلى حرقهم، فقد فهو عليه السلام وضع لنا هذا الدستور بشكل عملي، وأمرنا بفعله اقتداءً بسـنته الفـعلية والقـولية الشريفة.

ونحن كما نرفض الغلاة نرفض العيون التي يكون ملؤها الحقد، والتي تحاول أن تضع حجاباً بينها وبين الواقع، فكل ما نريده هو أن يأخذ هذا الرجل حقّه في الحياة التاريخ ويتربّع على كامل مساحته التي أعطاه إياها الرسول صلى الله عليه وآله مترجـماً لأوامر السماء[(٢)]. ولماذا لا يعطىٰ حجمه الحقيقي هذا؟ إن التاريخ الذي كتب بأيدٍ ملطّخة بالحقد على أهل البيت عليهم السلام وبـدمائهم أو مشـتركة فـي إراقـتها يـتناسى ويتغاضى عن الكثير ممّا له عليه السلام، وكأنه يستكثر ويستنكر عليه أن يكون له عليه السلام ذلك أو أن يذكره له؛ فمثلاً قتلى أُحد كان عددهم ثمانية وعشرين قتيلاً ثمانية عشـر منهم كانوا بسيف علي بن أبي طالب، فلماذا لا يذكر له هذا؟ وهل هي إلا الأحقاد الكامنة والضغائن الدفينة؟

(١) اختيار معرفة الرجـال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، المـبسوط (الشـيخ الطـوسي) ٧: ٢٨١، نـيل الأوطار ٨: ٦، وفيه: قال الحافظ: إن إسناده صحيح. فتح البـاري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، تأويل مختلف الحديث: ٧٠، دستور معالم الحكم (ابن سلامة): ١٩٦، التمهيد ٥: ٣١٨، ميزان الاعتدال ١: ٦٢٦، الأنساب ٥: ٤٩٩، شرح نهج البـلاغة ٨: ١١٩، كـنز العـمّال ١١: ٣٠٣ / ٣١٥٧٨.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧. انظر حول هذه الآية، وإلى كونها في بيعة خمّ: عمدة القاري ١٨: ٢٠٦، تفسير الثعلبي ٤: ٩٢، شواهد التنزيل ١: ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢: ٣٩٢، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي): ٧، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ٩٤، ٩٥، ينابيع المودّة ٢: ٢٤٩، ٢٨٤، الملل والنحل ١: ١٦٣.

المقدمة الرابعة: أنه عليه السلام ليس لفئة بعينها

إن من يرد أن يلج في حياة الرجل العظيم فمن الخطأ أن يحتسبه على جهة معينه أو فئة ما، وأفدح من هذا أنه يُصرّ على كونه عليه السلام كذلك. إنه عليه السلام ليس ملكاً لطائفة أو طبقة في المجتمع الإسلامي، وليس هذا شأنه فقط، بل شأن كل صحابي خدم الإسلام وله إنجازات بحقّه[1]. ونحن نفخر ونعتز به لما قدّم في سبيل الإسلام؛ لأنه يمثل رصيداً له في حياة المسلمين. فعلي عليه السلام للمسلمين كافة؛ لأنه وقف كل ذرة من كيانه للإسلام والمسلمين، ووهب كل جارحة من جوارحه في خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله ودينه القويم. فكل جزء من كيان أمير المؤمنين عليه السلام موقوف للإسلام ليفنيه من أجله؛ وبهذا كان عليه السلام عطاءً للإسلام وكياناً موقوفاً عليه؛ فيجب ألّا يُنظر إليه من زاوية خاصّة. والقلم السليم هو القلم الذي ينظر إليه عليه السلام على أنه باب من الأبواب المفضية إلى الإسلام، ونافذة من نوافذ عطائه الثرّ. فإن كان هذا الرجل قد اتّصف بسمات تميّزه عن غيره فيجب ألّا يثير هذا الأمر في نفوس البعض البغض، ويقدح في صدورهم كوامن الحقد والشنآن، يقول أحد الأُدباء:

لو رأىٰ مثله النبيّ لآخا ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[2]

المقدمة الخامسة: أن تاريخ علي عليه السلام كتب بأيد غير محايدة

إن هذه المساحة الزمنية الواسعة التي تفصلنا عن أمير المؤمنين عليه السلام تحتاج إلى

---

(١) ولهذا فإننا لا يمكن أن ننسى عبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وحنظلة غسيل الملائكة، وعاصماً حميّ الدبر، وغيرهم من الأبطال الأفذاذ والمجاهدين في سبيل اللّه والإسلام.

(٢) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠. وقد قال له رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله في حديث المؤاخاة: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة». الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

ألف عين موضوعية فاحصة لكتابته بشكل علمي ومنهجي صحيح. والواقع أنه يصعب القول بأن هذا التاريخ يمكن أخذه عن طريق محايد، أو أنه كتب بأقلام تقف على الحياد. وببالغ الأسف نقول: هذا هو الذي حدث. إننا يمكن أن نقسم فترات كتابة التاريخ آنذاك إلى قسمين يعود كل قسم منهما إلى عصر، كالآتي:

١ ـ العهد الأُموي

فالأُمويون حينما جاؤوا حاولوا صياغة التاريخ وإعادة كتابته بشكل يتلاءم تماماً مع مآربهم وأهدافهم الجاهلية، سيما ما حصل في زمن معاوية الذي سخّر بيت المال، ووظّف كل الإمكانات للقضاء على كل ذكر يخصّ علي بن أبي طالب. ثم جاء من بعده عبد الملك بن مروان وأبناؤه، وواصلوا المسيرة نفسها[1]. وخلال هذا اتخذت هذه الحرب صفة دمويّة؛ حيث انتهى الأمر بمجزرة دموية تناولت البيت الهاشمي كلّه.

٢ ـ العهد العباسي

ثم جاء دور العباسيين الذين تسنّموا سدّة الحكم باسم البيت العلوي، لكن

---

(١) ومن ذلك محاولة الوليد تعمية الأمر على من سأله عن الإمام السجاد عليه السلام في قصة تناول للحجر الأسعد بعد أن عجز عن تناوله، لولا أن الفرزدق فضحه، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ	والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ
هــذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهُمُ	هذا التقيُّ النّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
وليس قولُك مَن هذا بضائرِه	العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
في كفه خَيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ	من كفِّ أروعَ في عِرنِينِه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغضَىٰ من مَهابَتِهِ	فلا يُكَلَّمُ إلّا حينَ يبتسمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانُ رَاحَتِهِ	رُكنَ الحطيمِ إذا ما جَاءَ يَستَلِمُ

إلى آخر ميميّته الرائعة. مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

ومن ذلك أن أحد كتّاب الوالي الأُمويّ خالد بن عبد اللّه القسريّ علىٰ الكوفة سأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المؤمنين عليه السلام؛ فهل يذكرها، أم لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم.

عهدهم كان أشدّ وأنكى على الهاشميين، حيث حاربوهم بكل ما استطاعوا وما أُوتوا من قوة وقدرات وطاقات. ثم أعقبهم ذيولهم وصنائعهم من السلاجقة والأتراك الذين انقلبوا عليهم، وهؤلاء فعلوا كفعلهم في أهل البيت عليهم السلام. وكذلك فعل التتر ما فعل غيرهم.

بل إن الأمر تجاوزه وامتدّ إلى الآن، حيث لا زلنا نجد من يكتب بحقد وعداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام. وهذا كلّه يحتاج لإعادة نظر؛ لأنّه لا بدّ من تصحيح الوضع الخطأ، كما يجب ألا تضيّع هذه الثروة التي غطّاها التاريخ بالضباب. فعلينا أن ندرسه عليه السلام كما هو؛ كي تأخذ دنيا الإسلام حقّها الواجب لها من عطائه الثّر الضخم؛ لأنه عطاء للمسلمين كافّة.

وبعد هذه المقدمات نرجع إلى سيرة هذا الرجل العظيم لنتناولها ناحية ناحية، كل ناحية بمبحث إن شاء الله تعالىٰ:

المبحث الثاني: في أنه عليه السلام أكبر من الوعاء الذي احتواه

لقد اختار الله تعالى لهذا الرجل العظيم أوعية احتوته، وعادة ما تكون الأوعية (الظروف) أكبر من المظروف، غير أن هذا الأمر على العكس مع علي بن أبي طالب عليه السلام فهو دوماً وأبداً أكبر من الظرف الذي احتواه إلّا صدر رسول الله صلى الله عليه وآله. والأوعية التي اختارها الله تعالى لهذا الرجل على نوعين: مادية ومعنوية، وهي أوعية تتناسب مع أمير المؤمنين عليه السلام من حيث طهارته وألقه.

وهنا نقطة ابتلي بها علي بن أبي طالب عليه السلام كما ابتلي بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يروي غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية أن أبوي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ماتا مشركين. فهم يروون عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله نزل على قبر أُمّه فناجى ربه طويلاً ثم بكى، حتى اشتدّ بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكى نبي الله صلى الله عليه وآله بهذا المكان إلّا وقد حدث في أُمّته شيء لا نطيقه. فقال صلى الله عليه وآله لهم: «ما

يبكيكم؟ ». قالوا: يا نبي اللّه، بكينا لبكائك. فقال: « **نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أُمي فبكيت. واستأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. ثم جاءني جبريل عليه‌السلام فقال: تبرّأ من أُمّك كما تبرّأ إبراهيم عليه‌السلام من أبيه.** » [1].

ويعلّق بعض علمائهم على هذا بالقول: هذا أمر عظيم. وفعلاً لهو أمر عظيم أن نتصوّر أن أبوي الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله مشركان نجسان، وأن الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله قد وصل إلى الدنيا بوعاء نجس؛ ذلك أن المشركين نجس [2]. وهذا ظلم للرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله وافتراء عليه.

الوعاء الأول: صلب النبي إبراهيم عليه‌السلام

الواقع أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله طاهر من طاهر [3]، وهؤلاء الأطهار بعضهم من بعض، وهو صلى‌الله‌عليه‌وآله الذي يقول لأمير المؤمنين عليه‌السلام: « **أنت مني وأنا منك** » [4].

ويروي ابن سيرين أنه صلى‌الله‌عليه‌وآله قال له: « **أنت ختني وأبو ولدي** » [5]. أي أنك ياعلي

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١، صحيح مسلم ٣: ٦٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠١، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٤، ٣٧٥، ٢: ٦٠٥، صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٤٥، مجمع الزوائد ١: ١١٧.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ التوبة: ٢٨.

(٣) فنحن نخاطبهم بما وصفوا به أنفسهم في زيارتهم فنقول: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمّات ثيابها» مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

(٤) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ ـ ١٦٥، ٥: ٣٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٣.

(٥) مسند أحمد ٥: ٢٠٤، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٤٩، خصائص أمير المؤمنين عليه‌السلام

من سنخي ومن طينتي نفسها. فعلي عليه السلام في خطّ الإمامة، وهو امتداد لخطّ النبوّة.

ثم إنه ينبغي التنبيه إلى أن بيت عبد المطّلب عليه السلام لم يعرف الشرك أبداً، وهو ابن نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام، فعلي عليه السلام ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام ومن وعاء النبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

الوعاء الثاني: الكعبة المشرّفة

وبعد أن اختار الله تعالى لأمير المؤمنين عليه السلام الوعاء الذي ولد منه، جاء دور اختيار الوعاء الذي يولد فيه، فكان أمر الله تعالى أن اختار له الكعبة المشرّفة موضع ولادة، وهو ما لم يكن لأحد قبله ولا لأحد بعده مطلقاً. واختيار الكعبة المقدّسة وعاءً لولادته عليه السلام له دلالات إيجابية عدّة؛ لأن الكعبة وعاء مشرّف في نظر المسلمين عامّة، فهي أشرف البيوت عند الله وأكرمها عليه، لكن لا بد من بيان أن الظرف هنا لم يكن أشرف من المظروف البتّة كما ذكرنا في صدر هذا المبحث. والدليل على هذا أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب حينما مرّ على الحجر الأسعد نظر إليه ثم خاطبه بقوله: «أما واللّه، لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلك ما قبّلتك». ثم قبّله [1].

فالله تعبّدنا بإكرام الحجر والبيت لكن لا على أساس أنهما أشرف من رسول الله صلى الله عليه وآله أو من علي أمير المؤمنين عليه السلام[2]، فالنبي صلى الله عليه وآله أشرف الموجودات الممكنة،

☚ (النسائي): ١٢٢، كنز العمّال ١١: ٦٩٣ / ٣٣١٠٩، ١٢: ٢٥٥ / ٣٦٧٥٥.

(١) مسند أحمد ١: ١٦ـ ١٧، ٢٦، ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٥١، ٥٣ ـ ٥٤، صحيح البخاري ٢: ١٥٩ ـ ١٦٠، ٢: ١٦٢، صحيح مسلم ٤: ٦٦ ـ ٦٧، سنن ابن ماجة ٢: ٩٨١ ـ ٩٨٢ / ٢٩٤٣.

(٢) بل ورد أن المؤمن عامّة له حرمة عند الله أعظم من حرمة بيت الله الحرام أو مثلها، قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله في إحدى حجّاته: «إن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال:

والإمام علي عليه السلام جزء من رسول الله صلى الله عليه وآله بنصّ القرآن الكريم: ﴿**تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[(١)]؛ ولذا فإنه عليه السلام يأخذ حكم رسول الله صلى الله عليه وآله هنا.

إذن اختيار الكعبة وعاءً له عليه السلام يعدّ من المناقب الشريفة والفضائل العظيمة، لكنه عليه السلام يبقى أشرف من الكعبة كما رسول الله صلى الله عليه وآله أشرف منها.

الوعاء الثالث: صدر نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله

وهذا الوعاء من الأوعية المعنوية، وقد جاءت هذه الحالة نتيجة تخطيط السماء، فترعرع أمير المؤمنين عليه السلام ونما في رعاية أشرف موجود وأعظم مخلوق. لقد كان صلى الله عليه وآله يوجره اللبن في فمه، ويهزّ له مهده، ويضجعه إلى جانبه، ويحمله على صدره ويطوف به شعاب مكّة المكرّمة إلى أن كبر. فلم يكن صلى الله عليه وآله يفارقه، وبعد أن كبر راح صلى الله عليه وآله يصحبه معه إلى غار حراء. قالت للنبي صلى الله عليه وآله إحدى نسائه: إن لي ليلة من تسع ليالٍ، ثم يأتي علي وتخلو به فيها وتتركني؟ فقال صلى الله عليه وآله لها: «**إياك أن تغضبيه، والله لا يغضبه أحد إلا ويكبّه الله على منخريه في نار جهنم**».

وهكذا استلهم عليه السلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيوضاته وآدابه، يقول عليه السلام: «**وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة؛ وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمُنيه**»[(٢)].

☚ ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.
وقال الصادق عليه السلام: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة... إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلي أقبلت». الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، ينابيع المودّة ١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

فأي وعاء أشرف من هذا الوعاء؟ وهكذا فإن الله تعالى اختار لعلي عليه السلام البيوت الطاهرة والأمكنة الطاهرة. وكل وعاء مرّ به علي بن أبي طالب عليه السلام فهو من اختيار الله تعالى له، حيث إنه تعالى أراد له ذلك.

الوعاء الرابع: الوادي المقدّس الذي دفن فيه

ثم اختار له تعالى الوعاء الذي حلّ فيه جسده الطاهر، وهذا الوعاء والتربة التي حلّ فيها هو عبارة عن وادٍ مقدّس. وعند بعض المفسرين أن الوادي المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾[1] هو التربة التي دفن فيها علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد أشار عبد الباقي العمري إلى هذا المعنى في قوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها … يفوح لنا كالعَنبر المتنفِّسِ
ونمشي حفاةً في ثَراها تَقَدُّساً … نَرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ[2]

الآثار المترتّبة على أُخوّة الإيمان

وربما يقول أحد ما: إن ﴿**إِنَّمَا**﴾ تفيد الحصر، كأن تقول مثلاً: إنما الأحمر هذا اللون، أي أنه لا أحمر إلّا هذا اللون. وعليه فإن المعنى يكون هنا أنه لا توجد أُخوّة إلّا أُخوّة الإيمان. وتترتّب على هذه الأُخوة آثار عدّة منها:

الأثر الأول: أن الأُخوّة ليست للدم

فبعض الإخوة وإن كانوا من صلب واحد أو من بطن واحد لكن هذه ليس علة للإخوة؛ لأن المعلول لا يتخلّف عن العلّة، كشعاع الشمس الذي لا يتخلف عنها إذا طلعت. فالإخوة الذين يكونون من صلب واحد وبطن واحد قد لا يتحقّق معنىٰ

---

(١) طه: ١٢.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

الأُخوّة فيما بينهم، كأنها تُرى بينهم العداوة والبغضاء. ونستنتج من هذا أن الانحدار من صلب واحد أو بطن واحد لا يمكن أن يكون علّة للأُخوّة.

وكمثال على هذا قصّة الأمين والمأمون فهما أخوان كما هو معروف، وقد عاشا في ظروف موحدة، لكن كان لكل واحد منهما اتجاهه في الحياة، وقد وصل الأمر بينهما إلى درجة أن دخلت جيوش المأمون على الأمين وقتلوه وشدّوا الحبل به، وجرّوه في الشارع. لقد قتله المأمون مع أنه أخوه، وهذا يدل على انعدام الإيمان فيما بينهما الأمر الذي أوصلهما إلى أن يصبغا مياه دجلة باللون الأحمر، وتضطر مجموعة من عائلة الأمين إلى التشرّد. وهكذا انتهىٰ الأمر إلى هذا الحال على الرغم من كونهما أخوين.

فمجرد الانتماء إلى الأب أو الأُم ليس علّة للأُخوّة. ثمّ إن المشرّع الإسلامي يرتّب آثاراً على أُخوّة الإيمان أكثر ممّا يرتبها على أُخوّة الدم. فالإمام الرضا عليه السلام مثلاً كان له إخوة، لكن لما توفي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فإن أول من خاصمه إخوته، فرفعوا عليه دعوى مفادها أنه قد أخذ ميراث أبيهم واستبدّ به. وهذه تهمة خطيرة لإمام مفترض الطاعة، مع أن الإمام الرضا عليه السلام كان يوصل الأموال إليهم ويتعاهدهم واحداً واحداً.

وكان أحدهم ـ ويسمى العباس ـ أشدّ خصومة للإمام الرضا عليه السلام من غيره؛ بحيث إنه لا يتورّع عن اتّهام الإمام عليه السلام في أي مجلس. وهؤلاء كانوا يعيشون محنة من المفروض أن تجمعهم، ولكنهم لم يراعوا ظرف الإمام عليه السلام. ومن مظاهر هذه المحنة ـ ومحن أهل البيت عليهم السلام كثيرة ـ أنه حينما سجن الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام حصل تحرّك شيعي في بعض المناطق الموالية لأهل البيت عليهم السلام، وقد أخذ هذا التحرّك صبغة ثورات ضد الرشيد والمأمون من بعده، وكان الجلودي قائد

المنطقة الشرقية في خراسان للرشيد، وثم انتقل إلى المدينة، فأرسل إليه الرشيد وقال له: إني آمرك أن تكبس دار موسىٰ بن جعفر وتحرقها بالنار، وتأخذ الملابس والحلي من العلويات. وفعلاً جاء الجلودي ووضع الحطب وأشعل النار، فأحرق دار الإمامعليه السلام، فخرج الإمام الرضاعليه السلام من الدار وهو يردّد: «**أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن إبراهيم خليل الله**»، فأطفأ النار، فقال له الجلودي، أنا مأمور بأخذ الحلي والحلل من النساء. فقال له الإمام الرضاعليه السلام: «**أما هذا فلا سبيل إليه، ودونه رقبتي. وأنا آتيك بالحلي بيدي وأعطيك الضمان بذلك على ألّا تتعرض لعائلتي**». وفعلاً دخل الإمامعليه السلام وانتزع ماعند النساء من الحلي فأعطاه إيّاه[١].

ومرت أيام وليالٍ، وجاء المأمون للحكم ونصب الإمام الرضاعليه السلام ولياً للعهد، وجاء بالجلودي، فلما رآه الإمام الرضا شاهد أن وجه المأمون قد تغيّر؛ فقد كان يعرف ما الذي فعله الجلودي مع عائلة الإمام وفي داره، لكن الإمامعليه السلام التفت إليه وقال: «**هب لي هذا الشيخ**». فهوعليه السلام يتشفّع له ويرجو المأمون ألّا يعاقبه مع ما له من موقف شائن معه، لكنه ظن أن الإمامعليه السلام إنما يحرّض المأمون ضدّه، فالتفت إلى المأمون وقال: أُقسم عليك بالله ألّا تسمع كلام هذا فيّ. فقال المأمون: أنا فعلاً سوف لن أسمع كلامه فيك، اطرحوه واضربوا عنقه. فقتله[٢].

فالإمام الرضاعليه السلام وإخوته عاشوا هذه الأجواء المشحونة، وتعرّضوا إلى محنة، وكانعليه السلام يعول عوائلهم لكنهم مع هذا وقفوا منه موقفاً غاية في الشدّة، ولاحقوه مع أنهم إخوة من أب واحد. فالانتماء إذن من أُم أو أب ليس علّة للحب والأُلفة والأُخوّة، أمّا الإيمان الواقعي فهو علّة للأُخوّة، فأُخوّة الإيمان

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ١٧١ ـ ١٧٣. (٢) المصدر نفسه.

أُخوّة ثابتة تجمع بين القلوب، والمؤمن ينصر المؤمن ويراعيه. وهذا هو السبب الذي من أجله يحرص الإسلام علىٰ غرس الإيمان في النفوس، فهدفه هـو أن تتحقق الحياة الكريمة القائمة على الحبّ والمودّة. وكـلّ شـيء يـنافي الأُخـوّة يحاربه الإسلام.

والإسلام يحث على التكافل بين المؤمن وأخـيه المـؤمن: «**أأبـيت مـبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟**»[1]. فليس من الإسلام من يبيت مبطاناً وإلى جانبه جـار يتضوّر جوعاً. فالإنسان لو يخرج ما عليه من حق شرعي لما جاع جاره، فإن لم يفعل لم يكن هناك جوّ إيماني. وهناك نوعان من الجوع، نـذكر روايـة يـرويها صاحب (الوسائل) الحرّ العاملي في وسائله فيقول: عن معتب قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام وقد تزيّد السعر بالمدينة: «**كم عندنا من طعام؟**». فقلت: عندنا مـا يكفينا أشهراً كثيرة. فقال عليه السلام: «**أخرجه وبعه**». قـال: فـقلت له: وليس بـالمدينة طعام؟ قال: «**بعه**».

يقول: فلمّا بعته قال: «**اشترِ مع الناس يوماً بيوم**». وقال: «**يا معتب، اجـعل قوت عيالي نصفاً شعيراً ونصفاً حنطة، فإن الله يعلم أني واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها، ولكني أُحب أن يراني الله قد أحسنت تقدير المعيشة**»[2].

فهذه خطوة عظيمة من الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وتصرفه هذا تشريع، فهناك الآن من يعتبر عمل الصحابي سنّة، وكذلك أهل البيت عليهم السلام فإن فعلهم يعدّ تشريعاً.

وفي الكتاب نفسه يروي العاملي رواية أُخرى فيقول: أصاب أهل المدينة غلاء وقحط، حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله ويشتري ببعض

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) وسائل الشيعة ١٧: ٤٣٦ ـ ٤٣٧ / ٢٢٩٣٢، وانظر الكافي ٥: ١٦٦ / ٢.

الطعام، وكان عند أبي عبد الله عليه السلام طعام جيّد قد اشتراه أوّل السنة، فقال لبعض مواليه: «**اشترِ لنا شعيراً فاخلطه بهذا الطعام، أو بعه؛ فإنا نكره أن نأكل جيّداً ويأكل الناس رديئاً**»[1].

فنحن مسلمون، وهذا اللون يحقّق معنىٰ الإخاء فيما بيننا، ولهذا فإننا نجد في باب الحكرة أن الرجل المحتكر (والاحتكار ليس في الطعام فقط، بل هو في كل شيء يسبب ضرراً للمسلمين ويختصّ به رجل واحد) مخالف للإيمان.

أقسام الناس في التشريع الروماني

فقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ يشكّل مبدأ حضاريّاً يتناغم مع كل النظم الدولية الحديثة، وهو مبدأ أعلنه الإسلام، في وقت كان يسود العالم فكر فلاسفة اليونان (أرسطو وافلاطون)، ونظرياتهم في التمييز بين الناس لا زالت موجودة وتعيش إلى الآن بيننا، وقد أثّرت سلباً على الفكر الاجتماعي. وكان أرسطو يقول: إن نظام الرقّ نظام طبيعي. أي أن الله خلق البعض ليكون عبداً، فبعض الناس مخلوقون ليكونوا عبيداً، وبعضهم مخلوقون ليكونوا أحراراً. فكل جنس له مخّ ودم معيّنان، وهذا معلم الإسكندر وسيد فلاسفة اليونان، ومع ذلك يقسم الآلة إلى قسمين: آلة صامتة وآله ناطقة، فالآلة الصامتة مثل الفأس والمسحاة وغيرهما من أدوات الزراعة والصناعة، والآلة الناطقة هي الفلاح والحارس والعامل، فحكمهم حكم الفأس. فهل يوجد إجحاف بالإنسانية أكثر من هذا؟ بل والأنكى من هذا أنهم يسموننا الوحوش، وفكرهم هذا يقتل الإنسان والإنسانية في حين أن الجزيرة العربية مهد البداوة قد انطلق منها فكر عظيم لبناء الإنسان ومجتمعه على أساس المساواة والمؤاخاة.

---

(١) وسائل الشيعة ١٧: ٤٣٦ / ٢٢٩٣١، وانظر الكافي ٥: ١٦٦ / ١.

إن فلسفة روما تقسم الناس حسب التشريع إلى قسمين:

الأوّل: الأحرار

وهم نوعان: الأُصلاء وهم الرومانيون، وغير الأُصلاء وهم اللاتينيون.

الثاني: السفلة

وهم أربعة أقسام: الأرقّاء وهم العبيد، والمعتقون، ونصف الأحرار، والأقنان وهم الذين يتبعون الأرض عند بيعها وشرائها.

ووفق هذا التشريع والتقسيم فإن حقوق المواطنة تكون للأحرار (الرومان) فقط، أما الباقون فليس لهم حقّ المواطنة. وهذا الأمر الغريب له مثيل في حضارة العرب أيّام الجاهليّة، فعند بعض القبائل في الجزيرة نوعان من الولاء: ولاء عتاقة، وولاء اتّباعة؛ فمولى عتاقة هو المأخوذ من الحرب ويصبح أسيراً ثم يعتقونه فيتبع القبيلة التي أعتقته، لكن لا يعطونه حقوق الفرد من القبيلة، أي ليس له حقّ المواطن. أما مولى اتّباعة فهو الشخص الذي تنفيه قبيلته، فيأتي إلى قبيلة ثانية فتقبله عضواً فيها ويكون تابعاً لها، لكنها لا تعطيه حقّ المواطنة كذلك.

وهكذا نجد أن الغرب والشرق كانا على هذه الشاكلة من التمييز العرقي أو الطبقي أو ما شاكل، لكن حينما جاء الإسلام غيّر كلّ هذا، كان عقبة بن عامر صاحب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، وكان مرّة يقود بغلة النبي ﷺ في سفر له، يقول: قدت برسول الله ﷺ وهو على راحلته رتوة من الليل ـ والرتوة: نحو من ميل، أو رمية سهم [1] ـ ثم قال لي: «**أنخ**». فأنخت، فنزل عن راحلته ثم قال: «**اركب يا عقبة**». فقلت: سبحان الله! على راحلتك؟ فأمرني فقال: «**اركب**». فقلت أيضا مثل ذلك وردّدت ذلك مراراً، حتى خفت أن أعصي رسول الله ﷺ،

(١) لسان العرب ١٤: ٣٠٨ ـ رتا.

فركبت راحلته ثم زجر ناقته فقامت، ثم قاد بي [١].

وهذا اللون من التعامل والتكريم لا يمكن أن يجده أحد في أي تشريع، فهذا المكان الذي يقولون عنه: إنه مركز البداوة، وإنه المركز الذي أعدّ هـذه الهـجمة البدوية، إنه لم يكن كذلك مطلقاً، بل إنه مركز لهجمة حضارية غيّرت وجه الدنيا، وعبّرت عن أن الإنسان أخو الإنسان، وأن الإيمان يلغي كـلّ الفـوارق: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾. فهل هناك في غير الإسلام رئيس يعتق عبداً، ثم يـجلس إلى جانبه ويتزوّج من قومه ويأكل معه؟ لقد آخى النبي ﷺ بين عظماء من العـرب وبين خباب بن الأرتّ، وبلال الحبشي. وكان بنو بياضة أرقى أُسرة في الأنصار، لكن النبي ﷺ أمرهم بأن يزوجوا غلاماً منهم وهذا التكريم للإنسان يحقّق معنى الآية من أن الإيمان هو علّة الإخاء، فقد أعلن النبي ﷺ الإخاء في هذه الفترة التي تموج الأرض بها بالتفرقة.

شذرات مضيئة من سيرة السجاد عليه السلام

يـا راهب الليل في جنح الظلام ومن ... إذا دجـا الليل يـقضيه عـلى ألمِ
وإن بـدا الصـبح يـهمي مـن مكـارمه ... مـا يـخجل السحب من نـعمى ومن كرمِ
أرومـة فـي بـيوت الأنـبياء ربت ... آبـاؤها عـلم يـنمى إلى عـلمِ

توطئة

يعد اسم زين العابدين علي السجاد عليه السلام اسماً أثيراً ومـحبّباً لنـفوس كـلّ مـن يتفاعل معه تفاعلاً سليماً، والاسم في حقيقته واجهة وعنوان للـمسمّى، وغـالباً

(١) المعجم الكبير ١٧: ٣٣٥ ـ ٣٣٦. إمتاع الأسماع ٧: ٢٢٣.

يقال: إن مضمون الاسم يترشّح على الاسم الذي هو في حقيقته باب موصل إلى المعنى أو المضمون. فاسم السجادعليه السلام بهذا كان محبّباً لأهل البيتعليهم السلام ولشيعتهم. وهو أمر سبق أن أثبتناه فيما سلف من محاضرات.

المباحث العامة للموضوع

ثم إن هناك عدّة منازل في حياة الإمام السجادعليه السلام ينبغي الوقوف عند كلّ واحد منها بمبحث مستقلّ.

المبحث الأول: كناهعليه السلام وألقابه

يكنى الإمامعليه السلام بكنى عديدة، ومنها: أبو محمّد، وأبو الحسن، وأبو بكر. وقد سئلت مرّة: لماذا تتجاهلون هذه المظاهر والشكليات وتتجاوزونها، فلا تذكرون أن لأمير المؤمنينعليه السلام ابنين اسماهما عمر وأبا بكر؟ ولماذا لا تذكرون أن للسجادعليه السلام كنية هي أبو بكر؟ والحال أن هذا الكلام مغالطة، بل هو غير صحيح البتة؛ لأنه لو رجع إلى كتبنا المختصّة بالتراجم لوجد أن فيها كل هذا، فنحن ليس لدينا عداء مع الأسماء أبداً[1] إلّا ما حرّمت التسمية به، بل وحتى مع الأشخاص، فنحن لا نعادي إلّا على ضوء مقاييس الإسلام، فنحن نخضع لقواعد التقييم، وهناك فرق بين العداء والتقييم.

ومن هذا أننا حينما نمرّ بالفترة التي عاشها أبو بكر مع أهل بيت النبوّةعليهم السلام فإننا نسجّل حولها موقفاً تقييميّاً، وهو الموقف الذي وقفه من سيّدة النساء فاطمةعليها السلام الزهراء في قضيّة فدك، لنستجلي الدليل والقرائن فيما إذا كانت تقف إلى جانب الزهراءعليها السلام أو إلى جانبه هو. فكلّ ما يهمّنا هو الدليل الواقعي لإثبات أي الطرفين

(١) كما ادّعاه ابن تيمية، انظر منهاج السنّة النبويّة ٥: ١٧٦.

أحقّ من غيره.

من يسبّ؟

وخلاصة القول: أنه ليس بيننا وبين أحد عداء، ونحن لا نسبّ ولا نشتم بل غيرنا هو من يفعل ذلك. ولهذا المتسائل وغيره يكفي أن نقول: إن من يقرأ مؤلفات ابن تيمية الذي راح يتجذّر في هذه الساحة سيعرف من الذي يسب ويشتم، ومن الذي يملك لساناً ليس عليه من الله رقيب، أمّا نحن فمهذّبون بتهذيب أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول لنا في مثل هذه المواقف: «**إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم؛ حتى يعرف الحقّ من جهله ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به**»[1].

فهو عليه السلام يأمرنا بأن نترفّع عن هذا المستوى؛ لأنه مستوى لا يحلّ فيه إلّا الضحل الفارغ. وزيادة في التوضيح نقول: إننا حتى في الفترة التي استحكمت فيها هذه الظاهرة لم نكن فيها أكثر من أن نعيش حالة ردّ فعل تجاه ما كان يفعله الأُمويّون وأتباعهم من سبّ لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو الأمر الذي استمرّ قرابة القرن من الزمان. فنحن نأبى الشتم، وهو ليس من أخلاقنا ولا من شيمنا.

وخلاصة القول أننا ليس عندنا عداء لا مع الأسماء ولا مع المسميات، وإنما نتّبع الموقف الذي يسنده الدليل فقط؛ فما أدّى إليه الدليل ذهبنا إليه، وما قرّر أن فيه خطأ خطّأناه وقلنا بعدم صحّته، وعدم صحّة الذهاب إليه، وما قرر أنه حرام

---

(١) وذلك حينما بلغه أن بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام حربهم بصفين. نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٦، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦١، المعيار والموازنة: ١٣٧.

قلنا بحرمته. أما أن يُطلب منا إلغاء المقاييس التي رسمها القرآن الكريم والسنة النبوية فهذا غير مقبول وغير منطقي؛ لأنه إلغاء لوجودنا.

رجع

وكما أن للإمام علي بن الحسين عليه السلام عدّة كنى له عدّة ألقاب منها الزكي وزين العابدين وذو الثفنات والسجاد. وهذه الألقاب مشتقّة من صفات قائمة بذاته الشريفة؛ بمعنى أنه سجّاد لطول سجوده وقيامه وقعوده، فهو عليه السلام عرف عنه أن السجود ترك في جبهته أثراً لطوله وكثرته؛ ولذلك فقد عُبّر عنه بذي الثفنات الذي صار لقباً مشتهراً له. تقول الرواية: إن الإمام الباقر عليه السلام دخل عليه يوماً فوجده قد اصفر لونه من السهر، ورمصت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة[1].

بين التجسيم والتنزيه

وهكذا نجد أنه عليه السلام ينفرد في محرابه يناجي ربه ويعبده عبادة أقلّ ما يقال فيها: إنها ترتقي إلى مستوى الإمامة. وعبارة المؤرّخين في حقّه، وهي: كان الإمام السجاد عليه السلام أثناء صلاته إذا جن عليه الليل ووقف للصلاة لا يتحرّك منه شيء إلّا ما تحرّكه الريح[2] خير شاهد على هذا. وهي عبارة لا يمكن تقييمها إلّا إذا قيّمنا رافدين من الفكر حول صفات الله تعالىٰ:

الرافد الأول: الصحيفة السجادية

فمن يقرأ الصحيفة السجادية المشرّفة يجد أنها حينما تمرّ بذكر الله جل وعلا تنعته بأشرف النعوت وأدقّها، وتنزّهه عن الصفات الجسميّة، وهي بهذا لا تعدو

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.
(٢) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

وصف القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وآله الصحيحة له تعالىٰ.

الرافد الثاني: أقوال المجسمة

وفي الجانب المقابل نجد نزعة التجسيم واضحة عندهم، وهي نـزعة تـصفه تعالى بأن عنده رجلاً وبطناً وفرجاً [١]. وهي نزعة لا تلتقي مع الصورة المشـرقة التي نقرؤها في القران الكريم عنه تعالىٰ . أما أن يصوّر على أنه تعالى خلق آدم على صورته؛ طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع [٢]، فهذا لون من الفكـر لا يمكن أن نقبله أو يقبل العقل به؛ لأنه فكر بعيد عن الرافد الإسلامي، ولا يـلتقي معه. ونحن حينما نأباه فإنما نأباه بالدليل، ومن كان عنده دليل على مدّعاه فـلا مانع من أن يدلي به في ساحة النقاش النظيف، وحينها تترك الأدلّة تتلاقح حتى تفضي إلى الصواب.

سبب تسميته عليه السلام بزين العابدين

إذن فكلّ الألقاب التي كان عليه السلام يلقّب بها إنما هي ألقاب مـنتزعة مـن أفـعاله العبادية في حياته، ومنها لقب زين العابدين. وهناك عدّة روايات تُنقل في هذا المجال حول سبب تلقّبه وتسميته عليه السلام بهذا اللقب، ومنها:

الأولى: أنها مروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله. فهناك رواية تنقل عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله تنصّ على أن هذا التعبير وارد عنه صلى الله عليه وآله، فقد نصّ أكثر المؤرخين على أنه صلى الله عليه وآله كان يخبر عن جملة من الملاحم ويحدّث عنها، فقال من ضمن ماقال صلى الله عليه وآله: «**إذا كـان يوم القيامة ينادي منادٍ: أين زين العابدين؟ فكأني انظر إلى ولدي علي بن الحسين**

---

(١) انظر: السيف الصقيل: ١٥٤، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.

(٢) صحيح البخاري ٧: ١٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩، إعانة الطالبين ٤: ٢١٣.

بن علي بن أبي طالب يخطو بين الصفوف» [١].

الثانية: أنها عن الزهري عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله [٢].

الثالثة: أنها عن الزهري نفسه. فهناك رواية أُخرى تنسب هذه التسمية للزهري نفسه، فقد كان قاضياً عند الأُمويّين، فابتلي بدم خطأ؛ حيث إنه كان قد جيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة، وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه. ودخل الإمام السجاد عليه السلام المسجد مرّة فسأل عنه، فقيل له: هل لك فيه؟ قال عليه السلام: «**إن لي فيه**». أي أُريد أن أراه، فقال له أحدهم: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمام عليه السلام وقال له: «**إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة اللّه أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك**». فقال الزهري: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [٣]، لقد فرّجت عني فرّج اللّه عنك، أشهد أنك زين العابدين. ثم رجع إلى أهله وماله [٤].

الرابعة: أنها منسوبة لهاتف

وفي المقابل نجد أن هناك رواية تنسب هذه التسمية لهاتف، حيث إنها تقول: سمع صوت لم يُرَ شخصه ينعته بهذا النعت [٥].

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤١٠ / ٥٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٤.

(٢) علل الشرائع ١: ٢٣٠ / ب ١٦٥، ح ١، وفيه: عن عمران بن سليم قال: كان الزهري إذا حدّث عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: حدّثني زين العابدين علي بن الحسين. فقال له سفيان بن عيينة: ولم تقول له زين العابدين؟ قال: لأني سمعت سعيد بن المسيّب يحدّث عن ابن عبّاس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال. ثم نقل الحديث الآنف.

(٣) الأنعام: ١٢٤. (٤) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨.

(٥) علل الشرائع ١: ٢٣٠ / ب ١٦٥، ح ١.

صفة عبادته عليه السلام

وعلى أية حال فمهما كثرت الروايات حول سبب التسمية، فإن منشأ انتزاعها موجود، وهو كثرة عبادته عليه السلام التي كانت تتّصف بالصدق والحرارة والتفاعل مع السماء، والبعد عن الرياء والتصنّع. وقد يشاهَد شخص يقف بين يدي الله تعالىٰ، لكن حينما تلمس مشاعره تجاه السماء تجد أنها خامدة بعيدة عن أي لون من ألوان الانفعال بها، أمّا السجاد عليه السلام فيقع ولده الإمام محمد الباقر عليه السلام في البئر وهو قائم يصلّي وكانت بعيدة القعر، فنظرت إليه اُمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول اللّه، غرق والله ابنك محمّد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعاً على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها ـ وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل ـ فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء[1].

أو يحترق بيته وهو يصلّي، فيقال له: النار قد التهمت البيت. فلا يلتفت، بل يقول بعد أن يتم صلاته ويسأل عن سبب عدم التفاته: «**كنت مشغولاً عنها بنار الآخرة**».

ومعنى هذا أنه كان منفعلاً بأجواء اُخرى غير هذه الأجواء التي هو فيها.. أجواء داخلية يعمرها الحب ويغمرها الاتّصال بالله تعالىٰ. أمّا هذه الأجواء الخارجية فلم تكن لتأخذه عن حالة اتّصاله بالله تعالىٰ.

(١) دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨، بحار الأنوار ٤٦: ٣٤ / ٢٩.

فنمط العبادة عندهعليه‌السلام لا يقف عند حدود المحراب فقط، بل يتعدّاه إلى الحياة العملية. وهذه نقطة هامّة أودّ أن أسترعي الانتباه إليها واُلفت الأنظار إلى أهميتها، فالكثير يظن أن العبادة إنما هي في المحراب فقط؛ فيؤدي صلاته وصيامه ثم ينتهي الأمر عند هذا الحدّ. وهذا تصوّر سلبي لها، وغير صحيح للعبادة؛ لأن الدنيا كلّها ميدان لها؛ الشارع والمؤسّسة والمدرسة والبيت والاُسرة والمصنع والسوق وغير ذلك.

فالمرء حينما يستخدم الشارع ضمن الضوابط الشرعية والآداب الإسلامية[1] فإنما هو في حالة عبادة؛ لأنه حينئذ يحافظ على آداب الشارع وعلى السلام بينه وبين المسلمين الذين يلقاهم، حيث إنه يستقبلهم ببشر وبشاشة وأخلاق ووجه يطفح حباً لهم واحتراماً. وهكذا نجد أن هذا التصرّف عبادة لأنه ضمن الضوابط الإسلامية.

وكذلك معاملاته معهم إذا كانت تتميّز بالعفّة والنزاهة الصدق كالبيع والشراء وغير ذلك من المعاملات، فإنه حينئذ يكون في حالة عبادة؛ لأن من يعفّ يده ولسانه، ولا يعتدي على الآخرين، بل إن المروءة تتملّكه في كلّ معاملاته مع الناس لهو في نطاق الإسلام وضمن حدوده، وبالتالي فهو في حالة عبادة؛ لأنه في حالة قربى إلى الله تعالىٰ.

وهذا الأمر يجري أيضاً مع الاُسرة، فإذا كان تعامله مع زوجته وأطفاله تعاملاً إسلامياً صحيحاً كان في حالة عبادة، كان الإمام السجادعليه‌السلام قد رُبي يتيم الاُم؛ لأن

(١) التي سنّها النبي الاكرمصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فقال «إياكم والجلوس بالطرقات». قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدّ نتحدث فيها. فقالصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم «إذا أبيتم إلّا المجلس، فأعطوا الطريق حقّه». قالوا: وما حقّ الطريق؟ قالصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: «غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». مسند أحمد ٣: ٣١، صحيح مسلم ٦: ١٦٥.

أُمّه «شاه زنان» قد ماتت وهي نُفساء به، فكفلته جارية لأبيه الإمام الحسين عليه السلام وربّته حتى كبر، فكان عليه السلام يتعامل معها بأرقى ألوان التعامل الإسلامي، بل إنه عليه السلام كان يعاملها كأُمّ له، فهو لم يعرف أُمّاً غيرها، ولذا كان يعبر عنها بقوله: «**أُمّي**». وكان إذا دخل الدار أولاها فروض الطاعة المترتبة للأُم على ولدها، فكان إذا جلس يؤاكلها انتظرها حتى تمدّ يدها إلى الطعام وتأخذ منه ثم يمدّ يده الكريمة ويأكل، ولما سئل عليه السلام عن ذلك وقيل له: نراك تتوقّى كثيراً عندما تجلس معها يابن رسول الله؟ أجاب عليه السلام بقوله: «**إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها**»[1].

وهذا اللون من السلوك الأُسروي قطعاً يبعث على خلق جوّ من الاحترام المتبادل والحبّ والودّ والتقدير. وعليه فإننا نجد أن بناء النظام الأُسري هو من صلب العبادة التي رسمها الإسلام الحنيف؛ فإن لم يُراعَ هذا النظام تفكّكت الأُسرة. لقد قرأت إحصائية نشرتها وزارة العدل الكويتية حول عدد المطلّقات خلال فترة أربعة أشهر، فكانت أسباب الطلاق كارثة حقيقية مع أننا نعيش في بلد مسلم يعيش حالة رخاء وخير، وإضافة إلى هذا فإنه يتوفّر على جوانب إيجابية كثيرة. فمقتضى القاعدة أنه ليس هناك ما يوجب الطلاق بهذه الصورة المرعبة، وبالتالي ليس هناك ما يوجب حالة التفكّك الأُسري التي نراها حاصلة اليوم، والأمر لا يستلزم أكثر من أن نتأدّب قليلاً بآداب الإسلام.

إن الواقع الذي نعيشه اليوم هو واقع بداوة يرفضه الإسلام رفضاً تاماً؛ ولذا فإن الواجب أن نقلع عنه ونتحوّل إلى الواقع الإسلامي المتأدّب بكلّ تفاصيله ودقائقه وجزئيّاته، وإلّا فإن بلداً يغترف من الحضارة الحديثة ضروباً وضروباً، ويتفاعل

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

تفاعلاً كاملاً صباح مساء مع نواقل الحضارة، المفروض به أن ينعكس كلّ هـذا على سلوكياته وخصوصاً في دنيا الأُسرة.

والطلاق بهذا الشكل المروّع يخلق مجموعة من الأبناء من الممكن أن يصبحوا مجرمين، وهذا كلّه يتوقّف على السلوك الأُسروي، فعندما يدخل الأب بيته يجب عليه أن يحمل وجهاً باشّاً ضاحكاً؛ فهذه المرأة التي أخذ الرجل زمام أمرها بكلمة الله، يجب عليه أن يعاملها بأمر الله وحسب أخلاقيات دينه، وأن يربيها ويـقود زمامها. إن المفروض أن الرجل هو مـن له حـق القـوامـة فـي الأُسـرة، وكـان الرسول صلى الله عليه وآله يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1].

فالمفروض بالرجل أن عليه حينما يدخل بـيته أن يشـيع البسـمة فـيه، وأن ينشر جوّاً من الوئـام والمـودّة والتسـامح فـي بـعض الأُمـور غـير الأسـاسية المشفوعة بالتنازل عن بعض الحقوق الشخصية مـقابل اسـتمرار ثـبات الأُسـرة وعدم تفكّكها، ومن أجل رعاية هذه البذرة التي يجب أن تـربّى تـربية سـليمة وفي جوّ أُسريّ طيّب. وهو أمر نحن جميعاً مسؤولون عنه، فأمـر تـربيتهم بـهذا الشكل منوط بنا أمام الله تعالىٰ، وإن أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هـو من سوء الخلق مع العيال[2]. أي أن المرء يعذّب في قبره بسبب سوء خـلقه مـع عياله.

رجـع

وبهذا فإن الإمام عليه السلام يضرب لنا مثلاً سامياً في هذا اللون من السلوك الأُسروي؛ فإذا لقّب بزين العابدين فلأن عبادته تمتدّ على مساحة واسعة من الحياة، مساحة

---

(١) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.

(٢) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

أوسع من التصور الذي يتغلغل في رؤوسنا، والذي يوحي لنا بأن العبادة لا تعدو الرقعة الجغرافية للمحراب. إن الدنيا بأجمعها وبأسرها محراب في نظر الإمام عليه السلام إذا ما روعي في كلّ شيء فيه وجه الله تعالىٰ، فكل مظهر من مظاهر الحياة محراب تُحارب فيه النفس الأمّارة، ويحارب فيه الشيطان. فالدّكان محراب والمصنع محراب والمدرسة محراب؛ فإذا لم تغشّ في المعاملة في دكّانك ولم تسرق من وقت صاحب العمل، ولم يسرق صاحب العمل أجرك كان كل ذلك عبادة، بل من أحسن العبادات. ثم إن العمل بحدّ ذاته عبادة، والسعي إلى فعل الخير عبادة، ومراعاة وجه الله تعالى فيما نقوم به عبادة.

الإمام عليه السلام يتعامل مع المجتمع بطهارة

ومن ألقابه عليه السلام أيضاً الزكي. والزكي هو الطاهر؛ لأن الزكاة هي الطهر. والإمام عليه السلام كان يتعامل بطهر ونقاء مع الآخرين. ومما يؤسف له أن البعض حينما يُتَعامل معه بنقاء وطهر يظنّ بمن يتعامل معه كذلك البلادة، مع أنها بعيدة كل البعد عن هذا المفهوم، بل هي الذكاء المقرون بالعفّة والنظافة. وكشاهد على هذا أنقل هنا موقفين حدثا أيام الإمام السجاد عليه السلام:

الأول: موقفه من الأُمويّين

فقد أخرج عبد الله بن الزبير الأُمويين من المدينة، وكذلك فعل ثوّار الحرّة، ثم بعد ذلك هجم الأُمويون على المدينة واستباحوها. ومن هاتين الحادثتين نستطيع أن نرى بوضوح أخلاق الإمام عليه السلام العالية، ففي واقعة الحرّة مثلاً أعال عليه السلام عائلة مروان وكفلهم، وأوصل زوجته عائشة إلى أهلها بحراسة ابنه، وكذلك أعال أربعمئة عائلة من عوائل الأُمويين في المدينة.

الثاني: موقفه من أحد أبناء عمومته

لقد كان عليه السلام يخرج ليلاً يحمل على ظهره جراباً فيه الدقيق والخبز وصرر النقود، ويوزّعها على فقراء المدينة ومحتاجيهم، ويستقي لضعفاء جيرانه(١)، ذلك أن آبار المدينة بعيدة الغور، ولا يمكن للضعفاء وكبار السنّ أن يستقوا منها، فكان عليه السلام يأخذ الحبل والدلو ويستخرج الماء لهم. وكان قبل أن يذهب لبيته يمرّ بجاره ويسدّ حاجته من الطعام والشراب. وهذا الذي كان من الإمام لم يكن جديداً على محيطه ومجتمعه؛ فهذا الشاعر العربي يقول:

ناري ونار الجار واحدة	وإليه قبلي تنزل القدرُ
ما ضرَّ جاراً لي يجاورني	ألّا يكون لبابه سترُ
أعمىٰ إذا ما جارتي خرجت	حتىٰ يواري جارتي الخدرُ(٢)

وهذا اللون من الأجواء جسّده الإمام عليه السلام إسلاميّاً ووفق خلق الإسلام وآدابه بعد أن عاشه عليه السلام بكل تفاصيله وجزئياته، وقد تعمّق هذا عند العرب أكثر بعد أن جاء الإسلام العظيم، ورفد المجتمع بعطائه الثرّ ونبعه الذي لا ينضب، وكان الإمام عليه السلام أحد الروافد الإسلامية في كلّ مجالات الخير والمعرفة، وعبر هذا الرافد حدث تفاعل كبير بين الحضارة الإسلامية وبين التراث الاجتماعي.

وضمن هذا الإطار كان للإمام عليه السلام موقف مع أحد أبناء عمومته، حيث إنه عليه السلام كان يطرق عليه الباب ليلاً ليعطيه الطعام وبدر الدنانير وهو متلثّم، فيأخذها منه ويقول له: جزاك الله خيراً، ولاجزى علي بن الحسين؛ لأنه يصل الناس ولا يصلني. وكان الإمام عليه السلام يغض عنه ولا يجيبه، بل ربما طرب لسماع هذا الدعاء.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤. (٢) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠.

واستمر الحال هكذا إلى أن توفي الإمامعليه السلام وانقطع البرّ عنه، فعرف أن الذي كان يأتيه هو الإمامعليه السلام نفسه الذي لم يكن يتوخّى في عمل البر هذا رضا المخلوق، وإنما كان يتوخّى رضا الخالق جلّ وعلا.

وهوعليه السلام بهذا يؤصّل مفهوم العبادة التي خطّ خطوطها العريضة وأوضحها أمير المؤمنينعليه السلام بقوله: «**إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[١].

فكانعليه السلام يعبد الله لأنه أهل للعبادة والخضوع. وبهذا المنظور كان تقييم الإمامعليه السلام للعبادة، وعليه فلا غرابة في أن يلقّب بزين العابدين، وغيره من الألقاب الحميدة؛ لأنهعليه السلام نبع ثرّ للصفات الفاضلة، ومنجم ثري بمعادن الأخلاق الكريمة والآداب القويمة. فكل ألقابه إذن منتزعة من صفاته المنيفة وذاته الشريفة.

المبحث الثاني: البيئة التي عاش فيها السجادعليه السلام

إن البيئة التي درج فيها الإمام السجادعليه السلام هي بيئة المدينة المنوّرة التي كانت تخضع لرقابة الأُمويّين ومتابعتهم؛ لأنهم يعتبرونها مهد المعارضة، فهي المدينة الأُولى التي سمعت الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله يقول من على منبره: «**رأيت بني أُميّة ينزون علىٰ منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ**»[٢].

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٧، وقالعليه السلام: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك». عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨.

(٢) جامع البيان: ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيلعليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير

والتي سمعته ﷺ كذلك يقول وقد رأىٰ ذات يوم أبا سفيان راكباً ومعاوية يقوده ويزيد بن أبي سفيان يسوقه: «**لعن الله السائق والراكب والقائد**»[(١)].

فهاتان المقولتان وأمثالهما[(٢)] كانت مختزنة في ذاكرة أهلها وجماهيرها، وهذا ما جعل موقفها متشنّجاً مع الأُمويّين ومنهم؛ ولذا كان موقفهم منها موقفاً إجرامياً اتّسم بكلّ صفات القسوة والظلم والابتعاد عن روح الدين. فهم لم ينسوا أن المدينة مهد الأنصار، فحرموها من رغيف الخبز، وقطعوا عنها حقوق أهلها وجراياتهم، ثم أتبعوا ذلك بأبشع هجمة عرفها التاريخ بعد وقعة كربلاء، وهي وقعة الحرّة التي كان مخططاً لها، وكان الهدف منها القضاء على الإسلام نفسه، ولذا فقد قتل فيها سبعمئة من حملة القرآن الكريم عدا صحابة الرسول الأكرم ﷺ، فكان مجموع ما قتل فيها عشرة آلاف رجل.

والغريب أنه مع هذا الكم الهائل من القتلى نجد الغزالي يصرّح بعدم جواز سبّ يزيد لأنه مسلم وقد تاب، أما نحن فحينما يخطئ شخص منا ويسبّ يزيد وأمثاله ممّن هم على شاكلته فإنه يصبح كافراً، بل تكفّر طائفة بأكملها. مع أنه ربما يكون ردّ فعل طبيعي إزاء هذه المواقف، وإلّا فما الذي يمكن أن يقال في الغزالي؟ مع أن هناك طائفة كبيرة من أبناء المذاهب الإسلامية لا تتوقف عن شتم يزيد[(٣)].

☚ غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة.

(١) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

(٢) كقوله ﷺ: «إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان». الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) قال المناوي رحمه الله: «قال أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (الرد على المتعصّب العنيد المانع

فهذا اللون من المواقف من الغزالي وأمثاله ما الذي يمكن أن يكون قبالته من ردود، سيما أنه يتعلّق بدم رسول الله ﷺ؟ إن هذا الرجل الذي أحرق الكعبة[1]، وأوصل الدماء إلى قبر رسول الله ﷺ، واعتدى على أعراض المسلمين[2]، ونهب الدنيا لا يزال مسلماً في نظر البعض، ثم بعد كل هذا يطالب المسلمون بأن يعتبروه مسلماً وأميراً للمؤمنين، بل ويقابلوا هذا الموقف ببرود دون أي رد فعل.

على أية حال فإن الإمام عليه السلام عاش هذه الأيام بكل تفاصيلها المؤلمة.

الدور الخطر والحسّاس لوسائل الإعلام

وعدا هذا فإن وسائل الإعلام تتحمل مسؤولية كبيرة تجاه هذا الجانب الحيوي

☚ من ذمّ يزيد): أجاز العلماء الورعون لعنه. وفي فتاوى حافظ الدين الكردي الحنفي: لعن يزيد يجوز، لكن ينبغي ألّا يُفعل، وكذا الحجّاج. قال ابن الكمال. وحكي عن الإمام قوام الدين الصفّاري: ولا بأس بلعن يزيد. وسئل ابن الجوزي عن يزيد ومعاوية فقال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، وعلمنا أن أباه دخلها فصار آمناً، والابن لم يدخلها... قال المولى ابن الكمال: والحقّ أن لعن يزيد على اشتهار كفره وتواتر فظاعته وشرّه على ما عرف بتفاصيله جائز... (فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه)...». فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدى والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.
وأليس هو المتمثّل:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزلْ

انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

والهامّ، بل نحن نحمّلها هذه المسؤولية، قبل أن تتحوّل إلى مؤسسة رخيصة المتاع، وتنزل بالإنسان إلىٰ مستوىٰ الغرائز المنحطّة. وهذه الوسائل ــ السلاح ذو الحدين ــ يمكن أن ترقىٰ إلىٰ مستوىٰ مؤسّسة متكاملة، وإن لم تكن متكاملة فلا أقل من أن تكون أقرب إلىٰ الكمال ممّا هي عليه الآن؛ فتعالج هذه المسائل علىٰ أساس من العلم والتخطيط. وبتعبير آخر أكثر صراحة نحن مثلاً كمسلمين نعيش في دولة إسلامية فيجب أن نعرف أن تكاليف الإذاعة والتلفزيون تقوم بها الأُمّة، وتدفعها عن طريق دفع الضرائب، ونحن نريد لهذا الجهاز الحسّاس أن يشبع عندنا الفهم والجوع العقيديّين، وأن يعرفنا علىٰ منظور الإسلام في جانب الاقتصاد أو جانب الاجتماع أو جانب الأُسرة، وفي الوقت نفسه نحن لا نريد أن نتعرّف علىٰ كلّ هذا من خلال جماعات تفرضها عليّ مؤسسات دينية معيّنة.

فالمسألة ليست مسألة ارتزاق، وليس الأمر مجرّد محاولة إعاشة وإعالة جماعة من الناس عاطلين، عندهم بضع كلمات يلوكونها ويتشدّقون بها. فالفرد المسلم يجب أن يكون أعزّ علينا من هذا، كما أن مهمّتنا لا تبتني علىٰ إشباع حشرة علىٰ حساب جوع الملايين. فيجب ألّا نترك الملايين من الشباب الذين عندهم نهم وجوع إلىٰ المعرفة لأجل أن يعتاش علىٰ فكرهم شخص يكرّر لهم كل سنة أكثر من مرّة أن النبي ﷺ كان جميل الوجه، وأن نور بهاء طلعته يسطع علىٰ جدران المنازل لحظة مروره بالقرب منها، ويصحب هذا ضرب الدفوف وما إلىٰ ذلك من وسائل مشابهة.

فهذا ليس هو الذي يحتاجه الفرد المسلم من وسائل الإعلام، بل إن هذا الفرد يحتاج إلىٰ المعلومة الفكرية والعقيدية التي يستفيد منها في حل مشاكله الشخصية والعامّة، والتي تتماشىٰ مع طبقات المجتمع كافّة، فتشرح للناس علىٰ اختلاف مراتبهم وأعرافهم وأذواقهم منظومة الفكر في ديننا وحضارتنا. كما يجب

ألاّ يكون طابع الحضارة الذي يعكسه أي فكر مجموعة من التشنّجات القومية، بل الواجب أن يكون الطابع الذي يعكسه هذا الفكر عن حضارتنا هو الطابع الإنساني الذي يشكّل مادّة دسمة في معطياتها. وحضارتنا غنية بهذا الطابع أو الجانب، وكذلك تاريخنا.

وكل واحد منّا يستطيع أن يصوّر ذلك ويعكسه بهذا الأُنموذج الحيّ الرائع، وليس علىٰ أنه عبارة عن مجموعة من مظاهر التشنّج القومي، بل يجب تصويره علىٰ أنه منطلق إنساني بحت كما أسلفنا.

ونحن لدينا أقلام كفوءة تستطيع أن تعطي هذا الجانب حقّه من الشرح والتحليل الكافيين. فليس كافياً أن نعرف مثلاً أن البيت الذي يدفع الزكاة ستحلّ به بركة الله جلّ وعلا، بل اللازم حنيئذٍ هو أن يذكر هذا الكاتب أو الفرد المسلم علاقة إخراج الزكاة بتوزيع الثروة، وبتطهير النفس الإنسانية ومشاعرها، وبإيصال الغذاء للمحرومين، أو باعتبارها جزءاً من البنية الاقتصادية الإسلامية فيما يتعلّق بعملية إعادة توزيع الثروة داخل المجتمع الإسلامي، ومنع تمركزها في جانب معيّن منه، والعمل علىٰ تفتيتها وفق الضوابط الشرعية.

وهكذا فإن المطلوب هو توفير أقلام تتناول هذه الجوانب الحيوية الهامّة في مسألة إخراج الزكاة، أما أن نُقصر وسائل الإعلام علىٰ جانب البركة أو الثواب، فهو أمر غير صحيح، وتصوّر فجّ لا ينمّ عن عمق في التفكير وشموليّة في التحليل والتنظير. ثمّ إن هذا الأمر يعدّ ثانويّاً قياساً بالجانب الأهم الذي أشرنا إليه؛ لأنه يخصّ الفرد نفسه، أما الجوانب التي أشرنا إلىٰ ضرورة تناولها دراسة وتحليلاً فهي جوانب أولية حيوية تمتاز بأن لها الأولوية في التفكير والتحليل والدراسة؛ لأنها تتناول مشاكل المجتمع ككل وليس خصوصيات الفرد بشكل مستقل.

إذن ينبغي أن نرتقي بوسائل الإعلام عن أن نقصرها علىٰ مجموعة تظل تردّد

وتكرّر المعلومات عينها، حتىٰ إن الأسماع ملّتها لكثرة ما سمعتها. فنحن نتوقع ونأمل ونتطلّع إلىٰ وسائل إعلام تقوم بهذا الدور وتضطلع به؛ وتمتاز بكونها وسيلة تربوية ضخمة. وهذا خصوصاً الوسائل المرئية (جهاز التلفاز)، فهو يفعل في النفوس فعله. فإذا توفّرت لدينا مجموعة كفوءة وكان كل همها ودأبها ومهمّتها سدّ حاجات البلد عقيديّاً، وحقنه بجوّ من المناعة، وتحصينه بالفكر، يستطيع هذا المجتمع أن يقف في وجه الغزو الثقافي الوافد.. الغزو الثقافي المنحرف الذي يحاول أن يحرّك رغبات الناس ويستفزّها، وخصوصاً الشباب منهم.

فالجهاز الإعلامي وسيلة تربوية ضخمة، وهو جهاز حساس جداً من هذه الناحية، وهو الجهاز الوحيد الذي يمكن أن يقف حائلاً دون الثقافات الوافدة أن تتسرّب إلىٰ مجتمعاتنا وعقول أبنائنا بما يقوم به من دور إيجابي وفعّال في هذا المجال. فمعلوم أن فراغ البطن يولّد انحرافاً عند الإنسان من ناحية الطعام وتحصيله ما لم يكن هناك توجيه في هذا الباب، وسدّ حاجة ذلك الجائع بما أسلفنا ذكره من مقوّمات النظام الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام، وهي مقومات تقوم أساساً علىٰ مبدأ التكافل والتكافؤ.

وكذلك فراغ الفكر، فإنه يولّد انحرافاً عقيديّاً؛ لأن فراغ الفكر عند الإنسان يضطرّه إلىٰ استيراد أفكار من الخارج. وغير خفي علىٰ الفطن وغيره ما تخفي الأفكار المستوردة بين طياتها من عناصر لهدم الشباب وآليات العمل الذي ترصد له الطاقات الفكرية والإمدادات المادية الضخمة من أجل بلوغه والوصول إليه. وحبذا لو قام الإعلام الإسلامي بملء أفكار الشباب بفكر واضح سليم، ينبع من قوانين الدين ونظمه، مع العلم بأن الإعلام يستطيع أن يوصل هذا الفكر إليهم؛ لأنه يستطيع أن يضع يده علىٰ مادّة دسمة تركها لنا مفكرونا وروّادنا، لها القابلية الكاملة والطاقة الكافية علىٰ ملء ذهن الفرد المسلم، وتغنيه عن التطلّع

إلىٰ أي فكر آخر.

إذن فنحن في مسيس الحاجة إلىٰ أن نفهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن نكون بعيدين عن التشنّج إزاء قضايانا وأبناء ديننا، وأن نشرب من ينبوع الدين ونهر الإسلام الخالد. وكمثال علىٰ ذلك فإننا حينما نقف عند نظرية لأحد فقهاء الخوارج أو لأحد فقهاء الظاهرية أو الإمامية أو الحنابلة أو الأحناف ـ بغضّ النظر عن مذهب صاحبها ـ فإننا يجب ألّا نقف منها موقف المتشنّج، أو نتخذ إزاءها موقف عداء وحقد، بل يجب أن ننطلق من مبدأ أن هذا الفقيه ـ مهما كان مذهبه ـ إنما يستمدّ نظرياته وأفكاره من ينبوع الإسلام، وإن الجهة التي تغذّيه بهذه الأفكار وهذه النظريات هي الإسلام عبر الكتاب والسنة؛ وبالتالي فيجب أن نحترمها ولا نأخذ منها موقفاً عدائياً.

فالمفروض أننا لا يعنينا أن تكون هذه المسألة التي اقتبسها وشرحها عالم ما للناس من أي مذهب كان ووفق أي مذهب كانت مادام مصدرها الكتاب والسنة.

إن الحق هو أن يكون هذا منطلقنا في الحياة وفي تعاملنا مع الآخرين من علماء ومفكرّين، وألّا نحجر علىٰ أفكار هذا الفقيه أو ذاك، أو نغفل رأيه ونظرياته لأنه ينتمي إلىٰ المذهب الفلاني، فهذه هي الصنمية بعينها.

ونحن بهذا اللون من التعامل البعيد عن التعصّب نفتح الطريق أمام مجتمعاتنا لتفكّر بنا. وعليه فإن الغيور علىٰ الإسلام يجب عليه أن ينهل من الينبوع الإسلامي عبر أي قناة توصله إلىٰ ذلك النبع مهما كانت، ومهما كان المذهب الذي تمثّله ما دام يستمد فكره وقوانينه وتشريعاته من الإسلام.

إذن هناك مهمة مقدّسة وثقيلة تقع مسؤوليتها علىٰ عاتق وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية، وهذه المهمة هي المساهمة في صنع الفرد المسلم الذي أراده الله، ويكون ذلك بمساهمة وجوه المحيط الأُخرىٰ؛ حتىٰ يتسنىٰ لنا ملء جوانب

الفراغ عند هذا المسلم عن طريق تأمين وسائل حياته كافّة، وإشباع حاجاته الشخصية الأساسية. فعن طريق هذا المنظور فقط يمكننا صنع الفرد المسلم الذي رسم الله سبحانه وتعالىٰ ملامح شخصيته وبيّنها لنا.

والله سبحانه وتعالىٰ وحده المأمول في أن يعيننا علىٰ سلوك هذا الطريق، والثبات عليه حتىٰ بلوغ الهدف؛ فلقد مرّت بنا تجارب قاسية حتىٰ الآن انحرف البعض فيها بعيداً بعيداً عن الإسلام، وانجرف مع الحياة مبتعدين عن هديه. ولا يصلح آخر هذه الأُمّة إلّا بما يصلح به أوّلها، فالأُمّة التي كانت تتشكّل من بضعة أشخاص استطاعت أن تدكّ بهم عروش كسرىٰ وقيصر لم تصنع ذلك بالطلاسم والسحر، وإنما صنعته بعد أن صنعت أولاً الفرد المسلم الذي آمن بالإسلام واندكّ في تعاليمه وقواعده وأهدافه، والذي لم يكن يحسّ بأي نقص أو فراغ في حاجاته، فانطلق يحطّم عروش الطغاة ويصنع المعجزات.

ونحن إن شاء الله علىٰ ذلك الدرب وعلىٰ تلك المسيرة، ولنا ولله الحمد من ديننا وسيرة نبيّنا وأيمّتنا ما يعصمنا وما يقوّمنا وما يعيننا علىٰ تقويم اعوجاجنا وانحرافنا، والله وحده هو المسؤول في هذه الليالي المباركة أن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا دائماً في خط «**لا إله إلّا الله**»، وأن يغنينا بما أغنىٰ به سلفنا الصالح من ركوب جادّة الطريق المستقيم، والتحلّي بالإيمان القويم حتىٰ نصل إلىٰ ما أراده الله تعالىٰ لنا من خلافة في الأرض؛ فهو ولي الإعطاء والمنع. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معنى الزوج

فالزوج يطلق على المشاكل (المشابه) الذي له فرد من جنسه، فكل من له فرد من جنسه يشاكله يقال له «زوج». وهذا معنى المماثلة. وهناك معنى آخر

للزوجية هو الذكر والأُنثى، وهو المعنى الذي تريده الآية الكريمة، فهي أخرجت المعنى الأوّل وإن كانت المشاكلة موجودة ضمناً. فالمقصود بالزوجين هنا: الذكر والأُنثى كما هو صريح الآية الكريمة، أي من يتكوّن منهما النسل.

وفي الآية الكريمة إيماءة إلى أن هذا الطريق هو القناة الطبيعية التي جعل الله تعالى منها وسيلة لإيجاد امتداد النوع البشري. وكأن فيها إجابة تساؤل مفروض مفاده أنه إذا كان الله تعالى قادراً على كلّ شيء، فلماذا لا يوجد الإنسان بالطريقة نفسها التي يوجد بها النبات، فيخرج من التراب دون الحاجة إلى اللجوء إلىٰ مشقّة الحمل وعناء الولادة وآلامها ومضاعفاتها، ثم بعد ذلك مرحلة الحضانة وما يصاحبها من ألم ومعاناة؟ إننا نلاحظ أن الكثير من الحيوانات بمجرد أن تخرج من بطون أُمهاتها فإنها تحاول أن تمشي فتحرك أقدامها وتقع، تفعل ذلك مرّات عدة حتى تمشي في ساعتها، وكذلك بعض الطيور غير الطيّارة التي تمشي فراخها بمجرد أن تفقس البيضة عنها فتخرج منها مع ملاحظة أنها تخرج منها مكسوّة بزغبها، أمّا الإنسان فطفولته مرحلة كبيرة واسعة يحتاج فيها إلى الرعاية المركزة والعناية الفائقة كي يصل إلى مرحلة يتمكّن فيها من الاعتماد على نفسه بشكل أو بآخر. فهي طفولة طويلة تحتاج إلى سنوات عدّة لإكمال الرعاية فيها من حمل وتوفير طعام وكساء. وبهذا فالإنسان يحتاج إلى أن يُلفّ بخرقة أول ولادته كما أنه يحتاج لذلك عند وفاته:

وهزّة المهد في أيدي قوابلنا ... كهزّة النعش عند الحمل أحيانا

والعمر حبّات أسلاك تفرّقها ... أنفاسنا وصفيح اللحد مأوانا

وهذا التساؤل ليس له مورد في واقع الأمر؛ لأن من المفروغ منه أن الإنسان يجب ألّا يقترح على الله تعالى أو يسأله عن الأسباب التي من أجلها كان الشيء الكذائي بالهيئة أو الكيفية الكذائية؛ فهو تعالى أرحم بنا من أنفسنا، كما أنه تعالى

حكيم عليم، والحكيم لا يصدر عنه إلّا ما يتناسب مع الحكمة والصواب. ثم إن أفعال الله عزّوجل لا يمكن أن نجعلها عرضة للتساؤل؛ لأنه تعالى كما قلنا عليم، والعليم معناه أنه أعلم من غيره؛ فهو أعلم بنا وبمصالحنا منّا ومن غيرنا.

ثم إن الحكمة واضحة ظاهرة في عملية ولادة الإنسان بهذا الشكل، ذلك أن بهذه الصورة من دورة الولادة تنشأ علاقة عاطفة وحبّ وحنان بين الأب والأُم من جهة وبين أبنائهما من جهة أُخرى، وهذه العلاقة تكبر مع حجم الألم والمشقّة. وليلعم بأن هذه العلاقة موجودة حتى عند الحيوان؛ لأنه يتوالد بالطريقة عينها لكن لا بالمستوى نفسه من العلاقة الإنسانية؛ لأن العلاقة الإنسانية قائمة على أساس امتزاج العواطف وتبادلها والارتباط والتفاعل المستمرّ، وهي علاقة مبتنية على الوشائج الروحية التي تنشأ بين الأب والأُم والطفل.

وقد ذكرت فيما مضى رأي «سماريو» إحدى عالمات النفس البارزات تقرّر أن العلاقة بين الأُم والرضيع ليست علاقة ثنائية، وإنما هي علاقة ثلاثيّة، فالطفل يرتضع لبن الأُم وحنانها، ومشاعر الأب أيضاً؛ لأن الأُم إذا كانت سعيدة مع الأب فإن ذلك ينعكس علىٰ لبنها وعلاقتها ودفئها ومشاعرها، وإذا كانت غير سعيدة انعكس سلباً علىٰ ذلك أيضاً، وهو بالتالي في كلتا الحالتين ينعكس على الطفل إيجاباً وسلباً. إذن هناك ثلاثيّة تتحكّم بحالة الطفل هي: الأب.. الأُم.. الطفل.

وعليه فإن الطفل إذا فقد أحد الأبوين فإنه ينشأ نشأة غير طبيعية، يتملّكه شعور بالنقص وتذبذب عاطفي مشوب بعدم التلاؤم.

إذن فهذا اللون من الولادة والتربية والطفولة الطويلة أمر حيوي وهام للطفل؛ لأنه ممّا يترتب عليه وجود نوع من التناغم العاطفي والتلاؤم الروحي بين الطفل وأبويه من جهة، ويترتب عليه أيضاً تفجّر ينابيع المودّة والرحمة في قلبي الأبوين

للطفل من جهة ثانية. فالطفل لا يمكن أن يجد نبعاً من الحنان والرحمة صافياً لا يشوبه كدر إلّا عند أبويه؛ ولذا فإن الله تعالى أراد أن تقابل هذه الرحمة برحمة أُخرى مثلها، فقال جل من قائل: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾[1]. فهذا الطفل إذا التصق بصدر أُمّه أو تعلّق برقبتها أو برقبة أبيه فإنه لا يرضى أبداً بأن يؤخذ منهما، بل إنه يتشبّث بهما وكأنه لا يريد أن يفارقهما.

وممّا يصبّ في هذا المجال ما يروى من أن امرأتين ضرّتين كانتا في أيام الخليفة الثاني قد تنازعتا على طفل تحملانه؛ ذلك أن إحداهما كانت قد ولدت أُنثى، والأُخرىٰ ولدت ذكراً، لكن أُمّ البنت ادّعت أن الولد لها وأن البنت للأُخرىٰ، أمّا الأُخرىٰ فقالت: لا، هذا ابني. وطال النزاع، فدخل أمير المؤمنين عليه السلام، فالتفت إليه الخليفة الثاني وقال: احكم بينهما. فكان عليه السلام كلّما حاول أن يجعل أُمّ البنت تعترف بأن البنت لها امتنعت، فوعظهما وخوّفهما فأقامتا على التنازع والاختلاف، فقال عليه السلام: «**ايتوني بمنشار**». فقالت المرأتان: ما تصنع؟ فقال عليه السلام: «**أقدّه نصفين لكلّ واحدة منكما نصفه**».

فسكتت إحداهما وقالت الأُخرى: الله يا أمير المؤمنين، إن كان لابدّ من ذلك فقد سمحت به لها. فقال عليه السلام: «**الله أكبر هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقّت وأشفقت**». فاعترفت المرأة الأُخرى أن الحقّ مع صاحبتها وأن الولد لها، فسرّ عمر ودعا لأمير المؤمنين عليه السلام بما فرّج عنه في القضاء[2].

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) الإرشاد ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨، ونسبها في المصنف (الصنعاني) ٧: ٣٦٢، والسنن الكبرى (البيهقي) ٣: ٤٧٢ / ٥٩٥٧ لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام.

فهو عليه السلام إنما أعطى الطفل لهذه؛ لأنها انفجرت حناناً ورحمة وعواطف مشبوبة نحو هذا الطفل الذي لو لم يكن طفلها لما انفجرت عندها هذا العاطفة تجاهه، ولما فضّلت حياته على موته وإن كان في حياته سلبها إياه.

ولا شكّ أن هذا نابع من الحنان الغريزي والرحمة الذاتية ومشاعر الأُمومة التي أودعها الله فيها تجاه الطفل؛ لأنه هو الذي يلطّف حياة الأُسرة ويرطب أجواء الإنسانية، بل هو جنة الدنيا التي لولاها لأصبحت الحياة جحيماً؛ فعالم الكبار عالم مملوء بالحقد والحسد واللؤم والعداء والبغضاء، في حين أن الطفل صفحة بيضاء بريئة، وكل ما فيه طبيعي؛ ضحكته ومشيته وحركاته فإن البغض ليس إلّا من شتم الكبار فما إن يضحك أحدهم حتى تحسّ أن وراء ضحكته ما وراءها، ولا تعرف ما الذي يريده منها، وكذلك لا تعرف ما الذي يخبّئه وراء بكائه، يروى أنه عليه السلام جاءه خصمان، وكان أحدهما يبكي بحرقة ويتظلّم على خصمه، فقال له: «**اجلس؛ فإن إخوة يوسف ﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾**[1]...»[2].

وهذا حال الكثير ممّن لا يمكن للمرء أن يحزر ما الذي يختبئ وراء ضحكته أو بكائه من أهداف أو قصود، أما الطفل فهو بمنأى عن كل هذا، فهو لا يملك سوى البراءة، ولا يعرف غيرها؛ ذلك أنه صفحة بيضاء كما قلنا.

وبهذا نعرف أن الزواج بهذا الشكل المرسوم إسلاميّاً هو اللون الطبيعي لامتداد الحياة واستمرارها، واستمرار الحبّ والحنان المتبادل بين الأبناء والآباء، وإلّا لغرقت الدنيا في خضم عالم متوحّش رهيب.

---

(١) يوسف: ١٦.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١٧٥، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٩، وفيهما أنها بين شريح وامرأة.

سلبية الوقوف بوجه الزواج

إذن فهذا من العقبات التي توضع أمام الشباب في طريق الزواج، وهي عقبات أمر الشارع المقدّس بإلغائها وعدم الوقوف في طريق هذا المسار الطبيعي، وفي وجهه؛ لأن الله تعالى خلق الزوجين، وأمر بالتزاوج لأجل النسل، وما كان كذلك فمن الخطأ الوقوف ضدّه؛ لأننا حينئذٍ نقف في طريق إمداد الإنسانية بـالأجيال التي تعدّ امتداداً للنوع واستمراراً للحياة على هذا الكوكب. فالزواج حصانة ضدّ الكثير من الانحرافات. روي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقوها بأبصارهم، فقال عليه السلام: «**إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبابها. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله؛ فإنما هي امرأة كامرأة**». فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: «**رويداً إنما هو سبٌّ بسبٍّ أو عفو عن ذنب**»[1].

فهذا الحل الذي يطرحه أمير المؤمنين عليه السلام هو حلّ نابع فيما لو تركنا الأُمور تسير على طبيعتها، أمّا إذا وقفنا بوجه هذا الحل الطبيعي والشرعي فأين يمكن أن يتّجه هذا المتطلّع بعينه، والذي يمدّها إلى ما متّع الله تعالى به غيره من أزواج؟

إننا نعيش هذه المأساة بكامل أبعادها، ومن هذه الأبعاد ما تروّج له الكثير من القنوات الفضائية من عرض الأجساد العارية ووسائل الإغراء واللهو، ومنها ما نشاهده من مظاهر غير إسلامية في الشارع والمدرسة والمؤسّسة وأماكن العمل والأسواق وغيرها. وفوق هذا كلّه تجد الكتب والمجلّات مليئة بالأفكار العارية والأجساد العارية. فهذا الشاب الذي لا يستطيع أن يتزوّج لما وضع في طريق

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٢٠.

زواجه من عقبات، ثم يتعرّض لمثل هذه المؤثّرات مع ماهو عليه من عدم توفّر المناعة والحصانة ضدها عنده، أو لم يكن عنده مستوى من التربية يـؤهّله لأن يحصّن نفسه ضدّ الوقوع فـي الفـاحشة حـتماً سـينهار أمـام هـذه الإغـراءات والمؤثّرات الغريزية.

والأنكى من كلّ هذا أن المناهج الدراسية تركّز اهتمامها على الدروس العلمية والأدبية دون أن يحظى الجانب الأخلاقي بمثل هذا الاهتمام أو حتى بجزء منه، بل نجد أن هناك إهمالاً واضحاً وبيّناً لهذا الأمر، عملاً بمقولة أن مثل هذه الاُمور منوط أمرها بالمسجد. لكن لوعدنا إلى الواقع فإننا لن نجد هذا الدور للمسجد في غالب الأحيان، فهو في الكثير من الأماكن والموارد لا يعلّم الأخلاق والآداب، بل يعلّم هذه المتصاعدات والمتنازلات ممّا لا يهمّ الشباب في شيء، بل يـذكي عنده كره الآخرين والحقد عليهم. إن الجميع مسؤولون عن هذا الجيل، وعليهم أن يتنبّهوا لتربيتهم، فهم جيل يائس حقّاً إذا كانوا تحت تأثير كلّ هذه العوامل الآنفة؛ سواء ما كان منها في المسجد ممّا يعلّمه لهم من الحقد على الغير، أو في الشارع ومحطّات التلفزة أو غيرهما. وعليه فيلزم توجيه هؤلاء الشـباب ضـمن نـطاق الاُسرة بأخلاق الإسلام وأخلاق رسول الله ﷺ وآله عليهم السلام، وعدم تركهم ليشـرّقوا أو يغرّبوا في انتزاع أخلاقهم وآدابهم وعاداتهم.

إذن فالزواج حصانة ضدّ كل مرض أخلاقي أو آفة أدبية[1]، أمّا المتبقي مـن الآداب والأخلاق فإنه مسؤولية الاُسرة والتربية التي ينبغي أن تكون سليمة طيبة. ولذا فإننا نجد أن الفقهاء يفتون بوجوب الزواج فيما لو كان الشاب يـتوق تـوقاً

---

(١) ولذا فإنه يعدّ بنصف الدين كما عن رسول الله ﷺ حيث قال: «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتّقِ الله في النصف الآخر». الكافي ٥: ٣٢٩، الفقيه ٣: ٣٨٣، كشف الخفاء ٢: ٢٣٩ / ٢٤٣٢.

كبيراً إليه، ويجد في نفسه رغبة كبيرة إلى قضاء حاجة هذه الغريزة بحيث إن الأمر يصل به إلى حدّ لا يتمكن معه من الصبر عنه وكان قادراً على الزواج مادياً، أما إذا تمكّن من الصبر عنه فإنه حينئذ يصبح مستحبّاً. لكن لو أنه بتزوّجه من امراة يعرّضها إلى الضياع؛ لأنه لا يستطيع أن يتكفّل بنفسه فكيف بزوجة وأطفال ومتطلبات أُسرة فإن الشارع حينئذ يأمر بالصبر والتحلّي بالأخلاق[١] حتى يتمكّن من أن يهيّئ نفسه له.

وعليه فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾بمعنى قدّر، وهذا يعني أنه تعالى هو الذي يتحكّم بجنس الجنين، وسائر صفاته. فالله تعالى وحده هو المقدّر دون غيره، فلا المرأة لها دخل في تحديد جنسه ولا غيرها، بل هو الله تعالى الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[٢]. فكل هذا بيد السماء؛ لأن هذه البويضة غير الملقّحة فيها اثنان وعشرون صبغيّاً جسميّاً وصبغي[٣] واحد جنسي، وهو ما يرمز له بالرمز (X)كما يعبّر عنه علماء الطبّ. ومن أراد أن يطّلع أكثر على هذه المعلومة فليرجع إلى كتب الطب المختصّة بهذا المجال.

إذن فالذي يتحكّم بجنس الجنين هو نطفة الرجل[٤]؛ حسب نوع الصبغي الجنسي المختصّ به. فالرجل يكون صبغيّه عادة إما بالرمز (x) أو برمز (y)، وحينها يتعيّن جنس الجنين[٥].

وإذا كان الأمر كذلك فما ذنب هذه المرأة التي تحمل تبعة هذا الأمر مع أنها لا

---

(١) ومن ذلك استحباب الصوم له. (٢) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.
(٣) هو الكروموسوم. (٤) لا الرجل نفسه وبإرادته.
(٥) فإن لقّحت البويضة بكروموسوم (x) كان الجنين أُنثى، وإن لقّحت بكروموسوم (y) كان الجنين ذكراً.

دخل لها فيه أبداً؟ والمشكلة أن هذا الأمر ظاهرة اجتماعية ورثناها، والميراث الاجتماعي عسير رفضه والتخلّص منه، وهو ميراث يُغلغل في رأس العربي فكرة أن الأُنثى إذا جاءت فلا مكان لها إلّا القبر، يقول شاعرهم:

القبر أخفىٰ سترةٍ للبناتْ ودفنها يُروىٰ من المكرماتْ

ألم ترَ الرحمن عزَّ اسمه قد وضع النعش بجنب البناتْ[1]

وهو هنا يشير إلى المجموعة النجمية المسمّاة «بنات نعش»، أي أن البنت حينما تولد لا بدّ أن يكون النعش قربها؛ فهو لازم لها ما، إن تولد حتى تدفع فيه وتدفن. إنها فلسفة حياة جائرة تفرّق بين الذكر والأُنثى؛ فمن أين جاءت هذه الفوارق؟ وما هو منشؤها؟ مع أن الفتاة ربما كان عندها من المزايا ما لم يكن عند الولد؛ فهي عادة أكثر مودّة وإخلاصاً في عملها وفي بيتها. ولو أن من يذهب هذا المذهب يطّلع على الروايات الواردة في مجال تربية البنت ورعايتها لما لبث على فكره هذا، ومن هذه الروايات قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنة**». فقيل: يا رسول اللّه، واثنتين؟ فقال صلى الله عليه وآله: «**واثنتين**». فقيل: يا رسول اللّه، وواحدة؟ فقال صلى الله عليه وآله: «**وواحدة**»[2].

والروايات بهذا الصدد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كثيرة، دخل على الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه، وكان عابساً، فسأله عن شأنه، فقال له أحد الجالسين: يابن رسول الله، لقد رزقه الله بنتاً. فقال عليه السلام: «**أتريد أن تغيّر خلق الله؟**».

فمن قال: إن البنت ليس فيها عطاء لأهلها أكثر من العطاء الذي يكون من

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨.
(٢) الكافي ٦: ٦ / ١٠، مسند أحمد ٢: ٣٣٥.

الولد؟ إن الله تعالى يثيب الرجل على تربية ابنته أضعافاً. ثم إنه تعالى هـو الذي اختار أن يكون المولود أُنثى، ومن يعترض على هذا فإنما يخالف ما اختاره له الله تعالى؛ لأنه جلّ وعلا هو الذي يهب ويعطي.

إذن فـ﴿**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ**﴾ يعني أن المعادلة بيد الله تعالىٰ، هو الذي يخلق الإناث وهو الذي يخلق الذكور وفق ما تقتضيه المصلحة المتعلّقة بكل فرد على حدة. وهكذا فإن على الفرد المسلم أن يذعن إذعاناً كاملاً لإرادة الله جلّ وعلا، لا أن يقترح عليه تعالىٰ.

نعم له أن يدعو الله تعالى بما يريد، لكن لا يفرض من خلال دعائه شيئاً على إرادة الله جلّ وعلا، ثم إن الدعاء يجب أن يكون في حدود الواقع، فـالإمامعليه السلام يقول في دعائه: «**ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأُمـور**»[(١)]. ولهذا فإن الاتقياء حينما يسألون عما سيختارون فانهم يجيبون بأنهم يختارون ما يختاره الله تعالى لهم، وأنهم لا يقترحون عليه تعالى شيئاً.

فالله تعالى هو الذي يخلق الذكر والأُنثى، وكل منهما له مجال تحركه الطبيعي.

لو لا عليعليه السلام لم يكن لفاطمةعليها السلام كفء

ومن باب أن (الشيء بالشيء يذكر) أجد أن من المناسب هـنا ذكـر حـديث الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله: «**لولا علي لم يكن لفاطمة كفء**»[(٢)].

وهي رواية تستحق التوقف عندها، إذ ربما يقول قائل: إن كانت الكفاءة من جهة الإسلام فالمسلم كفء المسلم كما هو المعروف، فما هي هذه الكفاءة إذن؟

---

(١) مصباح المتهجّد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

(٢) كشف الغمّة ٢: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٣: ١٤١ / ٣٧، ٤٣: ١٤٥ / ٤٩.

وهل يراد بها جانب آخر؟ نعم، يراد بالكفاءة هنا جانب آخر غير الإسلام، فالزهراء عليها السلام قد اعتبرت سيدة نساء العالمين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وبقوله: «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها**»[1]، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام الذي خاطبه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: «**أنت مني وأنا منك**»[2]، وقوله صلى الله عليه وآله ـ كما ترويه عائشة ـ حيث كان صلى الله عليه وآله قد مر بأمير المؤمنين والزهراء والحسنين عليهم السلام فقال لهم: «**أنا حرب لمن حاربكم سلم لمن سالمكم**»[3].

فإذا كانت الزهراء عليها السلام جزءاً من الرسول صلى الله عليه وآله، وكان علي عليه السلام نفسَه الشريفة بنص القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿**تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[4]، ومن رسول الله صلى الله عليه وآله كما مرّ، فلا بد إذن أن يأخذ التكافؤ معنى آخر مبتنياً على كون أن النبي صلى الله عليه وآله سيّد الموجودات، وهذان العظيمان كلاهما ينتميان إلى هذه الحقيقة نفسها، ومن كانا كذلك فلا بدّ من أن تؤخذ في أمر الكفاءة حيالهما جوانب أُخرى غير تلك المعروفة لعامّة الناس.

هذا فضلاً عن النواحي الأُخرى التي عرفا (صلوات الله وسلامه على رسوله

---

(١) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٢) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ ـ ١٦٥، ٥: ٣٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٣. وبقوله صلى الله عليه وآله كما روت عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ادعوا لي سيّد العرب». فقلت: يا رسول اللّه، ألست سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعلي سيّد العرب». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٤، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول صلى الله عليه وآله (محمد بن طلحة الشافعي): ٢٦.

(٣) المعجم الأوسط ٣: ١٧٩، المعجم الصغير ٢: ٣، أُسد الغابة ٣: ١١، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٢ ـ ١٢٣، ٣: ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ٥: ٩٩.

(٤) آل عمران: ٦١.

وعليهما وآلهما) بها ممّا تفيض به الصحف، وتستوفىٰ به الموازين؛ فهماعليهما السلام راهبا الليل، فالزهراءعليها السلام كانت تظلّ في مخدعها قائمة وقاعدة، وراكعة وساجدة طيلة الليل حتى الصباح، وعلي بن أبي طالبعليه السلام هو السيف والساعد المجاهدان في سبيل الله تعالىٰ، والذابّان دون رسول الله صلى الله عليه وآله، فهوعليه السلام المجاهد في ساحتي الحرب والمجتمع، وهيعليها السلام المجاهدة في ساحة المجتمع، فهي التي حملت أخلاق أبيها صلى الله عليه وآله وأشبهته في كل شيء. يروي شرحبيل عن أُمّ سلمة (رضوان الله تعالى عليها) كما نقله صاحب (كشف الغمّة) [١] وغيره [٢] من أنه لما كان صبيحة عرس الزهراءعليها السلام جاء النبي صلى الله عليه وآله بعسّ فيه لبن، فقال لفاطمة: «**اشربي فداك أبوك**». وقال لعلي: «**اشرب فداك ابن عمّك**».

ولا يخفى أن النبي صلى الله عليه وآله هو أشرف الموجودات وأعلاها، وهذا من خلقه الكريم ونبله العظيم وتواضعه الكبير، لكنه في المقابل يريد أن يعطي هاتين النسمتين الإلهيّتين ما تستحقّانه من تكريم. ومثل هذا ما ترويه أُم المؤمنين أُمّ سلمة حيث قال لها: «**يا أُم سلمة، هلمّي فاطمة**». فأتت بها، فلما وقفت بين يديه كشف الرداء عن وجهها حتى رآها عليعليه السلام، ثم أخذ يدها فوضعها في يد عليعليه السلام وقال: «**بارك الله لك في ابنة رسول اللّه. يا علي، نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة، نعم البعل علي. انطلقا إلى منزلكما ولا تحدثا أمراً حتى آتيكما**».

ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وآله فدخل وأجلس فاطمةعليها السلام من جانبه وعلياًعليه السلام من جانبه، ثم قال: «**يا فاطمة، ائتيني بماء**». فقامت إلى قعب في البيت، فملأته ماء، ثم أتته به، فأخذ منه جرعة فتمضمض بها، ثم مجّها في القعب، ثم صبّ منها على

(١) كشف الغمّة ١: ٣٧٨، ٢: ١٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣٢.

رأسها، ثم قال: «**أقبلي**». فلما أقبلت نضح منه بين صدرها ونـحرها، ثـم قـال: «**ادبري**». فلما أدبرت نضح منه بين كتفيها، وفعل مثل ذلك بأمير المؤمنين عليه السلام، ثم قال: «**اللهم هذه ابنتي وأحبّ الخلق إلي، اللهم وهذا أخي وأحبّ الخـلق إليّ، اللهم لك وليّاً وبك حفيّاً، وبارك في أهله، وبارك في ذرّيتهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإني أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرجيم. اللهم إنك باركت على آل عمران، فبارك على آل محمّد**»، ثم خرج [١].

فيا رسول الله (صلى الله عليك وعلى آلك وسلم)، ليتك تـرى هـذه النسـمة الطاهرة يوم جلست على قبرك الشريف يعتصرها الألم ويضمّخها الشجا والأسى، وهي تستعبر باكية وتتمثّل بأبيات هند بنت أثاثة قائلة:

إنـــا فـــقدناك فـــقد الأرض وابـــلها	**واخـتلّ قـومك فـاشهدهم فـقد شـغبوا**
قـد كـنت بـدراً ونـوراً يسـتضاء بـه	**عـليك تـنزل مـن ذي العـزّة الكـتبُ**
وكـــان جـبريل بـالآيات يـحضرنا	**فـغاب عـنا وكـل الغـيب مـحتجبُ**
فـــقد رزئت أباً ســهلاً خــليقته	**محض الضريبة والأعـراق والنسبُ** [٢]

ولنا أن نتساءل: ماالذي تشتكيه فاطمة الزهراء عليها السلام؟ لقد وقفت أمام القبر لتريه جوانب من جسدها الطاهر ممّا فعله بها حقد القوم. يقول البـاقر عليه السلام: «**مـا رؤيت فاطمة ضاحكة قط منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبضت**» [٣].

تقول أسماء: قالت لي الزهراء عليها السلام ليلة حضرتها الوفاة وقد اشتدّت عليها العلّة: «**يا أسماء، أنا ذاهبة إلى حجرتي أضطجع، وبعد ساعة ناديني، فإن أجبتك وإلّا**

(١) الأمالي (الطوسي): ٤٢ ـ ٤٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣١.
(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٩، الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٢، شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٥١.
(٣) السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام (محمد بيومي): ١٣٢.

فاعلمي أني لحقت بأبي رسول الله ﷺ. يا أسماء، إذا جاء الحسنان فضعي لهما الطعام، وإن سألا عني فقولي: إن أُمّكما نائمة بالحجرة. وتعالي إلى هنا فاسكبي لي الماء».

تقول: فسكبت لها ماء، فلبست ملابسها وذهبت إلى الحجرة، وبعد ساعة ناديت: يا بنت رسول الله، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من صلى بملائكة السماء مثنىً مثنى، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من حمل الركن بأطراف الردا، فلم تجبني. فدنوت إليها فكشفت الرداء عن وجهها فإذا بها ميّتة، فجلست عندها أبكي، ثم جاء الحسن عليه السلام إليها فكشف الرداء عنها، ثم صاح: «**أخي حسين هلمّ إليّ، إن أُمّنا فاطمة قد فارقت روحها الدنيا**»(١).

كما أوصت (سلام الله عليها) أمير المؤمنين عليه السلام فقالت له: «**في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها**». قال عليه السلام: «**بلىٰ، عزّ والله عليَّ فراقك يا بنت رسول الله**». قالت: «**يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسّلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أُمّهما**». ثم قالت: «**فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات**»(٢).

ففعل عليه السلام كما أوصته، ولمّا أنزلها إلى قبرها، جلس عندها على شفير القبر، وراح يستعبر ويقول:

---

(١) قريب منه ما في بحار الأنوار ٤٣: ١٧٤ ـ ١٨٠ / ١٥، عن فضّة خادمة الزهراء عليها السلام.

(٢) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

أرى علل الدنـيا عـلـي كـثيرة وصاحبها حتى الممات عـليلُ
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على ألّا يـدوم خـليلُ [١]

متى تقطع اليد؟

ثم إن اليد تارة تُقطع في مكان غير مشرف، وأُخرى في مكان مشرف، وهي في الخندق الثاني تشكل ظاهرة فخر ومجد واعتزاز، وفي الخندق الأوّل ظاهرة انحطاط وعيب وعار. ومما هو مورد عار السرقة، والسارق يـحمل المسـروق بيده، فيقال له: إن هذه اليد أصبحت ملوّثة، وتشكّل خطراً على المجتمع. والعضو المنحرف الملوث لا بدّ أن يزاح من طريق المجتمع؛ لأنه يسبب الفسـاد له، والله يريد الصلاح لعباده. ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [٢].

ولكن، متى يكون القطع؟ إنه يكون بعد اكتمال شروطه، وهي أن يكون بالغاً عاقلاً مريداً مختاراً غير مكره.

شروط قطع اليد في حدّ السرقة

ثم إن هناك شروطاً أُخرى منصوصاً عليها هي:

١ ـ أن تكون السرقة من حرز. ولكل شيء حرزه الذي يناسبه. فمن يجد في الصحراء سيارة ويأخذها فهي ليست في حرز، لكـنه إذا أخـذها مـن «مـوقف السيارات» فهذا حرز.

وهناك اختلاف بين الفقهاء حول القبر، فبعضهم يعدّه حـرزاً وآخـر لا يـعدّه كذلك. وهذا نابع من أن بعض الناس من ذوي النفوس الدنيئة ممّن تتدنى نفوسهم

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧. (٢) الأعراف: ٥٦.

لسرقة حتى الموتى. أتذكر أن امرأة كانت تخدمنا في أحد البلدان الإسلامية حينما كنا في دورة دراسية، فلما أنهيناها، وأردنا الذهاب عنها بكت، فسألناها عن ذلك فقالت: أُريد منكم أن تهيّئوا لي قبراً قبل رحيلكم، فأنا امرأة كبيرة. فقلنا: ولم لا نشتري لك قبراً هنا في المكان الذي نحن فيه؟ فقالت: لا، أُريده قريباً من أهلي. قلنا: لماذا؟ قالت: أخاف أن يسرقوا كفني هنا.

وسرّاق الأكفان معروفون[1]، وهم مذكورون في كتب الفقه، ففيها عنوان مستقل هو «سارق الأكفان». وهنا يبرز سؤال هو: هل هذا السارق يعتبر سارقاً من حرز أو لا؟ الجواب الذي عليه الأغلب: أنه سارق حرز، لأن حرمة المؤمن ميتاً كحرمته حياً[2]. فكما يجب حفظ أموال الحي فكذلك يجب حفظ أموال الميت. والدليل على أن الأرض حرز قوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتاً * أَحْياءً وَأَمْواتاً**﴾[3]. والكفت: الجمع والحرز، فالقبر حرز. هذا إضافة إلى الأخبار الدّالة

(١) كما جرى للشيخ الطبرسي، وكانت سبباً في تأليفه تفسيره (مجمع البيان)، فقد ذكر مترجمه في مقدّمة التفسير المذكور عن صاحب (رياض العلماء) أنه قال: «مما اشتهر بين الخاصّ والعامّ أنه رحمه الله أصابته السكتة، فظنّوا به الوفاة، فغسلوه وكفنوه ودفنوه وانصرفوا، فلمّا أفاق وجد نفسه مدفوناً، فنذر إن خلّصه الله من هذه البليّة أن يؤلّف كتاباً في تفسير القرآن. واتّفق أن بعض النباشين كان قد قصد قبره في تلك الحال، وأخذ في نبشه، فلما نبشه وجعل ينزع عنه الأكفان، قبض بيده عليه، فخاف النبّاش خوفاً عظيماً، ثم كلّمه فازداد خوف النبّاش، فقال له: لا تخف. وأخبره بقصّته، فحمله النبّاش على ظهره، وأوصله إلى بيته، فأعطاه الأكفان، ووهب له مالاً جزيلاً، وتاب النبّاش على يده. ثم وفى بنذره وألّف كتاب (مجمع البيان)...». مجمع البيان ١: ١٤ (المقدّمة).

(٢) عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «حرمة المسلم ميّتاً كحرمته حيّاً سويّاً». تهذيب الأحكام ١: ٤١٩ / ١٣٢٤.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «حرمته (المؤمن) ميتاً أعظم من حرمته وهو حي». الاستبصار ٤: ٢٩٧ / ١١١٦.

(٣) المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦.

على أنه حرز [١].

٢ـ أن يبلغ المسروق نِصاباً. والنصاب عند جمهور الفقهاء ما يبلغ ربع الدينار الشرعي، وهو الدينار الذهبي، ويساوي درهمين ونصف إلى ثلاثة دراهم. وتختلف تقديرات النصاب بين عشرة دراهم أو خمسة أو ثلاثة أو ربع دينار.

شبهة أبي العلاء

وقد حصل لأبي العلاء المعري من هذا لبس في لحظة من اللحظات، فكان أن خطر بباله هذا السؤال: لماذا تؤخذ دية اليد خمسمئة دينار ذهب ـ وهي نصف دية الحر ـ لكنها تقطع إذا سرقت ربع دينار؟ يقول:

يد بخمسٍ مئين عسجد فديت ما بالها قطعت في ربع دينار

تحكّم ما لنا إلّا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار [٢]

وأبو العلاء هذا كان قد مرّ بمرحلة من مراحل الشكّ، لكنه بعد ذلك استقام وتراجع عن جملة من آرائه. وهذه هي الصفة الغالبة عند أصحاب الاتّجاهات الفلسفية إذ يمرّون بحالات من الشك. ولو رجعنا إلى تاريخ الفلاسفة لوجدنا أن معظمهم قد مرّ بهذه المرحلة وتجاوزها؛ لأنهم يغوصون في مسائل عويصة. ومن له إلمام بالفلسفة يعرف ذلك. وقد أجاب بعضهم أبا العلاء عن إشكاله هذا بقوله:

عِزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذُلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري [٣]

فاليد النظيفة مشرّفة ومحترمة طالما أنها نظيفة، لكنها إذا نزلت إلى الحضيض

(١) انظر: الخلاف ٥: ٤٣٥، جواهر الفقه: ٢٢٩، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٤١٨، شرائع الإسلام ٤: ٩٥٥، كتاب الأُم ٦: ١٦١: مختصر المزني: ٢٦٤، المجموع شرح المهذّب ٢٠: ٨٥.

(٢) فقه القرآن ٢: ٣٨٤، لسان الميزان ١: ٢٠٥.

(٣) بحار الأنوار ١٠٤: ٩ ـ ١٠، الإقناع في حل ألفاظ أبي الشجاع ٢: ١٩٠.

والاعتداء على الناس أصبحت وضيعة، وتدنّت قيمتها إلى ربع الدينار.

إن الله تعالى أعطى الإنسان أعضاء ليستخدمها في فعل الخير وطرقه، ولم يعطِه إياها ليعتدي بها على الناس ويسرق ويضرّ المجتمع، ويلمس ما لا يجوز له أن يلمسه. فلا بد له من أن يستخدم الجارحة التي منحه الله إيّاها في الطريق الذي رسمه له. والله هو الذي أعطى الإنسان هذه النعمة من الأعضاء، فلو أنه أصيب بالشلل مثلاً وبقي عشرات السنين وذهب إلى أمهر الأطباء فلا يستطيع أن يعيد له حركة اليد، إنها هبة من الله ونعمة، وقد تكفّل الله بها على صعيد الإدامة لا على صعيد الإعطاء فحسب.

ولو أن عناية اللّه تنقطع عن الإنسان لحظة من اللحظات في أي مجال لانقطع عنه كل شيء. وعليه فينبغي ألّا يكون شكر النعمة إلّا باستخدامها في موضعها.

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما يخرج من المسجد بعد الصلاة يمرّ بميثم التمّار أو جماعة من أصحابه، فيشتري لأهله شيئاً، وغالباً ما يكون التمر، فيتسارع إليه شرطة الخميس ليحملوها عنه، فيقول لهم: «**دعوها، إن أبا العيال أحق بحمله**».

ويحمله بيده الشريفة، أي أنه عليه السلام يريد أن يفرح أطفاله وهم يرونه يحمل بيده شيئاً لهم. وكم يفرح الطفل عندما يرى أباه يحمل بيده حاجة له. وأسأل الله أن يهدي الآباء ويجعل دأبهم إدخال الفرح على أطفالهم، ولا ينفقوا أموالهم فيما لا يرضيه، فيرجع لأهله وهو يحمل الغضب والحقد والتصرف السيئ.

ومن الموارد التي تقطع فيها اليد حال خروجها للحرابة. والحرابة هي أن يقطع صاحبها الطريق، على الناس، فيسلب وينهب ويعتدي ويسفك الدم. قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ**

يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

ومن الشواهد على الحرابة ما يرويه البخاري[٢] وغيره[٣]، أن جماعة من عُرينة دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا له: نحن جئنا وافدين عليك، فأصابنا في المدينة اجتواء (نوع من الأمراض). فأمر لهم النبي ﷺ بلقاح (مجموعة من النياق ذات اللبن)، مع راعٍ، وقال لهم: «**كلوا منها وتداووا**» ـ لأن الناس ذلك الزمان كانوا يتداوون ببعض إفرازات الإبل ـ **ثم أعيدوها إلينا؛ لأنها من بيت المال وليست لنا**».

فأخذوا النياق، وفعلوا ما قال لهم، إلى أن برئوا. فعمدوا إلى الراعي وقتلوه، ونهبوا النياق، فأمر النبي ﷺ بإتباعهم، فأُتي بهم قبيل الغروب. فقال النبي ﷺ: «**قطّعوا أيديهم وأرجلهم**».

فهؤلاء طُبّق عليهم حكم الحرابة؛ لأنهم نهبوا وسرقوا وقتلوا فقطعت أيديهم وأرجلهم. فهذه اليد لم تشكر النعمة، بل وقفت تحارب المسلمين؛ ذلك أن النياق للمصلحة العامة، وهي من أموال المسلمين. والراعي رجل بريء جاء لخدمتهم. ثم إن النبي ﷺ كرّمهم، لكنهم كفروا بالتكريم؛ ولذا استحقّت هذه اليد أن تقطع؛ لأنها انحرفت، فلم يصبح لها قيمة محترمة.

هذه موارد انحراف اليد. أما الموارد التي إذا قطعت فيها اليد أصبحت عنوان مجد، فهي اليد التي تقطع في سبيل العقيدة، ومنها ما ذكرته الآية الكريمة.

---

(١) المائدة: ٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٧: ١٣، وفيه أنه ﷺ إضافة إلى ذلك أمر بسمر أعينهم.

(٣) السنن الكبرى (النسائي) ٧: ٩٤، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ٦٢، تفسير ابن زمنين: ٢٥، وفيها أنه ﷺ أمر بسمر أعينهم كذلك.

أوّل من قطع اليد

يقول المفسرون: أول من قطّع وصلّب فرعون، وذلك عندما آمن السحرة لموسى عليه السلام، فقد هيأ فرعون السحرة لموسى عليه السلام وتصور أنه ساحر مثلهم. فلما رأى السحرة ما عند موسى أيقنوا أن ذلك ليس سحراً، وإنما هو معجزة، وقد رأوا العصا تلقف ما يأفكون، ورأوا موسى عليه السلام ليس من سنخ السحرة، بل رأوا أنه يحمل عطاء السماء، وما أراد الله له أن يحمله؛ ولذا سجدوا له وآمنوا به. فالتفت فرعون إليهم قائلاً: ﴿**آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾[1]، ثم قال: ﴿**لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[2]، فقالوا له: اصنع ما شئت[3]، فحتى لو لم تقطعها أنت فإنها تقطع يوماً من الأيام شئنا أم أبينا، وستتحول إلى ذرات في القبر. إن قطعها الآن يمثل عنوان شرف، لأنه في سبيل الدفاع عن العقيدة، وهذا مورد من الموارد التي نفتخر بها. وهذا عين ما يعنيه أبو الطيب المتنبي رحمه الله في إحدى روائعه حيث يقول:

ولوَ ان الحـياة تبقى لحيّ ... لعددنا أضلّنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموتِ بدٌّ ... فمن العارِ أن تموتَ جبانا[4]

أي لو أننا نعرف أن الحياة تبقى وتدوم، لاعتبرنا الشجاع ضالاًّ؛ لأنه يضيّع حياته. لكنها ستضيع منه ضيعها هو أم لم يضيعها. فالنتيجة إلى الموت حتماً.

نعم، قالوا لفرعون: ﴿**إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ**﴾. هذه هي النتيجة الطبيعية الحتمية

---

(١) الأعراف: ١٢٣. (٢) الأعراف: ١٢٤.

(٣) ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٤) ديوان المتنبّي ٢: ٤٧٤.

للإنسان. احتضر أعرابي فدخلت عليه بناتُه وهو في النزع، فبكين، فقال لهن: لم البكاء؟ قلن: عليك. قال: إن مت، فإلى أين أصير؟ قلن: إلى الله. قال: وهل يُحزن على ذاهب إلى الله؟ ينبغي الفرح لذلك لا الحزن؛ لأنني ذاهب إلى رب الرحمة والعطاء والكرم. إنني ذاهب إلى من غمرت رحمته السماوات والأرض.

فهؤلاء السحرة مطمئنون بالذهاب إلى ربهم؛ لأنهم واثقون به، وهذه اليد التي ستقطع لا تقطع في عار، وإنما تقطع لحظة الدفاع عن العقيدة، فهي في جوّ مشرف. وفعلاً أمر فرعون بهم، فقطعت أيديهم وأرجلهم.

ومن الشواهد على قطع اليد في سبيل العقيدة أن ميثماً التمار جيء به فأُدخل على الطاغية عبيد الله بن زياد، فقال له أحد الجالسين: هذا من موالي علي بن أبي طالب. فقال لميثم: ماذا قال لك مولاك الكذّاب؟ قال: ما مولاي بكذّاب، الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه. قال: يا عدو الله، والله لأقطّعنك إرباً إرباً. قال: افعل ما بدا لك. قال: ماذا قال لك مولاك؟ قال: قال لي مولاي: «**يؤتى بك إلى العتلّ الزنيم ابن مرجانة، فيأمر بقطع يديك ورجليك ولسانك، ويصلبك على نخلة**». قال: والله لأُكذّبنه، اقطعوا يديه ورجليه، وخلّوا له لسانه.

ففعلوا ذلك، وأخذ الدم ينزف منه. فراح يصيح وهو مصلوب على جذع النخلة ولا زالت به طاقة: أيها الناس، من أراد أن يستمع إلى العلم المخزون عن باب مدينة علم رسول الله ﷺ فليأتِ إليّ. وراح يحدث الناس بفضائل علي وآل الرسول عليهم السلام ومثالب أعدائهم. فبلغ عبيد الله أن ميثماً قد فضحهم وألبّ الناس عليهم، فقال: بادروا إليه واقطعوا لسانه. فلما جاء من يحمل السيف لقطع لسانه قال له: هل استطاع أميرك أن يكذب سيدي؟ ثم مد لسانه ليقطع، وهو يقول: كفاني شرفاً أن تقطع أعضائي في هذا السبيل. فقطع لسانه، وبقي مصلوباً علىٰ الجذع.

وهذا هو أُسلوبهم، لكنهم لم يعوا أن هذا الجذع أصبح منارة من منائر الشرف.
يقول أحد الشعراء في رجل مصلوب:

علوّ في الحياة وفي الممات	**لحق أنت إحدى المعجزاتِ**
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	**يضم علاك من بعد المماتِ**
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا	**عن الأكفان ثوب السافياتِ** [(١)]

إلى آخر أبياته في هذه التائية الرائعة.

المبحث الثاني: خلود الشهداء

وإذا كانت الأرض تأكل الأعضاء العادية فإنها لا تستطيع أن تأكل العضو المقطوع في سبيل العقيدة، بل إنه يظلّ يعيش في المشاعر والأفكار والعقول؛ لأن هذه الأعضاء مواقف، والموقف لا يموت. وهذه القضايا تبقى في ذاكرة التاريخ وفي أذهان الناس؛ كونها في سبيل الدفاع عن عقيدة. ومن الشواهد على قطع الأعضاء في ساحة الشرف أعضاء حمزة بن عبد المطّلب التي قطعت، وهي أنامله ويداه وأنفه وأذناه، وعملت منها هند قلادة ولبستها، ودخلت إلى مكّة،

(١) الأبيات لأبي الحسين الأنباري يرثي بها ابن بقية؛ إذ أن عضد الدولة قتله وصلبه على رأس الجسر في شوال من سنة (٣٦٧)هـ. ومنها مصوّراً حاله وهو مصلوب بأبدع صورة:

كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك أيام الصِّلات
كأنك قائم فيهم خطيباً	وكلّهُمُ قيام للصلاة
مددت يديك نحوهُمُ اقتفاء	كمدّهما إليهم في الهبات
لعظمك في النفوس تبيت ترعى	بحرّاس وحفّاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً	كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد	علاها في السنين الذاهبات

وقوله: زيد علاها: يعني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إذ أنه قتل وصلب كذلك. الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ج٨، ص٦٩١ ـ ٦٨٩.

وهي ترتجز:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر[(١)]

لكن، إن كانت هند هذه قد شفت قلبها فقد أحرقت قلب رسول الله ﷺ والإسلام، ومع ذلك فلا يضرّ حمزة رضي الله عنه أن تقطع أعضاؤه من بعد شهادته. يقول عبد الله بن الزبير لأُمّه: أخاف إذا قتلت أن يمثل بي الأُمويّون. فقالت: الشاة لا يضيرها السلخ بعد الذبح[(٢)].

ومن الشواهد التي قطعت فيها اليد دفاعاً عن العقيدة يدا جعفر بن أبي طالب، فقد نزل إلى الحرب في مؤتة يحمل عنفوان الهاشميين، وروح الإسلام، وهمّة المجاهد، ووقف في ذلك الموقف أمام أشرس الخصوم حتى قطعت يداه، فعوّضه الله عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة تكريماً لهذين العضوين. وكم حزن النبي الأكرم ﷺ لفقده؛ فقد بان التأثر على وجهه الشريف عندما بلغه مصرعه، فكان يدخل إلى بيته، وفيه زوجته أسماء بنت عميس، وولداها محمد وعبد الله، فيقول: «**عليّ بأولاد جعفر**». فكان ﷺ يضعهم في حجره الكريم، ويواسيهم غاية المواساة.

وكذلك زيد بن صوحان الذي قتل في ذات المعركة، وكانت يده قد قطعت في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: «**يسبقه عضو منه إلى الجنة**»[(٣)]، لأنه مجاهد يذهب إلى الجنة، وهذا العضو منه.

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١١٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٣، تفسير الثعلبي ٣: ١٤٦، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٧.

(٢) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٩٥، كنز العمّال ١٣: ٣٢٦ / ٣٦٩٩١.

قمر الهاشميين عنوان مجد وشرف

ونحن الليلة في رحاب أبي الفضل العباس الذي قطعت يداه في سبيل عقيدة وطريق مشرّف، وقد كان أولاد أُم البنين، فاطمة بنت حزام (رضـي الله تـعالى عنها)، أربعة، وقد أخذ هـؤلاء العـظماء الولاء مـن طـريقين، فكـان ولاؤهـم للحسينعليه‌السلام عن طريق أمير المؤمنينعليه‌السلام، وعن طريق أُمّهم أُم البنين.

ذلك أن أمير المؤمنينعليه‌السلام في قصة زواجه من أُم البنين كان قد بعث وراء عقيل وقال له: «**انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غـلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطف كربلاء**»[1].

فاختار له هذه المرأة من ألمع بيوت العرب، وكان العرب يفتخرون بهذا البيت. فولدت له هؤلاء النجوم الأربعة الذين خرجوا بأجمعهم مع الإمام أبـي عـبد الله الحسينعليه‌السلام يوم الطف ليذبّوا عنه.

وقد كان للحسينعليه‌السلام إخوة آخرون تخلّفوا عنه، أما سـبب تـخلّفهم فـلذكره موضع آخر من الحديث. لكن هؤلاء الأربعة خرجوا بأجمعهم، فيما بقيت أُمـهم في المدينة، وكان أكبرهم العباس، وهو متزوّج من لبابة بنت الفضل بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب. وله منها ـ على رواية ـ طفلان: الفضل وعبيد الله. وعلى رواية أُخرى الفضل فقط. وكانت زوجته وأبناؤه معه على رواية، وعلى أُخرى أنهم بقوا عند أُمّه في المدينة.

وفي يوم الطف استدعى إخوته، وقال لهم: إن طريقنا هو الشهادة، وسوف نقتل اليوم بين يدي أبي عبد الله، ولا بدّ من ذلك على كل حال. فتقدموا حتى أُرزأ بكم. أي أُريد أن أحصل على الأجر وأنا أتجرع ألم فـراقكـم أمـام عـيني، قـبل أن

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

أُستشهد، فيكون لي أجر بشهادتي، وأجر بشهادتكم. وراح يقدّمهم إلى الحرب واحداً تلو الآخر، حتى صرعوا بأجمعهم.

وجاء أبو الفضل بعدهم فوقف بين يدي الحسين عليه السلام يطلب منه الإذن بالقتال، وكان الحسين عليه السلام يصرّ على إبقائه أكبر قدر ممكن من الوقت، ولكن العباس قال له: سيدي، لقد ضاق صدري، وليس لي طاقة على أن أسمع عيالك ينادون بطلب الماء. فقال الحسين عليه السلام: «**أنت حامل لوائي؛ فإن ذهبت سقط اللواء**». قال العباس: لا أستطيع أن أسمعك تنادي: هل من ناصر، ولا أن أسمع أخواتي يصحن: العطش العطش:

أوتشتكي العطش الفواطم عنده ... وبصدر صعدته الفرات المفعمُ

فلو استقى نهر المجرة لارتقى ... وطويل ذابله إليها سلمُ

بطل تورث من أبيه شجاعة ... فيها أنوف بني الضلالة ترغمُ[1]

وكان الصوت قد انبعث قبل ذلك من معسكر ابن سعد: أين بنو أختنا؟ أين العباس وإخوته؟ فأطرق العباس خجلاً من نعتهم إياه أنه ابن أختهم. فقال له الحسين: «**أجبهم**».

فقام العباس عليه السلام للمنادي وقال له: ماذا تريد؟ قال: جاءنا كتاب من عبيد الله بالأمان لك ولإخوتك، وسوف نعطيك رئاسة الجيش، وما تريد من الجوائز، فدع الحسين وهلم إلينا والتحق بنا. إن خالك عبد الله بن أبي المَحْل عند عبيد الله بن زياد. فقال له العباس عليه السلام: قبّح الله ما جئت به، أتدعونا إلى النار، وأنا أدعوك إلى الجنة؟ أوَ تريدني أترك نصرة من خلقني الله لنصرته؟ فألوى عنان فرسه ورجع

(١) الأبيات للسيد جعفر الحلي، رياض المدح والرثاء: ٢٣٩.

مغضباً.

ويبدو أن أُخته زينب كانت تسمع المحاورة، فأشارت إليه، فمال بجواده إلى المخيم فقالت له: أبا الفضل، إنما تزوج أبوك أُمّك لتلد له أولاداً يكونون ردءاً لولده الحسين، فلا تقصر عنا، وقد ادخرك أبوك لهذا اليوم. فقال: أُخية، أَلمثلي يقال هذا؟ والله لأُنعمنّك عيناً:

إلي مناشده ويـاك وعـتاب　　　يمنوخ الهودج عـلى البـاب

اسبعطعش يبرون له احساب

وهكذا رجع إلى الحسين، فقال: ائذن لي. قال له: «**إذن اطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء**». فنزل إلى الساحة وقدم اليدين في سبيل العقيدة. وعندما قطعت الأُولى ارتجز:

والله إن قطعتُمُ يـميني　　　إنـي أُحـامي أبـداً عـن ديـني

وعـن إمـام صـادق اليـقينِ　　　نجل النبيّ الطاهر الأمـينِ[1]

وراح يذود الجيش بيسراه، حتى قطعت، فأنشأ يقول:

قـد قـطعوا بـبغيهم يسـاري　　　فأصـلهم يـا ربّ حـر النـارِ

يا نـفس لا تـخشي مـن الكـفار　　　وأبشـري بـرحـمة الجـبارِ[2]

أولاد الإمام الحسن عليه السلام

إن عدد أبناء الإمام الحسن عليه السلام الذكور والإناث خمسة عشر فرداً على أصح الروايات. وهناك رواية تقول: إن عددهم عشرون، وثالثة تقول: إن عددهم أحد

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، المناقب ٤: ١٠٨.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

عشر، ورابعة تقول: إن عددهم تسع. لكن الأصح، والذي عـليه الشـيخ المـفيد وآخرون أنهم خمسة عشر. ومنهم زيد بن الحسن وأُختاه أُم الحسن وأُم الحسين، وأُمّهم أُمّ بشير الخزرجية من الأنصار. وكان زيد يتولّى صدقات رسول الله التي تركها لتوزّع على المسلمين. فلما جاء سليمان بن عبد الملك إلى الحكم نزع منه هذه التولية، لكن عمر بن عبد العزيز أرجعه إليها مرة أُخرى.

وهذا يدل على أننا لا عداء لنا مع أحد إذا كان محمود السيرة، فبعض الأُمويين من أمثال عمر بن عبد العزيز نقدرهم غاية التقدير؛ لأن المقياس عندنا هو الصلاح والفساد. وكان أبان من أصحاب الأيمّة، وهو أُموي، لكنه من خيرة الناس، وله عندنا مكانة كبيرة لا حدود لها. كما إننا نعطي أُم حبيبة بنت أبي سفيان حقّها من الاحترام والتبجيل اللذين منحها الله إياهما، فلا عداء لنا مع أحد.

وكان لزيد بن الحسن مكانة كبيرة، وكان من الأجلّاء ومن مقاصد العرب، وقد اشتهر بالجود، يقول عنه أحد الشعراء:

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة ... نفى جَدبها واخضرّ بالنبت عودُها

وزيدٌ ربيع الناس في كل شتوة ... إذا أخلفت أبراقها ورعودُها

ويعتبر زيد من أعمدة النسب عند السادة الحسنيين؛ لأن الولدين اللذين أعقبا عند الإمام الحسن عليه السلام هما: زيد بن الحسن، والحسن المثنى.

والحسن المثنى هذا هو الحسن بن الحسن، وكان يتولّى صدقات جده علي عليه السلام، وقد بعث الحجّاج إليه أن أشرك معك في هذه الصدقات عمك عمر بن علي بن أبي طالب، فقال الحسن: هذه الصدقات مشروطة، وأنا منصوص علي بالولاية، ولا أستطيع أن أخالف النص. فقال الحجاج: أُجبرك على هذا.

فخرج من حيث لا يشعر به الحجاج، فأتى الشام إلى عبد الملك، فوجد في الطريق رجلاً اسمه يحيى، فقال له يحيىٰ: أنا معك، وسوف أرعاك. فدخل معه

على عبد الملك، فرحب به، وقال: أرى الشيب قد غلب عليك. فالتفت إليه يحيى قائلاً: ولِمَ لا يشيب، لقد شيبته الهموم والأماني بأن يكون خليفة، وهناك من يدخل عليه يبايعه ليصبح خليفة. فقال: الحسن ليحيىٰ: بئس ما قلت، أهذا الرفد الذي وعدتني به؟ ثم قال له عبد الملك: ما وراءك؟ فقصّ عليه أمره مع الحجّاج.

فكتب عبد الملك للحجاج أن يترك الأمر على ما هو عليه، وأن تبقى الصدقات بيد الحسن المثنى، ثم ودعه وخرج. فلما خرج الحسن قال ليحيىٰ: أهذا ما وعدتني به من الإعانة؟ قال يحيىٰ: نعم. قال: كيف؟ قال: أتظن أن هذا يقضي لك حاجة وهو لا يخاف منك؟ لقد خوّفته بما قلت له فقضى لك حاجتك. أي أنه يريد أن يقول له: قد أحببت أن أُنبهه إلى أن لك مكانة، وأنك تشكّل مركز ثقل، ولذا قضى حاجتك.

وكان الحسن المثنى قد خرج مع الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف وقاتل حتى سقط جريحاً، وكانت أُمّه خولة بنت منظور الفزارية، فلما انتهت المعركة وجاؤوا للتنكيل بالقتلى، جاء أحد أخواله وهو أسماء بن خارجة، فقال: لا يصلن أحد إلى ابن خولة. فقال ابن سعد: دعوه لأبي حسّان، إنه ابن أُخته. فحمله وهو جريح، وأتى به إلى الكوفة، فعالجه حتى برؤ، وأرجعه إلى المدينة.

وهناك ثلاثة آخرون من ولد الإمام الحسن هم: القاسم وعبد الله وعمرو، وأُمهم أُم ولد (جارية).

الثانية: فرية أنه مذواق مطلاق

إن هذه الفرية المختلقة تقول: إن الإمام الحسن تزوج ثلاثمئة امرأة، وهي فرية لا أساس لها، بل إن هناك رواية تقول: إنه مر يوماً بلُمّة من النساء فقال لهن: «**من منكن تتزوج ابن رسول الله؟**». فقلن له: كلّنا مطلقاتك.

وأنا أسأل هذا السؤال: لو أنك مررت بأدنى الناس أخلاقاً (ابن شارع)

وسمعته يقول لمجموعة من النساء: من منكن تتزوجني؟ فهل تقبل منه ذلك؟ فكيف تقبله من خليفة من خلفاء المسلمين، وسيد شباب أهل الجنة[1]، وابن رسول الله؟ إنه عليه السلام صاحب مركز مرموق لا يتناسب معه هذا الكذب والافتراء. إن هناك ما يسمى بـ«مناسبة الحكم للموضوع» فهل تساعد مناسبة الحكم للموضوع ما سمعت من أنه يمر بمجموعة من النساء ويسألهن: من منكن تحب أن تتزوج ابن رسول الله؟ وهل يقدم على هذا العمل ذو مكانة ومقام كريم، وقائد من قواد المسلمين، ومن يحبه النبي صلى الله عليه وآله ويقول عنه: «**أحب الله من أحبه**». وكان يحمله على كتفه، ويعبر عنه بأنه «**سيّد**».

الثالثة: إن كانت هذه نساؤه فأين أولاده

إن الإمام الحسن عليه السلام مات وعمره (٤٦) أو (٤٧) سنة، أي أنه في ريعان شبابه، ثم إنه لم يكن عقيماً، فإن كان تزوج هذا العدد من النساء فأين أولاده منهن؟ إن المرأة الواحدة يمكن أن تنجب (١٥) ولداً، فهل يتناسب عدد أولاده المذكور أوّل هذا المبحث مع عدد النساء المزعومات؟ مع العلم أن الأضواء في التاريخ تسلط عندنا على من يحكم، حتى إن أحدهم يقول عن تاريخنا: إنه تاريخ حكّام لا تاريخ شعوب. وكان الإمام عليه السلام الحسن خليفة وحاكماً، ولا شكّ أن الأضواء سلطت عليه، فأين هذا العدد الضخم من النساء؟ وأين من أنجبنهم من الأولاد؟

إن الهدف من إلصاق هذه التهمة بالإمام الحسن عليه السلام هدف واضح، وهو محاولة

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

إسقاط مكانته وهيبته من قلوب الناس وأعينهم. وقد لعب العنصر السياسي دوره هنا، والذي لعب هذا الدور بشكل أكبر إنما هم العباسيون، فأصروا على تشويه صورة الإمام الحسن عليه السلام، وعلى إبرازه للناس بشكل يوحي أنه إنسان لا شغل له سوى الزواج والطلاق. رووا أن الإمام علياً عليه السلام قال: «**لا تزوجوا الحسن؛ فإنه رجل مطلاق**». فقام رجل من همدان فقال: بلى والله لنزوجنّه وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن أمير المؤمنين عليه السلام؛ فإن شاء أمسك وإن شاء طلق [1].

وهذا كما رأيت لا يتناسب معه، ولا يستقيم أمام النقد أبداً. وقد أراد العباسيون أن يصوروا العلويين على أنهم ضعفاء منصرفون إلى شهواتهم ولذائذهم.

والغريب أن الأضواء لم تسلّط على من تزوجوا عدداً كبيراً من النساء فعلاً، فهناك من بني أُمية من تزوج (٦٢) امرأة، والمتوكل العباسي كان لديه (٤٠٠٠) سرية [2]. ويمكنك مراجعة تاريخ الطبري والمسعودي وغيرهما [3]. وهذه الأربعة آلاف موزّعة على قصوره، لكن، هل سمعت أحداً من المؤرخين ينتقده؟ أم أنهم يصفونه أنه محيي السنة ومميت البدعة؟ [4]. وقد كان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب عليه السلام [5]، لذا تجد التاريخ يصفه بهذه الأوصاف. وهذه من الثغرات التي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٣، ٢٦٢، البداية والنهاية ٨: ٤٣، وقد رواه الكليني في الكافي ٦: ٥٦ / ٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

(٣) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.

(٤) البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٥) شجرة طوبىٰ ١: ١٥٧، الكامل في التاريخ ٧: ٥٥ ـ ٥٦، قال ابن الأثير: وكان المتوكّل شديد البغض لعلي بن أبي طالب عليه السلام ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولّى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم، وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث، وكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكّل والمغنّون يغنون: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين. يحكي بذلك عليّاً عليه السلام والمتوكل يشرب ويضحك، ففعل

يجب أن تصحّح في تاريخنا؛ لأن التاريخ كتب في العصور الملغمة، وآثار ذلك سوف تنسحب على الأجيال، فعلى المراكز الإسلامية أن تنتبه لذلك، وتصحّح مسار تاريخنا وهدف مسيرتها.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المذاهب الإسلامية): «ليس من المعقول أن يشتم الأُمويّون علي بن أبي طالب على المنبر صباح مساء، ثم يكتبون له في تاريخهم فضيلة». وماقاله عين الصواب؛ لأنهم إن كتبوا له فضيلة وهم يشتمونه كان ذلك تناقضاً.

إذن ينبغي أن ينظّف التاريخ من روايات المدح والقدح والمبالغة وغير ذلك مما ليس في محلّه، وإلّا فما ذنب الجيل إذا زودناه بهذا الزاد؟ إنك ترى أننا إذا أُصبنا بوباء بسيط في بلداننا، فإننا نقوم بحملة صحّيّة واسعة للقضاء عليه، فلم لا نفعل ذلك مع الوباء الفكري والعقيدي؟

الرابعة: في تزوّج الأئمّة عليهم السلام من الإماء ومفهوم الكفاءة

إن الكثير من الأئمّة تزوّجوا من الإماء، والأمة غير الحرّة، ومعنى ذلك أن الكفاءة التي يشترطها فقهاء المسلمين من ناحية الزوجين، لا من ناحية الزوج فقط لم تتحقّق.

ففي كتب الأحكام أن الكفاءة بين الزوجين لابدّ أن تتحقّق، لكن، هل هذه الكفاءة شرط صحة أو شرط لزوم؟ فإن انعدمت الكفاءة وحصل العقد فهل هو

☚ ذلك يوماً والمنتصر حاضر فأومأ إلى عبادة يتهدّده، فسكت خوفاً منه، فقال المتوكّل: ما حالك؟ فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه. فقال المتوكّل للمغنّين: غنّوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمّهْ رأس الفتى في حِرِ امّه

صحيح أو لا؟ يقول بعض المذاهب الإسلامية: إن الكفاءة شرط في الصحة، ولا ينعقد العقد في مثل هذه الحال، وإن قارب المرأة فهو زنا. وعند بعض المذاهب أنه شرط لزوم، أي أن الكفاءة إذا لم تتحقّق، فالعقد صحيح، لكن المرأة يحقّ لها أن تفسخ العقد [١]. فما هي الكفاءة؟

يشترط الأحناف [٢] والشوافع [٣] والحنابلة [٤] الكفاءة في النسب، فالقرشي يتزوج القرشية، والكردي الكردية. وغير العربي ليس كفئاً للعربية. والعربي غير القرشي ليس كفئاً للقرشية.

وعند الإمامية [٥] والمالكية [٦] أن الكفاءة لا تطلب إلا بالدين: «**من جاءكم ممّن ترضون دينه فزوجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة**» [٧]. فالمسلم كفء المسلمة. أما في النسب فلا، فقد زوّج النبي ﷺ ربائبه إلى أُناس ليسوا بمستواه، باستثناء الإمام علي، وزوّج ابنة عمته زينب بنت عبد المطلب [٨] سيد البطحاء من زيد بن حارثة، وهو مملوك، وزوّج فاطمة بنت قيس من مملوك مُعتق. ثم إن النبي ﷺ نفسه تزوج من الإماء. وأمر النبي ﷺ بني بياضة وهم من أُسر الأنصار الشريفة أن

(١) انظر في هذا المطلب وسابقه: الخلاف ٤: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ / المسألة: ٣٣ المبسوط (الطوسي) ٤: ١٧٩، تذكرة الفقهاء ٢: ٦٠٤ (حجري)، مسالك الأفهام ٧: ١٥٧، كتاب النكاح (الأنصاري): ١٦٩، بدائع الصنائع ٢: ٣١٧.

(٢) المبسوط ٥: ٢٢، ٢٤، تحفة الفقهاء ٢: ١٥٤، ١٥٥، بدائع الصنائع ٢: ٣١٨.

(٣) المجموع شرح المهذّب ٤: ٢٨، مغني المحتاج ٣: ٢٠٨، إعانة الطالبين ٣: ٢٧٥.

(٤) المغني ٧: ٢٧٤، ٢٧٥، ٤٢٠، الشرح الكبير ٧: ٤٦٥، ٤٦٦، ٥٥٤، كشاف القناع ٥: ٧٣.

(٥) الناصريات: ٣٢٧ /المسألة: ١٥٣، الخلاف ٤: ٢٧١ /٢٧، إرشاد الأذهان ٢: ٣٠.

(٦) حاشية الدسوقي ٢: ٢٥٠.

(٧) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٨) يريد المحاضر أنها من نسل عبد المطّلب الذي هو جدّها لأُمّها؛ فهي ابنته.

يزوّجوا جويبراً الغلام من ابنتهم[١].

فالكفاءة في الدين فقط، أما في النسب فلا، قال تعالىٰ: **﴿يا أَيُّـهَا النّـاسُ إِنّـا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْـثى وَجَـعَلْناكُـمْ شُـعُوباً وَقَـبائِلَ لِـتَعارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِـنْدَ الله أَتْقاكُمْ﴾**[٢].

نكاح العلوية من غير العلوي

وقد يقول قائل: إن عندكم أيها الشيعة أحد الروافد يقول: لا يجوز أن تتزوج العلوية إلّا من علوي، فما هذا الرأي؟ والجـواب: أن هـذا الرأي مـقتصر عـلى جماعة، وهو متروك لا يُعمل به. وعندنا أن المسلم كفء المسلمة. والكفء هو الرجل الصالح.

وقد تطرّقت لهذا الموضوع؛ لأن هناك مشكلة قائمة الآن هي أن الكثير مـن الآباء تركوا بناتهم عوانس بحجّة أن هذا ليس كفئاً لهم، لأنهم سادة أو عرب، وهذا كما يقول الحديث «**إلّا تفعلوه تكن فتنة**»؛ ولأنه عامل عـلى نشـر الفسـاد فـي الأرض. ولو تذلّلت العقبات أمام الزواج لارتفع الكثير من الفساد؛ لأن الإنسان يقع غالباً في الرذيلة إذا لم يجد ما يعفّف به نفسه.

وأنا لا أطلب من الآباء أن يلقوا البـنت أو الولد إلى مـصيريهما دون دراسـة للحالة، فهذه مسؤولية أيضاً، ومن زوّج ابنته من فاسق فقد عقّها[٣]، لكن ينبغي أن تخفّف القيود عن الزواج.

والمصيبة اليوم هي أن المكان الذي أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يجمع مـنه المسـلمين،

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨، أُسد الغابة ٢٠٢ / ١٩٦٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) في الحديث عن الصادق عليه السلام: «من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها». الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

انطلق المسلمون منه لبثّ الفرقة بينهم. فقالوا: معنى من ترضون دينه أن يكون من مذهبك. والمذهب ـ في الحقيقة ـ ما هو إلا مجتهد يوصلك إلى الحكم، فهو رافد، يقودنا إلى الإسلام، وكلنا إلى الإسلام. فمن كان مسلماً يشهد أن لا إله إلا الله، ولا ينكر ضرورة من ضرورات الدين، فهو كفء المسلمين.

وأؤكد هنا أن المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يلتحم بعضه ببعض ويتلاصق إلا عن طريق الزواج، وهذا هو الهدف الذي رسمه الله للزواج.

لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين يمنعون الزواج من مذهب آخر؟ إن هذا لا يلتقي مع روح الإسلام. وقد زوج أهل البيت أناساً لا يصلون حتى لغبارهم، كل ذلك بدافع وحدة المسلمين. ونحن هنا نطلق صوت الإسلام الذي يدعو إلى تذويب العقبات. والذي يعنينا وحدة المسلمين فقط.

رجع

وممن حضر في الطف من أولاد الإمام الحسن ولم يقتل ابنه عمر، وكان مريضاً، وعمره (١١) أو (١٣) عاماً، وقد جيء به أسيراً وأُدخل إلى مجلس عبيد الله ومجلس يزيد، وقد سأله يزيد: من أنت؟ قال: أنا ابن الحسن. قال: هل لك أن تصارع ابني خالداً؟ قال: أنا مريض، لكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً، فإما أن يقتلني فألحق بآبائي، أو أقتله فيلحق بآبائه.

فعرف يزيد أنها كلمة رجل. فقال:

شنشنة أعرفها من أخزم   هل تلد الحية إلا حيه[1]

وهناك من أبناء الحسن من ينص عليه المؤرّخون أنه حضر يوم الطف،

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٥.

ويذكرون أن أُمه شهربانويه أخت شاه زنان، فيكون على هذا ابن خالة الإمام زين العابدين عليه السلام. وهو على رواية أن أباه عليه السلام تركه في بطن أُمه، وعلى أُخرى أن عمره كان (١٠) سنوات أو (١١) سنة، أي في عمر القاسم. فلما سقط الحسين عليه السلام على الأرض يوم كربلاء، خرج من الخيمة يعدو، فرآه الحسين عليه السلام وكان لا يقوى على الحركة، فصاح بأُخته: «**أمسكيه لئلّا تأخذه حوافر الخيل**».

فبادرت إليه لتمسكه، فأفلت منها، وأقبل يعدو حتى جلس في حجر عمه. فأدناه الحسين إليه، ومسح بيده على رأسه، وبينا هو كذلك إذ أقبل أبجر بن كعب فرفع سيفه يريد ضرب الحسين عليه السلام، فالتفت إليه الصبي قائلاً: يا بن اللخناء، تريد أن تضرب عمي؟ واتقى الضربة بيده، فقطعت يده، وبقيت معلّقة بالجلد. فصاح: أدركني يا عماه. فضمّه الحسين وهو يقول: «**صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، واللّه لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان اللّه الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[1].

ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «**اللهم اشدد وطأتك علىٰ هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا**»[2].

ولم أرَ من بنات الحسن من حضرت إلى الطف، وكان له من البنات سبع. منهن

(١) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

(٢) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

أُم‌سلمة ورقية وفاطمة. أما الأولاد فقد حضر منهم من ذكرنا، كما حضر القاسم بن الحسن، وكان عمره يوم الطف (٩) سنوات أو (١٠) أو (١١) سنة على ثلاث روايات. وقد كان آخر من صرع كما يظهر من الروايات؛ لأنه كان داخل الخيمة، فلما لم يبقَ مع الحسين أحد من بني هاشم، ورجع آخر رجعة ووقف، سمع القاسم صوت عمه ينادي: «**أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول اللّه؟**»[1]. خرج وأمسك بثوب عمه. قال: عم، إني سمعت صوتك، وأُريد أن أذبّ عن حرم جدّي. فقال له الحسين عليه السلام: «**بني، أنت وديعة عندي من أخي الحسن. ادنُ إليّ**». فدنا منه، فشمه وقبله وأعاده إلى الخيمة. فعاود الخروج وهو يقول: يا عمّ، لا أستطيع أن أسمعك تنادي وأنا أجلس في كسر الخباء، ايذن لي. فلم يأذن له، فعاود الثالثة، فقال له الحسين: «**أعزمت؟**» قال: نعم. فدخل إلى الخيمة وأخرج صندوقاً فيه عمامة للإمام الحسن عليه السلام لأنها على رأسه، وألبسه رداء للإمام الحسن عليه السلام أيضاً، وقلّده سيفاً، ثم قال له: «**انزل بارك الله فيك**». فنزل وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجل الحسنْ ... سبطِ النبي المصطفى والمؤتمنْ

هذا حسين كالأسير المرتهنْ ... بين أُناس لا سُقوا صوب المُزُنْ[2]

الإنسان والتشريع

فالقرآن الكريم يقول لهؤلاء: من أين جئتم بهذا التخبّط؟ ثم إن هذا التخبّط يتضمّن أمرين في غاية الخطورة:

الأول: إهدار المال والطاقة

فكون هذه الدابة سائبة أو وصيلة أو ما إلى ذلك هو ـ كما قلنا ـ هدر للطاقة

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار ٤٥: ١٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ٢: ٢٩.

التي يمكن استثمارها فيها عبر العمل والنقل، وهدر للمال الذي يكون إزاء ما فيها من لحم، وللمال الذي ترتع فيه كالزرع والشجر وغيره دون أن يردعها أحد عنه.

الثاني: تصدّي من ليس له أهليّة التشريع له

كما أن هذا الأمر ينطوي على خطورة التشريع غير الصحيح، فإن يزجّ الإنسان نفسه فيما لا يخصّه ويدخلها فيما لا يعنيه مما لا يعلم جميع مداركه وحيثياته لهو أمر في غاية الخطورة؛ لأن للتشريع أهله، ولا ينبغي لكلّ أحد أن يمارس هذا؛ فهو حقّ من له أهليه التشريع، فقط وهو الله تعالىٰ.

وحينما يقرر الإنسان أن هذا للصنم وهذا له فإنه يفعل ما ليس في صالحه ولا في صالح المجتمع، وإلّا فما هي إمكانيات هذا الإنسان حتى يعطي نفسه حقّ التشريع؟ ومكمن الخطر هنا أنه يجعل تشريعاته مقابل تشريع السماء، وهو أمر ليس من مختصّات عصر الجاهلة فقط، بل إنه يحدث في جاهلية القرن العشرين أيضاً، فمن السهل جدّاً أن نسمع من يطلّ علينا ويقول: إن الإنسان والمجتمع من حقّهما أن يشرّعا لهما ما يحفظ وجودهما وينظم حياتهما. فالإنسانية من وجهة نظر هذا البعض مدينة لفقهاء القانون في تنظيم شؤونها، مع أن هذا المشرع الإنسان مهما كان عبقرياً في تصور هؤلاء، فهو لا يعدو أن يكون كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة**»[1].

وهو لا يستحقّ أكثر من وصف فرويد له بقوله: أستطيع أن أقلبه إلى حيوان بلحظة. ولما سئل: كيف؟ قال: ألتقي إنساناً في الشارع فأضربه، وحينها سينزع عقله وإنسانيته وسيتحوّل إلى حيوان لا يفكّر إلّا في ردّ الفعل الانتقامي، ولا يدور في خلده أن هذا الذي ضربه ربما كان فاقد العقل أو واهماً.

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩.

وكثير من بني البشر من يعيش مع غيره سنوات طويلة ثم في لحظة واحدة ينسى صحبة كلّ تلك السنوات لأتفه الأسباب، ويتحول إلى عدوّ كاسر. يقول الشاعر:

احذر عدوّك مرّة واحذر صديقك ألف مرّه

فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أعرف بالمضرّه [1]

وهو حكيم في هذا؛ إذ أنه يتكلّم عن تجربة واعية شاهدها ووعاها. وإن كان الأمر بهذا الشكل فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يشرّع لغيره، وهو ما بين لحظة وأُخرى ينقلب عدواً لذلك الغير؟ وكيف له أن يضع القوانين ويسنّ الدستور وهو عرضة للخضوع لشهواته وانفعالاته لأدنى الأسباب ولأبعد الحدود؟ ثم إن لنا أن نتساءل عن الإنسانية والمعروف الواجب التعامل بهما بين الناس، وعن الدواعي التي تحيل أخاً في الدين أو الإنسانية عدواً شرساً للاختلاف معه بالفكر والعقيدة. مع أن هذا ما لا نشاهده عند ذوي النفوس الكبيرة التي تصفح عمّن خالفها وأساء إليها، كان الإمام علي عليه السلام على منبره فسئل عن بيع أُمّهات الأولاد، فقال عليه السلام: «**كان رأيي ورأي عمر ألّا يُبعن، ثم رأيت بيعهن**».

وأُم الولد هي الجارية المملوكة التي إذا وطئها مالكها بملك اليمين وحملت منه تصبح ملكيّتها متزلزلة؛ فلا يجوز بيعها ولا غيره. وبعد أن تلد تسمى «أُم ولد» إكراماً لولدها ورعاية له، فإذا مات سيدها انعتقت من حصة ابنها من الميراث وأصبحت حرّة. فقال له عبيدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك [2].

---

(١) الفتوحات المكية ٢: ٣١٤، ٤: ٥٥٠، شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٩.

(٢) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أُصول الأحكام ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

فالإمام﵇ أبدى رأيه في هذه المسألة حينما اعترضه عبيدة السلماني، لكنه﵇ بيّن له أن له رأيه، ولا يضيره هذا، في حين أن الحجّاج هو الذي خطب الناس مرة حتىٰ غابت الشمس، فقام له أحدهم وهو يخطب وقال له: أصلحك اللّه، الوقت لا ينتظرك، والربّ لا يعذرك. فقال له الحجّاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن [(١)].

فهذا هو الفارق بين ذوي النفوس الكبيرة وذوي النفوس المتدنّية، وبين المعادن الثمينة والمعادن الخسيسة، فالإمام﵇ يقول له: لك رأيك ولي رأيي، ولا أُجبرك على اتّباع رأيي، والحجّاج يقول: خذوه فاحبسوه.

كان أمير المؤمنين﵇ جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقوها بأبصارهم، فقال﵇: « **إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبابها. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله؛ فإنما هي امرأة كامرأة** ». فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه، فقال﵇: « **رويداً إنما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب** » [(٢)].

فكأنه يريد أن يقول لهم بأنه إذا أراد أن يعاقبه فإنه سيسبّه بمثل ما سبّه به ولكنه

☚ قال أبو بكر الكاشاني: على أنه ـ أمير المؤمنين﵇ ـ كان لا يرى استقرار الإجماع ما لم ينقرض العصر. ومنهم من قال: كانت المسألة مختلفة بين الصحابة (رضي الله عنهم) فكان علي وجابر (رضي الله عنهما) يريان بيع أُم الولد.

هذه هي الرواية في مصادر أهل السنّة، وهذه هي تعليقة أبي بكر الكاشاني، مع أن رواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ علىٰ أن أُم الولد تعتق من نصيب ابنها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

(١) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأُدباء ١: ٢٣٩.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٢٠.

يترفع عن ذلك، فهو قد ارتكب خطأ ولا يريد أن يكون مثله وينزل إلى مستواه ويقابل خطأه بمثله[١].

وهؤلاء هم ذوو النفوس الكبيرة الذين إذا تربعوا على كرسي الحكم يُطمأن إلى أن هناك إنسانية وفكراً وحقاً وعدلاً ستسود الأُمّة وتعمّ المجتمع، أما أن يتربّع على كرسي الحكم من هو من نمط عبد الملك وأسلافه وأمثالهم ممن جاء بعدهم ممن ينتابه مركّب النقص، ويملؤه الحقد، ويسيطر عليه كره العدل وحبّ الدم فإن الكون سيتحول حينها إلى كارثة؛ لأن هؤلاء نقمة حقيقية. وبهذا نجد أن تعبير الإمام عليه السلام: «**رويداً إنما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب**» في غاية العدل والكمال، بل وبلوغ أعالي درجات الرقيّ في مراتب سلّم الكمال الإنساني.

رجع

ومن هنا نتبيّن الخطأ الفادح والفاحش في مذهب القائلين بأن من حقّ الإنسان أن يضع التشريعات والقوانين للمجتمع والحياة، وأن هذه المنظومة القانونية ستسعد الجنس البشري وتصل به إلى شاطئ الأمان. فأين لهذا المخلوق الضعيف الضيّق الأُفق، الذي تؤثر فيه وعليه المؤثرات البيئية والانفعالات النفسية، والذي تتملّكه أكثر من عقدة نقص أن يقنّن نظرية تحكم العلاقات البشرية؟ فكم من نظرية عاشت فترة ثم بعد فترة أصبحت خرافة ونسياً منسيّاً؛ لأنها لم تصمد أمام الشواهد الواقعية كنظريات تفسير الضوء وهل إنه موجي أم جسيمي، فكان يظن أنه موجي، ثم ذهب العلماء إلى أنه جسيمي[٢]. وربما يجيء وقت تفنّد فيه الكثير

---

(١) ولا ننسَ وصيته عليه السلام ليلة استشهاده بقاتله ابن ملجم حيث قال: «ما فعل ضاربي؟ أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي، فإن عشت فأنا أولىٰ به». كشف الغمّة ٢: ٦٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي): ٣٨٨ / ٤٠٤.

(٢) حتى جاء العالم الألماني بلانك ماكسويل الذي أثبت الطبيعة الثنائية للضوء؛ فهو في

من النظريات الأُخرى وتركن على رفوف التاريخ.

هشام بن الحكم يرى الطبيعة الجسيمية للضوء

وهذا الأمر موجود في تراثنا العلمي؛ فقبل أكثر من ألف وثلاثمئة سنة كان هشام بن الحكم‌رحمه الله ـ أحد تلاميذ الإمام الصادق‌عليه السلام ـ يرى أن الضوء ذو طبيعة جسيمية، وأنه يتكون من جسيمات رقيقة ومتلاحقة، وهو ما أثبته العلم بعد ذلك [1].

وكان عند هذا الرجل من الآراء العلمية ما أثبته العلم في أوروپا فيما بعد.

على أية حال فهناك الكثير من النظريات التي وضعها الإنسان ثم جاء بعده من بني جنسه من نقضها وركنها لثبوت عدم صحتها، وهو أمر لا يمكن أن تخلو منه نظرياته القانونية؛ لأن المصدر واحد. وما دامت هذه النظريات عرضة للتخطئة والنقض فمن الواضح إذن أن الإنسان لا يملك القابلية التي ينبغي أن تتوفر في المشرّع أو المقنّن كي يشرّع لنفسه أو لغيره. وأنه يصلح المجتمع. كما أن على أي فرد ألّا يضع مجرّد مقايسة بين تشريعات الأرض وتشريعات السماء، فأين الثرى من الثريا؟

وربما يعترض معترض بأن هذا القانون لم تضعه السماء وإنما وضعه النبي الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

ويجاب هذا المعترض بأنه لو تأمّل الفترة التي عاشها النبي صلى الله عليه وآله تأمّلاً جيداً، ثم قايس ما في القرآن الكريم من معارف وعلوم بمستوى الحياة الثقافية لها (الفترة

☚ الفراغ يسلك سلوكاً موجيّاً وفي الوسط الجسمي يسلك سلوكاً جسيميّاً، وبذلك فسّرت كمومية الضوء (نظرية الكوانتوم).

(١) في أحد سلوكي الضوء كما مر في الهامش السابق.

التي عاشها الرسول ﷺ)، لوجد أن ذلك العصر لم يكن يتّسع ولو لجزء يسير جداً لما جاء في القرآن الكريم. وهذا الأمر يثبت أن القرآن والإسلام ليسا من ابتكار النبي ﷺ بل هما من وحي السماء. ومن هذا أن الفترة التي تفصلنا عن الإمام الصادق عليه السلام هي قرابة الثلاثة عشر قرناً، ومع ذلك نسمعه يقول: «**يرىٰ الذي في المشرق أخاه الذي في المغرب**».

وفعلاً بدأت أجهزة التلفزة بنقل بثّ محطات التلفزة عبر الأقمار الصناعية مباشرةً من كل أرجاء العالم، فصار من بالمشرق يرى من بالمغرب[1].

وهذه الرواية يرويها المجلسي[2] عن الشيخ الصدوق رحمه الله وغيره[3]، والصدوق توفّي قبل ألف سنة، فمن أين جاء بهذه المعارف إن لم تكن من كلام المعصوم؟

وعليه فالبيئة التي عاش فيها النبي ﷺ في الحجاز كانت ترقد في حجر الجاهلية والظلمات، ولا يمكن لها أن تتمخّض عن مثل هذه المعارف.

إذن فهذا الكلام من المعصومين عليهم السلام مأخوذ عن النبي ﷺ، والنبي ﷺ كلامه من وحي السماء لا محالة، لا من البيئة الجاهلية[4]، فلو لم تكن السماء قد أطلعته ﷺ على ذلك ما أمكنه أن يقوله.

ونخلص من هذا إلى أن الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهّرة التي وردت على لسان الرسول ﷺ والأئمة المعصومين من آله هما من عند الله تعالىٰ، وإذا كانا كذلك فلا يجوز ولا يصحّ بأي حال من الأحوال أن نضرب بهما عرض الحائط ثم نلهث وراء نظم وقوانين وضعية يعتريها النقص ويشوبها التناقض[5]،

---

(١) مضافاً إلى هذا وسائل الاتّصال الحديثة عبر النت.

(٢) بحار الأنوار ٥٢: ٣٩١. (٣) مستدرك سفينة البحار ١: ٣٦٠.

(٤) ففاقد الشيء لا يعطيه.

(٥) قد ذكر المحاضر رحمه الله في إحدى المحاضرات أن من أوجه هذا التناقض أن يسنّ المشرّع

إن هذا لا يسوغ أبداً. ثم إن هذا الذي يقنّن ربما كان يوماً ما راقصاً أو غير ذلك، وقد يسكر فتتغشّاه الخمرة ثم يسنّ القوانين والسنن، فهل يعقل أن نأخذ بما يشرّع وننبذ قوانين السماء من أجل من هو من هذا النمط؟ فالإنسان الضعيف غير قادر على حماية نفسه وتوفير الأمن والسلام لها، وهو ما يعبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة**»، فهو بهذا محتاج لمن يتمّم له نقصه لا أن يشرّع لغيره.

تحريف القرآن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**﴾، وفي المقطع الشريف تنبيه إلى ضرورة السؤال عن القرآن حين نزوله..عن تنزيله ومعانيه وأهدافه وما إلى ذلك من أغراض شريفة ومضامين عالية. وهو أمر يبرّره ما شاهدناه بعد ذلك من الدسّ والتحريف والتزوير في معاني القرآن الكريم ـ لا في ألفاظه ـ مما هو واقع في كتب التفسير والحديث، فلو أنهم سألوا عن معاني الكتاب كافّة لكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد أجابهم عن كل ذلك، وهو بدوره يبعد كلّ محاولة لتزوير وتحريف معاني القرآن الكريم ومضامينه.

مصحف علي عليه السلام وتحريف القرآن الكريم

إن هذه المسألة ـ تحريف معاني القرآن الكريم دون ألفاظه ـ واقعة فعلاً، إن عندنا روايات تقول: إن المصحف الشريف الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام هو

☚ القانوني مادّة تقول: يجب مراعاة التقاليد، وتغذية الناس بالفضيلة. لكنه يعود فيسنّ مادّة أُخرى تناقضها دون أن يلتفت إلى ذلك، فيقول فيها: يجب توفير الحرية للناس وضمانها في كلّ ما يمارسونه من أعمال. ومن جملة هذه الأعمال ما يكون منافياً للفضيلة.

بحجم هذا المصحف ثلاث مرّات، وهذا ما حدا بالبعض أن يفتروا على الشيعة كذباً بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وأن القرآن الصحيح هو ثلاث مرات بحجم القرآن الحالي.

الشيعة لا يقولون بوقوع التحريف بل غيرهم

والجواب على هذا الادّعاء الكاذب يكون بالرجوع إلى كتبنا ومصادرنا في الحديث والعقائد والتفسير تنفي وقوع مثل هذا الأمر، بل غيرنا هو من يقول بذلك؛ فهم يروون مثلاً أن سورة (براءة) قد ذهبت ولم يبقَ إلّا ربعها، فقد روى الهيثمي في (مجمع الزوائد)[1] والحاكم في (المستدرك)[2] أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها. وأن بعض الآيات نسخت تلاوة لا حكماً كما في الآية «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله تعالى»[3]، وينسب إلى عائشة حذف آيات الرضاعة بنسخ التلاوة[4]، في حين أننا نقول: إن الموجود بين الدفّتين حالياً هو

(١) مجمع الزوائد ٧: ٢٨. (٢) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١.

(٣) الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، المنخول في علم الأُصول (الغزالي): ٣٩٢.

(٤) التفسير الكبير ٣: ٢٣٠. وذكر هذه الأُمور مستفيض عندهم ومشتهر، ولعلّ ما في كتاب (الإتقان) للسيوطي في باب عدد سور القرآن وآياته وحروفه، وفي غيره كفاية، ففي (الإتقان) مثلاً ينقل عن الخليفة الثاني رأياً مفاده أن عدد حروف القرآن يبلغ مليوناً وسبعة وعشرين ألف حرف. وكذلك عدد السور في قرآن أُبي فإنها مئة وستّ عشرة سورة؛ في حين أن إجماع علماء المسلمين علىٰ أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة. وهاتان السورتان يرىٰ أنهما لم تكتبا، وأنهما قد سقطتا، ويسميهما سورة (الخلع) وسورة (الحفد)، وكان يقنت بهما أُبي والخليفة الثاني نفسه. بل إنه (الخليفة الثاني) يصرّح بأنّ هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم، وينسب إلى بعض نساء النبي ﷺ أيضاً أنّ بعض الآيات قد أكلها الداجن. انظر: مسند أحمد ١: ٢٣، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٥٠، ٥: ١٢٩، ١٣٢، ٦: ٢٦٩،

القرآن كاملاً لا زياة فيه ولا نقص. **نعم**، هناك تقديم حرف وتأخير آخر، وهناك قراءات تختلف باختلاف القرّاء ورواتها في المدّ والإدغام والإقلاب والإمالة والتفخيم، لكنه ليس تحريفاً. وهذا الأمر موجود في القرآن الكريم بإجماع المسلمين، ومذكور في كتب علمائهم. فليس في عموم مذهبنا من يذهب إلى وقوع التحريف في القرآن الكريم، وإن وقع من واحد أو اثنين فهو شذوذ عن قواعد المذهب ومقتضى معتقداته؛ لأن عندنا أن القرآن الكريم إن وقع فيه تحريف من زيادة أو نقص أو غيره فإن حجّيته تسقط عن الاعتبار، فقد يدفع امرؤ الزكاة أو غيرها مما هو في آية من القرآن الكريم وربما تكون هذه الآية مزيدة، أو أن المكلّف لا يؤدّي واجباً؛ لأن الآية التي ذكرته حذفت من القرآن. وهكذا نجد أن الأمر لا ينتهي عند حد. وكذلك الحال مع الصلاة وغيرها من التكاليف.

وعليه فإن جمهور علمائنا وفقهائنا يرون أن القرآن هو مابين الدفّتين، فلا زيادة ولا نقص. ومن أراد أن يطّلع أكثر على هذا، ويتأكد منه فليرجع إلى مؤلفات علمائنا (رضوان الله عليهم) كالشيخ المفيد في (أوائل المقالات)[1] والشيخ الصدوق[2] والشهيدين والشيخ البهائي وغيرهم، فهؤلاء الأفذاذ لهم آراء صريحة

☚ صحيح مسلم ٢: ١٠٥٠ / ٧٢٦، ١٠٧٥ / ١٤٥٢، سنن الدارمي ٢: ٢١٧٩، السنن الكبرى ٨: ٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤٥٦: ٣، المصنف (الصنعاني) ٧: ٤٦٧، ١١: ٤٧٠، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٩، ٣٦٠، الكشاف ٣: ٥١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١١٣، ٢٠: ٢٥١، مناهل العرفان ١: ٢٧، ٢٥٧، ٢: ١١١، روح المعاني ١: ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، الإتقان ١: ١٩ / ٩٧١، ٢٤٢، ١٧٦ / ٨٣٢، ١٧٨ / ٨٤٣، ٣: ٨٢، ٨٤، ٢٠٦، الدر المنثور ٦: ٥٥٩ ـ ٥٦٠، وغيرها كثير.

(١) أوائل المقالات: ٨١ ـ ٨٢.

(٢) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٨٤.

وواضحة في هذا المجال لا تقبل الشكّ والتأويل.

ومع هذا فإننا نسمع ونرى إلى الآن من يتّهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن الكريم، وأنا لا أدري كيف يجرؤ إنسان مسلم المفروض به أنه يخشى الله تعالى على مثل هذا الافتراء، مع أنه لم يرجع في مثل هذه الافتراءات والتقوّلات إلى مصادرنا بل إلى مصادر من يكتب عنا ممن هم ليسوا منّا. زار الكاتب المصري المعروف أحمد أمين النجف مرة والتقى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رحمه الله فقال له الشيخ: إنّك تقول: إن في النجف أولاداً يلبسون الأقراط، وهم أبناء المتعة، فلنذهب معاً ونطف في شوارع النجف لنرى ما إذا كان ما قلته حقّاً أم لا. فقال أحمد أمين: أعتذر عن هذا؛ فقد رأيته في كتب المستشرقين.

ولا أدري لم يعمد كاتب إلى نقد طائفة عن طريق ما يكتبه عنها أعداؤها، مع أن مكتباتنا غنيّة بالمصادر والكتب. ونحن إن أردنا أن نحسن الظن بمثل هؤلاء فإننا نصفهم بالسذّج والمغفّلين، وإن أردنا ألّا نحسن الظن بهم فإننا لا نعدو وصفهم بأنهم مأجورون يبغون بثّ الفرقة بين المسلمين. وإلّا فهل يصحّ أن تُنقد آراء أبي حنيفة أو مالك من خلال ما يكتبه عنهما الآخرون؟ إن المنهج العلمي الدقيق والصحيح يلزمنا بأن نرجع إلى كتبه هو أو كتب أتباع مذهبه لنأخذ منها مادة النقد والمناقشة. ثم إن مسألة المتعة عندنا أصبحت مسألة نظرية لا تعيش إلّا في بطون الكتب ولا واقع معاش لها، وهي نظرية نتّفق نحن وأبناء السنة على أصل مشروعيتها وإن كنا نختلف في وقوع النسخ فيها.

إذن فالقرآن يحثّ على وجوب تتبّع أحكامه والسؤال عنها، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام في مصحفه الذي يعدل هذا المصحف المعروف ثلاث مرّات؛ حيث إنه عليه السلام كان كلّما نزلت آية سأل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن معناها أو ما فيها من أحكام

وتشريعات، كآية الوضوء [١]، حيث إن معرفة الحكم تقتضي معرفة ما هو المقصود من ﴿**الْمَرَافِقِ**﴾. وما المقصود بالغاية فيها؟ فـ﴿**إِلَى**﴾ من الألفاظ المشتركة في كلام العرب، حيث إنها تأتي بمعنى (من) وتأتي بمعنى انتهاء الغاية، فكان عليه السلام يأخذ المعنى الحقيقي المراد من الرسول صلى الله عليه وآله ويدوّنه تحت كلّ آية مختصّة به بها أو فوقها. وهذا هو كل ما في الأمر، ونحن حينما نقول: مصحف علي أو مصحف فاطمة فإنما نقصد به المصحف الشريف مع شروحه التي أضافها الإمام عليه السلام عليه نقلاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وجوب السؤال عن القرآن والدقة في نقله

فالله تعالى يأمر المسلمين باستقصاء معاني القرآن من الرسول صلى الله عليه وآله نفسه؛ لأن الأمر إذا دخل في باب (فلان عن فلان) حصل السهو والنسيان والزيادة والنقص غير ذلك مما يضيّع الهدف من الرواية؛ فإن سألوا الرسول صلى الله عليه وآله ونقلوها كلهم فإنه يحصل اطمئنان للرواية؛ للتواتر حينئذٍ. روى أحد الصحابة أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**إن الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه**». فبلغ خبر الرواية السيدة عائشة، فقالت: غلط الراوي إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات ومرّ أهله يحملونه ويبكون عليه، فقال صلى الله عليه وآله: «**إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذّب**» [٢].

فالمسألة هنا خاصّة، وعدم دقّة الراوي هي التي أوقعته في مأزق نقل الرواية؛ فإن من الطبيعي أن يبكي أهل الميّت ميّتهم، فلماذا يعذب هو؟ وما هو ذنبه؟ وهل يعاقب على ذنب اقترفه غيره؟ فالراوي هنا فهم الحديث على غير ما أراده

(١) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ المائدة: ٦.

(٢) منتهىٰ المطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٦: ٥٧، ١٠٧.

الرسول الأكرم ﷺ، ومثل هذا النمط من الرواة كثيرون[1].

والله تعالى إنما يحثّ على السؤال عن معاني القرآن الكريم؛ لأنها معانٍ توقيفية؛ بمعنى أنه لا يجوز تفسير القرآن الكريم بالرأي دون الرجوع إلى أحاديث الرسول ﷺ الذي يوقف المسلمين على المعاني الحقيقية له.

وهو أمر معناه النهي عن تفسير القرآن الكريم، بل والحديث الشريف كذلك بالآراء والأهواء، وما توحيه الظنون وتمليه الرغبات، فيُدخل في الدين ما ليس فيه، أو يُصنع مشرّعون مقابل تشريع السماء وهم لا يمتلكون القابلية الفعلية لذلك؛ لأنه مخلوق ناقص ويكمل نقصه بالدين. فالعقل البشري لا يمكن أن يرى حقيقة الأشياءالصالح منها له وغير الصالح إلّا بنور البعثة والنبوّة، وهو في ذلك حاله حال العين لاترى الأشياء إلّا بوجود النور أو الضوء.

---

(١) ومنها رواية دخول امرأة النار في هرّة حبستها، فقد دخل أبو هريرة على عائشة، فقالت له: يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرّة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقِها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه ـ يعني النبي ﷺ ـ فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذّبه في هرة، فإذا حدّثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدّث». مسند أحمد ٦: ٢٩٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذي ١: ٢٦١.

ومنها ما فهمه محمّد بن مثنىٰ العنزي ـ أحد شيوخ البخاري ـ من حديث أن رسول اللّه ﷺ إذا زار المقابر، ورغب في الصلاة هناك، وضع عنزة بينه وبين القبر الذي يصلّي إليه كحاجز عرفي؛ لأن الصلاة بين القبور مكروهة، ثمّ صلّى. مسند أحمد ٤: ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، صحيح البخاري ١: ١٢٧، ٤: ١٧٥. فقال هذا الشيخ: نحن قوم لنا منزلة وكرامة. فقيل له: كيف؟ قال: لأن رسول اللّه ﷺ قد صلّىٰ إلينا. سير أعلام النبلاء ١٢: ١٢٥، وادعىٰ أنه قالها مازحاً. والعنزة: العصا. العين ١: ٣٥٦ ـ عنز.

أُمومة الأرض

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ﴾، وهذا المقطع من الآية يشير إلى الأُم الأُولى للإنسان، وهي الأرض التي انفتق عنه رحمها فولد منها. والغرض من هذا أنّ القرآن الكريم يريد منّا أن نعامل الأرض معاملة الأُم الحقيقية؛ لأنّ الإنسان كما قلنا خرج من رحم الأرض، كما أنّه خرج من رحم أُمّه. وكما يشرب من ثدي أُمّه ويتغذّىٰ فهو كذلك يتغذّىٰ من ثدي الأرض وعطائها غير المحدود، وكما يحنو عليه حجر أُمّه يحنو عليه حجر الأرض. وحجرها هو الجاذبية التي تشدّنا إليها بشكل غريب، ولولا هذه الجاذبية لتناثرنا في الفضاء. فحجر الأرض بهذا يضمّنا ويحنو علينا.

والله تعالىٰ هو الخالق المبدع الذي وضع هذه الخاصيات في الأرض ومنحها إيّاها؛ ولهذا نجد الكثير من الأحكام التي شرعها الله تعالى حول الأرض وكيفية التعامل معها.

إن الأرض تمرّ اليوم بأزمة حقيقية بسبب هذا التطوّر الهائل في جميع نواحي الحياة، فهناك الكثير من هذه الاختراعات التي تعطي الكثير من الإيجابيات لكنها من جانب آخر تأخذ الكثير من حيوية الأرض وصحة المخلوقات مقابل ذلك. ومن هذا المخصّبات الكيمياوية مثل الأسمدة التي تؤدي إلى تسريع إنماء النباتات أو تسريع إنضاج الثمار أو تكبير حجمها، لكنها في الوقت نفسه تترك مخلفات سميّة في الأرض تتسبب في الكثير من الأمراض للكائنات الحية سواء الإنسان والحيوان منها أو تلك التي تعيش داخل التربة، كما أنّها تتسبّب في تسميم المياه الجوفية. وهذا هو شأن كل ما هو دنيوي حيث يعطي ويأخذ مقابل

ذلك ما هو أكثر مما يعطيه.

وهذا هو السبب المباشر في ارتفاع الكثير من الدعوات للتحذير من مخاطر التلوّث البيئي ومحاربته والوقوف بوجه مسبّباته للرجوع بالأرض إلى سابق عهدها الذي كانت عليه قبل عصر الثورة الصناعية[١].

وهذا هو دأب كل إنسان؛ فهو مقابل ما يعطيه من طاقة جسدية وذهنيّة، ومقابل ما يهدره من عمره وربما كرامته بأخذه أجراً على ذلك. وهذا هو شأن من يعطي الأجر أيضاً حيث إنه يأخذ مقابله طاقة العامل الذهنية الجسمية وغيرها. تقول الدراسات الحديثة: إن المستوى المعيشي حتى وإن ارتفع من جهة فإنه ينخفض إيكولوجياً، فيحصل هناك توسّع بالسكن على حساب الأراضي الزراعية؛ مما يؤدّي بالنتيجة إلىٰ ضيق نطاق الرقعة الخضراء وزوالها تماماً من بعض المدن. وبهذا فإن العلم لا يقدّم إنجازاً إلّا ويأخذ مقابله شيئاً.

وهذه الأزمة قد شغلت الأُمم المتّحدة فترة، حتى إنّه عقد مؤتمر في استوكهولم سنة (١٩٧٢) حضره أعداد كبيرة من العلماء في مجالات النفس والاقتصاد والاجتماع والزراعة وغيرهم. وكانت مهمة هؤلاء معالجة مشكلة التلوّث البيئي المتمثّل حتىٰ بالضوضاء[٢] التي تثيرها السيارات وعربات النقل وآلات المصانع

---

(١) يلاحظ أن من مظاهر التلوّث الناشئ عن التطوّر العلمي حدوث ثقب في طبقة الأوزون (O_3) فوق القطب الجنوبي، وكذلك ظاهرة الدفيئة أو ما يسمىٰ بالبيت الزجاجي (ظاهرة التسخين الكوني) وغيرها من مسبّبات القضاء على بعض مظاهر الحياة في الطبيعة.

(٢) يذكر أنّ مصطلح التلوّث بدأ يأخذ أبعاداً عميقة وواسعة سواء على نطاق الاستعمال أو على نطاق التطبيق، فنجد هناك من يسمي زيادة السكان تلوّثاً؛ لأنّه أحد أسباب حصوله، وهو من باب تسمية الشيء باسم لازمه. وهناك التلوّث البصري الذي يرجع إلى تعكير صفاء العين وحاسة البصر بمناظر غير جميلة أو ألوان تعدّ نشازاً، وكذلك التلوّث السمعي الذي يكون عادة مردّه الضوضاء الحاصلة نتيجة عمل المكائن والآلات والمحركات

ومكائنها. وهذه الأُمور تخلق نسبة عالية من الضوضاء سواء على صعيد الشارع أو المصنع وحتى داخل البيت والمدرسة، وقد وجد أنّ نسبة كبيرة من أسباب الصمم عائدة لهذه الضوضاء.

ومن مظاهر التلوّث ما تحدثه مخلّفات الصناعة والأسمدة من سموم في مياه الأنهر، الأمر الذي يؤدّي إلى القضاء على الحياة البيئية فيها. وكذلك زيادة السكان فإنّها تعدّ تلوّثاً أيضاً. وقد نتوسّع نحن في مفهوم التلوّث هنا ـ عند مسألة زيادة السكان ـ لأنّ هذه الزيادة قد تكون سلبية وليست إيجابية، وإذا كانت كذلك أصبحت ضارة حيث إنّها تفقد الهدف الذي من أجله وجدت، وهو إعلاء كلمة «**لا إله إلّا الله**» مثلاًكما هو ثابت عندنا.

إن البعض من الشعوب يتّسم بزيادة نسبة الولادات عندهم، وحينما يُطلب منه التريث في مثل هذا الأمر وإعداد العدّة له من كون الأب قادراً على تربية أبنائه إن كثروا وكونه قادراً على إعالتهم يجبك بما حاصله: «ثقله على الأرض ورزقه على الله». وكأن المسألة مقتصرة على ا لإيلاد والإطعام، وليس هناك مكان لاعتبارات أُخرىٰ، مع أنّ الله تعالىٰ يؤكد على وجوب حسن تربية الأبناء ومتابعتهم وعدم الانشغال عنهم في أُمور الحياة والعمل الذي ستصبح الحاجة إليه أكبر والمدّة أطول حينما يكثر الأولاد.

وهذا مؤدّاه تناقص فرص متابعة الآباء أبناءهم وتربيتهم تربية سليمة قائمة على الأُسس العلمية الصحيحة، وزرع الإيمان والتقوى والورع وحب الله في

☚ والتوربينات وما شاكل.

ولعل هذا التوسّع كما قلنا يعود بالدرجة الأُولىٰ إلى تسمية الشيء باسم لازمه؛ فكل ما يؤدي إلى الحاق ضرر بالبيئة والطبيعة يعدّ عنصراً ملوِّثاً وإن كان غير مادي كمسببات التلوّث السمعي والتلوّث البصري.

نفوسهم. إن على هؤلاء أن يعلموا أن الله تعالى يريد من الأب أن يقوم بكل هذا من أجل أبنائه ومجتمعه؛ لأنهم جزء منه يؤثرون فيه سلباً أو إيجاباً. وعليه فإن المسألة بهذا المنحىٰ تكون غاية في التعقيد.

خلافة الإنسان في الأرض

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾، أي أمركم بعمارتها، فلا تعرّضوها للخراب والدمار والإسلام هو أول من قنّن وقعّد لحماية البيئة ومن ذلك قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار»[1] التي تشمل كل أبعاد الحياة؛ فهي قاعدة سيّالة تطبق على كل موارد الحياة. فالأرض أُمّنا وأُم آبائنا وأجدادنا، منها خرجنا وإليها مصيرنا. ومن يمشِ على الأرض فإنّما يمشي على رفات الأجساد.. على رؤوس وأطراف، يقول المتنبّي:

نُعِدُّ المشرفيةَ والعوالي	**وتقتُلنا المَنون بلا قتالِ**
ونَرتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَباتٍ	**وهل يُنجينَ من خَبَبِ اللَّيالي**
رماني الدَّهرُ بالأرزاءِ حَتَّى	**فُؤادي في غِشاءٍ مِن نبالِ**
فصرت إذا أصابتني سهامٌ	**تكسّرت النصال على النصالِ**
وهان فما أُبالي بالرزايا	**لأني ما انتفعت بأن أبالي**
يدفّن بعضنا بعضاً ويمشي	**أواخرنا على هام الأوالي**
فكم عين مقبّلة النواحي	**كحيل في الجنادل والرمالِ[2]**

تشيّع المتنبي

إن مما يجدر ذكره هنا أنّ المتنبي تلوح عليه سيما التشيّع والميل إلى الجانب

---

(١) مجمع البيان ٥: ٢٩٧، وانظر تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٤٠٧، تفسير السمعاني ٢: ٤٣٨.

(٢) ديوان المتنبي ٢: ٢٦٥.

العلوي، ومن ذلك ما نقرؤه له:

فـــؤاد مـــا تسـلّيه المـدامُ وعـمر مـثل مـا تـهب اللـئامُ
ودهـر نـاسه نـاس صـغار وإن كـانت لهـم جـثث ضـخامُ
ومـا أنـا مـنهُمُ بـالعيش فـيهم ولكـن مـعدن الذهب الرغـامُ
فشـبه الشـيء مـنجذب إليـه وأشـبهنا بـدنيانا الطـغامُ
ولو لم يـعل إلّا ذو مـحلّ تعالى الجيش وانحطّ القتامُ(١)

ويقول:

أنـا فـي أُمّـة تـداركـها اللـ ـه غريب كـصالـح فـي ثـمودِ
مـا مـقامي بـأرض نـحلة آلّا كمقام المسيح بين اليهودِ(٢)

وكان حينما يدخل مصر يلبس العمّة الخضراء، وهي لباس السادة، لكنه نشأ في مكان اضطر إلى أن يخفي مذهبه ويتستّر بعقيدته.

الإسلام يؤسّس لحماية البيئة

إذن فقوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يؤسّس لقواعد حماية الأرض والبيئة، فلنرَ كيف أنّ هذا الجزء من الآية الشريفة يؤسّس لهذه القضية الحيويّة الهامّة:

أوّلاً: خطر التلوّث البصري

إن آراء المفسّرين حول هذا المقطع الكريم واضحة في أنّ الإسلام هو أوّل من وضع الأسس لحماية أُمّنا الطيبة (الأرض) من كل ما له أثر سلبي وسيّئ على سير الحياة فيها وعليها؛ والشيخ الطبرسي مثلاً يقول في تفسيره لهذا الجزء الشريف: «أمركم بعمارتها بالبناء وغرس الأشجار وعدم الإضرار بها». وهناك الكثير من

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ١٠١.

(٢) ديوان المتنبي ١: ١٩، معجم البلدان ٥: ٢٧٥، وفيه: نحلة قرية تبعد عن بعلبك ثلاثة أميال.

الأحكام الإسلامية الخاصّة بالمحافظة على البيئة وعدم الإضرار بها، وهي تتناول حتى الضوضاء والضجيج: ﴿**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾(١). يروى أن رسول الله ﷺ كان في غزاة، فأشرفوا على وادٍ، فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم، فقال ﷺ: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً معكم**»(٢).

فلا حاجة لرفع الصوت في مثل هذه المواطن بل اتجه إلى الله تعالى بهدوء وادعُه كما تحبّ وبأي شيء تحبّ، كما أنّ الكلام مع الجليس يجب أن يكون بمقدار ما يسمع الجليس.

ثانياً: خطر تلويث المياه

ومن أحكام المحافظة على الأرض وعدم إلحاق الضرر بها قوله ﷺ: «**ولا يبولن أحد في ماء؛ فإن للماء أهلاً**»(٣)؛ إذ أن الواجب يقضي بأن على الإنسان أن يراعي مسألة أن غيره سيستعمل هذا الماء للشرب، أو غيره من الاستعمالات التي يجب أن يكون الماء فيها نقيّاً طاهراً، وصحيّاً؛ لأجل الحفاظ على صحة الإنسان. فهذا النهي وغيره من موارد النهي عن تلويث الأنهر أدلّة واضحة على حثّ الإسلام على عدم تلويث البيئة ووضع القوانين والأُسس لهذا.

ثالثاً: خطر تلويث التربة

ومن هذه الأُسس أيضاً ما شرعه الإسلام ـ وكان سبّاقاً فيه ـ حول إماطة

---

(١) لقمان: ١٩.

(٢) بحار الأنوار ٩: ٣٤٣، مسند أحمد ٤: ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٨، صحيح البخاري ٤: ١٦، ٧٥، ١٢٦، ٧: ١٦٢، ١٦٩، ٢١٣، ٨: ١٦٨.

(٣) قريب منه في الخصال: ٦١٣، الاستبصار ١: ١٣ ـ ١٤ / ٢٥، تهذيب الأحكام ١: ٣٤ / ٩٠، تحف العقول: ١٠٢.

الأذىٰ عن طريق المسلمين، يروى أن السجّاد عليه السلام كان لا يرى حجراً في الطريق إلّا أماطه.

ولو نظرنا إلى جملة من الأحكام المختصّة بهذا المجال لوجدناها كافّة تنصبّ على حرص المشرّع الإسلامي المقدّس على الحفاظ على البيئة طيبة سليمة نقية من كل ما يدنّسها، وخصوصاً ﴿ **اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ فإن الإنسان مأمور بإعمار الأرض وإسعاد من فيها لا خرابها وتعاستهم.

الدعوة إلى مراجعة تراثنا العلمي

وعليه فإن أي معنى يحقّق عنوان التخريب فهو حرام في الشريعة الإسلامية؛ والمفروض بنا ألّا ننسب كل شيء يدعو إلى الخير وسعادة الناس والحفاظ على بيئتهم لأوروبا. وأنا من هذا المنبر أدعو كتّابنا كافّة إلى مدارسة القرآن وكتبنا الفقهية والتفسيرية لاكتشاف هذا الأمر، لا أن يجرّدوا أنفسهم وتراث المسلمين من كل وسيلة لتغطية هذا المجال الحيوي.

إن الإسلام يواكب الإنسان في كل مجالات حياته، ويدخل معه إلى أدقّ تفاصيل هذه الحياة، فهو معه حتى في الحمّام وفي الفراش، وهل يسوغ له ذكر الله في تلك المواضع أم لا، وإن ساغ فكيف يكون. وهكذا فإن الإسلام يعالج حتى أبسط القضايا الإنسانية ولا يتركها، وأقلامنا مدعوّة إلى الكتابة في عطاء الإسلام وإنجازاته الحضارية.

إذن الأرض هي الأُم التي تحنو على الإنسان بعد موته، وهي الجانب الرؤوم الذي لا يأنف من أن يستر الإنسان بعد موته وتحوّله إلى قذر تعافه النفس حتى وإن كانت من أقرب أقربائه. فالأرض لا تأنف منه ولا تعافه، بل إنّها تستره وتغطيه وتمنع انتشار الروائح النتنة التي تنبعث من جسمه. والجسم هذا لا يمثل شيئاً من الإنسان، بل إن الإنسان إنسان بروحه وفكره وعقله

وعلمه وأخلاقه.

ثم إنّ الأرض تضم في رحمها جنوداً هائلة تعمل على خدمتها، تلك هي البكتريا التي تفترس الجثث ذات الأمراض الموجودة داخلها فتقضي على كل وباء يمكن أن تسببه لو أنّها تركت دون أن تدفن، ولعادت الأرض بؤرة من بؤر المرض والوباء. وهذا جانب بسيط من جوانب عناية الأرض الأم بأبنائها.

دروس من الهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في تحديد مفهوم الهجرة وأقسامها

ترتبط الآية الكريمة بموضوع الهجرة النبوية الشريفة، والهجرة فيها دروس كثيرة وعبر ضخمة. وقد حدثت الهجرة بعد بعثة النبي ﷺ بثلاث عشرة سنة، حيث إن جبرئيل عليه السلام هبط على النبي ﷺ وأمره بها. وكان عمره الشريف عندما هاجر ثلاثاً وخمسين سنة. وقد سبقت هجرته الشريفة بعض القضايا، كما أن بعضاً منها وقع بعدها؛ فهنا مرحلتان: الأُولىٰ ـ أي مرحلة ما قبل الهجرة ـ وكانت مرحلة تأصيل العقائد، أمّا المرحلة الثانية ـ أي مرحلة ما بعد هجرته ﷺ ـ فكانت مرحلة تأسيس الدولة.

(١) الأنفال: ٣٠.

وقد سارع النبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة؛ لأن المشركين قد ألجؤوه إلىٰ ذلك، حيث إنهم عقدوا اجتماعاً لهم في دار الندوة ـ وهو ما يعبّر عنه باصطلاح اليوم «البرلمان» ـ لتدارس فكرة اغتيال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ولم تكن دار الندوة حينذاك تقتصر على الرجال فقط، بل اشترك فيها حتى النساء؛ حيث كانت أُخت أبي سفيان (عمّة معاوية) وزوجة أبي لهب عضواً فيها، وكانوا يتبادلون الآراء، فأجمع رأيهم علىٰ قتل النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه يشكّل خطراً عليهم. فهؤلاء أرادوا أن يحصّنوا أنفسهم منه بأحد طرق ثلاثة: فجماعة طرحت فكرة الحبس، وجماعة أُخرىٰ قالت: نبعده عنّا، وجماعة ثالثة قالت: نقتله. وطريقة القتل أن يقتلوه جميعاً بسيوفهم دفعة واحدة فيضيع دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو الفضل أن يطالبوا بدمه صلى الله عليه وآله.

فاستقرّ الرأي على الأخير وصار القرار أن ينفّذوه في الليلة التي هاجر فيها صلى الله عليه وآله، فهبط جبرئيل عليه السلام فأنزل الآية: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾. والمكر من الإنسان: الحيلة والتصرّف الغادر، لكنه من الله: إبطال الحيلة. وهو من باب المقابلة، فنحن نقرأ في القرآن: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾[1]، فهذه سيّئة من باب التقابل؛ جرياً علىٰ قاعدة العرب؛ حيث يقول شاعرهم:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[2]

فيسمون التقابل باسم الفعل. فهنا المكر من الله ردّ لمكرهم إلىٰ أعناقهم. ثم بيّن له جبرئيل عليه السلام أنه لابدّ أن يخرج ويبقي أحداً مكانه؛ حتىٰ يوهمهم أنه ما يزال

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. الأمالي (المرتضىٰ) ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦.

نائماً في فراشه، وقال له: «**إن الله يأمرك أن تضجع علياً مكانك**». فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام، وقال له: «**ياعلي، إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني**». فقال له الإمام عليه السلام: «**يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟**». قال: «**بلىٰ**». قال: «**روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا**»[1]. ثم أخذ سيفه واضطجع مكانه.

عمليّة الهجرة اشترك فيها أكثر من صحابي

وعملية الهجرة اشترك فيها عدّة أشخاص؛ فأبو بكر خرج مع النبي صلى الله عليه وآله وعلي نام في فراشه، وقسم من الصحابيّات هيأن طعاماً للنبي صلى الله عليه وآله، وآخرون هيّؤوا الراحلة. فهذا إسهام في العملية، فلابدّ من ذكر أي فضل أو إسهام لأي أحد في هذه العملية. وهذا هو التاريخ السليم، حيث تسلط فيه الأضواء علىٰ الأشخاص كافّة، وأما التسليط علىٰ جزء دون آخر فهذا عيب ونقص، وهذا ما نجده عند بعض المؤرّخين، وهو شيء يؤسف له. فالنبي صلى الله عليه وآله خرج بهذه العملية الجماعيّة في حين أن الضوء لم يسلط علىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولتقريب المعنىٰ بحدث آخر نذكر أن ابن كثير حينما يمرّ بحادثة الدار يذكر أنه عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[2]، أرسل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله خلف أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: «**اصنع طعاماً لأربعين رجلاً**».

فصنع لهم علي عليه السلام طعاماً، وكان فخذ جزور وعسّاً من اللبن، وكان عددهم أربعين فأصدرهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: «**لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل كنتم تصدقونني؟**». قالوا: بلىٰ،

---

(١) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.
(٢) الشعراء: ٢١٤.

لأننا ما عرفنا منك كذبة وأنت الصادق الأمين. قال: «**والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وافد إلىٰ قومه، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**».

فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فهبط القرآن الكريم ليقول: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ (١).

ولم تؤثّر تلك الواقعة في نفس النبي صلى الله عليه وآله أبداً، فكرّر الدعوة وأمر علياً عليه السلام بصنع الطعام ففعل، ووقف رسول الله صلى الله عليه وآله ليقول لهم: «**من منكم يتبعني علىٰ هذا ليكون أخي ووزيري وخليفتي من بعدي؟**». فلم يقم إلّا علي عليه السلام، وهو أصغر القوم سنّاً، يقول عليه السلام: «**قلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس. وفي الثانية قمت فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس**». وفي الثالثة أمسكه من رقبته فقال: «**هذا أخي ووزيري وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا**».

فخرج القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: إنه يأمرك بطاعة ولدك (٢).

لكننا نجده يقول: لقد أمسكه من عنقه وقال كذا وكذا، فهل يظن أنه بقوله يهدمه؟ الحقيقة أنه إنما يسيء لنفسه ولتاريخه. إن عندنا نجوماً مضيئة تعطي تاريخنا روحاً، فعليّ عليه السلام رجل صنعته السماء ولا يمكن أن تقضي عليه الأرض، فهذا عبد العزيز بن مروان يقول: ما بنت الدنيا شيئاً إلّا وهدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه (٣). يقول أحد الأُدباء:

سيدي كلما تلبّد أُفق ... وتجنّىٰ بعصفه الديجورُ

---

(١) المسد: ١، انظر مناقب آل أبي طالب ١: ٤٣.

(٢) شرح الأخبار ١: ١٠٧.

(٣) اختلف المؤرّخون في نسبتها لقائلها؛ ففي بحار الأنوار ٤٢: ١٩، أنه الوليد بن عبد الملك، وفي شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (البيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، أنه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

وتمادت صحائف خطّ منها قلم الحقد والهوىٰ والزورُ
فحباهم عطفاً وطيباً كمايفـ ـعل إن زج باللهيب البخورُ
وتمهّل أبا تراب فدون الـ ـشتم نحوك الفضائل سورُ
إن أشادت بك السما وأفاضت أيّ ضير لو سبّك المأجورُ

المبحث الثاني: إفرازات الهجرة الشريفة

وهكذا استدعى النبي ﷺ الإمام علياً عليه السلام فأضجعه مكانه، وخرج. ولنا أن نسأل: ما هي الخطوات التي خطاها رسول الله ﷺ؟ وهل كان فيها إيحائية وتدريب الناس؟ نعم كان كلّ ذلك ممّا يمكن إجماله بالآتي:

أولاً: وضع قاعدة إنسانية على مستوى الممارسة الفعلية

فالرسول الأكرم ﷺ بهجرته الشريفة يكون قد وضع لنا قاعدة إنسانية ربما احتجنا أن نمارسها في حياتنا العملية. فنحن عندما نزرع أرضاً ولا تنبت يحب أن ننتقل لأرض أُخرىٰ نزرعها، وهذا عين ما فعله النبي الأعظم ﷺ؛ حيث إنه بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يجنِ إلّا الحجارة، ولم يتّبعه إلّا قليل، فرأى أن التربة غير صالحة لبذر الرسالة ونموّها، وأن المناخ غير صالح، فلابدّ أن ينتقل إلىٰ مناخ آخر. ذلك أن الناس معادن؛ فبعضهم خسيس كالأرض البور، يقول القرآن الكريم: ﴿**وَكَانُوا قَوْماً بُوراً**﴾[1].

أي أنهم أرضية ليس فيها خير ولا تعطي أي نتيجة. فهؤلاء تذهب معهم كلّ الحلول سدى وإن تكرّرت عدّة مرّات. وفي مثل هذا الحال يجب تركهم: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾[2]؛ ولذا اضطرّ الرسول الأكرم ﷺ أن ينقل الدعوة من بيئة إلىٰ

(١) الفرقان: ١٨، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُورًا﴾ الفتح: ١٢.
(٢) القصص: ٥٦.

أُخرىٰ. وهذا سلوك إنساني يفعله المصلحون حينما يرون أنهم لم يفلحوا في مكان فيعمدوا إلى أن ينقلوا حركتهم إلىٰ مكان آخر.

فنبينا صلى الله عليه وآله أراد أن يؤصّل هذا المعنىٰ في نفوسنا، فقنّن لنا فكرة أن الناس كالأرض ليس لبعضهم القابلية على الإنبات، فانتقل بحركته الشريفة إلىٰ دار أُخرىٰ.

وهذا ـ ببالغ الأسف ـ ما حصل مع إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام، فلم تعطِه التربة حقّها، وكان مظلوماً، (نسأل الله أن يجعلنا ممّن يبجّل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحابه، لأنهم الواسطة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وآله للوصول إلىٰ عقائدنا)، لكن ينبغي ألّا نتعدّى القرآن الكريم حيث وضع لنا منهجاً في ذلك فقال: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[1]. فمن أصحاب النبي الأعظم صلى الله عليه وآله من يعبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿**خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً**﴾[2] وعبّر عن جماعة أُخرى بقوله: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**﴾[3]. وبهذا فإن منهجنا منهج القرآن لا يعدوه، وهو قد ذكر أنّه: ﴿**لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ**﴾[4] و﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[5].

فهذه أول خطوة للرسول صلى الله عليه وآله، وهي نقل الدعوة، وقد أثمرت في البيئة الجديدة ثمراً رائعاً؛ حيث إن الأنصار احتضنوها وقاموا بها.

ثانياً: أنها أصبحت مبدأً للتاريخ الإسلامي

فالهجرة الشريفة مثّلت منطلقاً جديداً في التاريخ: فكانت بداية التاريخ

---

(١) الواقعة: ١٠ ـ ١١.
(٢) التوبة: ١٠٢.
(٣) التوبة: ١٠١.
(٤) الحشر: ٢٠.
(٥) الزمر: ٩.

الإسلامي، وأصبح المسلمون يؤرّخون بالهجرة. وكان هذا الأمر بإشارة من الإمام علي عليه السلام [(١)].

والتاريخ هو عمليّة تقطيع الوقت، وهو مرتبط بالمعاملات الأساسية، فعندما يشتغل العامل يحدّد له وقت (٨) ساعات مثلاً، فلا يسرق منه حقّه: ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ [(٢)]. وعندما يعالج بعض الفقهاء قوله تعالىٰ: ﴿**وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ [(٣)] يقرّر أن الوقت الذي يحدّد للعامل لا ينبغي أن يزاد عليه، ولا ينبغي للعامل أن ينقص دقيقة منه؛ فكلاهما يحاسبان أمام الله. فالتاريخ إذن هو عمليّة تقطيع الوقت، والوقت بعد من الأبعاد، مثل الطول والعرض والعمق؛ فلذا لابدّ من المرور بالزمن وقطعه حتىٰ تضبط المعاملات والتصرفات ومواسم الزرع والعبادات: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ**﴾ [(٤)].

ثالثاً: إزالة العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي

فمنذ السنة الأُولى التي هاجر فيها نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله عمد إلى أن يزيل العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً. إن البعض من الناس يظن نفسه أفضل من الآخرين، وأنه سيّد على غيره وأنه عبقري. وهذه النظرة لا يقتصر وجودها على العرب فقط، بل تتعدّاهم إلى الأوروبيّين؛ فهي موجودة عندهم؛ إذ أنهم يركّزون على الجنس الأشقر، ويذكرون أقسام الدماء، ويقولون: إن الدماء الزرقاء أفضل من الدماء الأُخرىٰ، ويذكرون أن بعض الأُمم لم يرسل الله لهم نبيّاً؛ لأنهم ليس لديهم القابلية على استيعاب هذا الأمر. وهذا كلام غريب؛

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣، الكامل في التاريخ ١: ١١.

(٢) الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣.

(٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) البقرة: ١٨٩.

فالله تعالى هو ربّ العالمين، وهم كلّهم عبيد له، وقد ساوىٰ فيما بينهم وإن اختلفوافي الأجواء الحضارية والثقافية والقابليات الذهنية، فمعلوم أن هناك فرقاً بين إنسان وآخر.

مظاهر تطبيق مبدأ المساواة في الإسلام

ولتأكيد مبدأ المساواة جاء النبي الأعظمﷺ ببلال الحبشي وآخىٰ بينه وبين رويحة الخثعمي، وهو رئيس قبيلة من القبائل الكبيرة.. آخىٰ بين السيّد والمولى. لكنهﷺ آخىٰ بين المسلمين جميعاً وترك الإمام علياًعليه السلام وحده، يقولعليه السلام: «**جئت وعيناي تطفحان دموعاً، فقلت: يا رسول الله أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟**». قال: «**إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة**»[1]:

لو رأىٰ مثله النبيّ لآخا ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[2]

يقول عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطه	**صهره وابنُ عمّه وأخوهُ**
إن لله في معانيك سرّاً	**أكثر العالمين ما عرفوهُ**
أنت ثاني الآباء في منتهىٰ الدو	**ر وآباؤه تُعدّ بنوهُ**
خلق الله آدماً من تراب	**فهُوَ ابنٌ له وأنت أبوهُ**[3]

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

(٢) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠.

(٣) الغدير ٦: ٣٣٨.

فنبينا صلى الله عليه وآله أزال هذه العقبة من خلال هذا التحرك، وخلع من المجتمع هذا الشعور بالتفاضل، وأكده بلسانه فقال: «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»(١)، وقال: «**ليس لأحد علىٰ أحد فضل إلّا بالتقوىٰ**»(٢). فالذي يميّز أحداً على غيره هو التقوىٰ.

الهدف من إزالة العقبات النفسية

والمراد من نزع هذه العقبة من نفوس المسلمين أُمور، منها خلق عامل تكافؤ الفرص؛ فمن حقّ أي مسلم أن يحصل علىٰ عمل كمثل غيره دون فرق، وكذلك في مسألة الزواج؛ فليس هناك عقبة تقف بوجه أحد دون أحد؛ فالمسلمون تتكافأ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم(٣). وربما يقول البعض: هذه المثالية لا نجدها في كتب الفقه في باب الكفاءة؛ فمثلاً جاء أحدهم إلىٰ قاضي قضاة المسلمين وقال له: أشكو إليك فلاناً. قال: ماذا فعل؟ قال: شتمني وقال لي :سفلة. قال: ما عملك؟ قال: أنا حجام. فقال له القاضي: أنت سفلة سفلة سفلة. أي أنه شتمه كذلك، فلماذا هذا الشتم؟ وما نقص الطبيب الذي عنده مبضع ويمارس الجراحة؟

ولو رجعنا إلىٰ كتب الفقه عند الشيعة لوجدنا أنهم يقولون: المسلم كفء المسلم، ويستدلون بالآية الكريمة: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(٤)، أما المذاهب

(١) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.
(٢) الكافي ٢: ٣٢٩ / ٣، ٨: ٣٦١ / ٥٥١، مسند أحمد ٥: ٤١١، قريب منه.
(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.
(٤) الحجرات: ١٣.

الإسلامية الأُخرىٰ في باب الكفاءة فيعتبرها البعض منهم الثروة والبعض الآخر يعتبرها المهنة في حين أن بعضاً منهم يعتبرها القبيلة.

وهكذا توضع عقبات عديدة في سبيل إزالة التفاوت بين المسلمين، وهذا خطأ؛ فالنبي ﷺ جعل المسلمين إخوة تتكافأ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، وكان المسلمون يحملون هذا الشعور. فالنبي ﷺ آخىٰ بين المسلمين؛ بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين أنفسهم، وبين الأنصار أنفسهم، وآخىٰ بين الأسود والأبيض، وأعلن الوثيقة الشهيرة لحقوق الإنسان في حجة الوداع.

تزويج الإمام علي من فاطمة عليهما السلام

وفي السنة نفسها زوّج النبي الأعظم ﷺ ابنته فاطمة من الإمام علي عليهما السلام، حيث إن المفسّرين الشيعة يروون أن قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً**﴾[1] نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام[2]؛ لأنه اجتمع له مع النبي الأكرم ﷺ النسب والصهر. لكنه بما أن التاريخ قد كتب في أيام الأُمويّين، وبما أن هؤلاء كانوا لا يطيبون لهذا الرجل نفساً أبداً فقد وأد كلّ فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام. ومن ذلك أنه حينما جاء سليمان بن عبد الملك ـ وكان ولياً العهد ـ للحج ومرّ بالمدينة التقى أبان بن عثمان بن عفان، وكان من الأعلام الذين يكتبون التاريخ، فقال له: اكتب لي السيرة والتاريخ. فقال له: إنها مكتوبة عندي، وهي من أوثق المصادر والكتب. فلما قرأها سليمان، وجد فيها فضائل للأنصار في بيعة العقبة الأُولىٰ والثانية، وكفالة النبي ﷺ، والجهاد، فقال له: إن للأنصار فضائل في هذه الكتب؛

(١) الفرقان: ٥٤.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٢٩١، خصائص الوحي المبين: ٢٢٨.

فإما أن يكون آبائي قد غمط حقّ هؤلاء، أو أن هذا التاريخ كذب، فلا أقبله حتىٰ أرىٰ رأي عبد الملك فيه. ثم أخذ الكتب ومزّقها، ولمّا جاء إلى الشام ودخل على أبيه عبد الملك قال له: إن القصّة كذا وكذا، وقد مزّقت الكتب. فقال له: نِـعْمَ مـا صنعت. أي لا ينبغي أن تجلب شيئاً للشام يجب ألّا يُقرأ؟

وكلّ هذا الموقف المتشنّج من الأنصار لأنهم كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام، فكيف يكون الحال مع علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه؟ ولذا فإنهم كانوا إذا رأوا اسماً لعلي في التاريخ أحرقوا الأرض. ولكن هل استطاعوا أن يضيّعوا ذكـر الإمـام علي عليه السلام؟ طبعاً لا؛ لأن ما كان لله ينمُ.

وممن روىٰ أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام القرطبي، حيث إنه نقل عن ابن سيرين أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وهناك مـصادر أُخـرىٰ [1] تؤكّد ذلك.

زواج النور من النور تطبيق عملي لنظريّات الإسلام

ولعلّ هناك من يسأل فيقول: ما هي الخطوة الضخمة في هذا الزواج؟

إن هذه الخطوة الضخمة تتمثّل بأُمور منها:

أولاً: مسألة الكفاءة

أن فاطمة عليها السلام بنت رئيس الدولة.. بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يحمل رسالة السماء بيد ويحمل قيادة الأرض باليد الأُخرىٰ. فالرسول صلى الله عليه وآله جمع بين السلطتين السياسيّة والدينية، وكان الناس من الصحابة وأهل المكـانة والجـاه يـتسابقون لخطبة ابنته عليها السلام، وكان النـبي يـردّهم، ولم يـلبِّ أحـداً مـنهم، حـتى آذوه صلى الله عليه وآله،

(١) تفسير الثعلبي ٧: ١٤١، ١٤٢، شواهد التنزيل ١: ٥٣٨، زاد المسير ٦: ١٩.

فأخبرهم أنه سيشكو من يخطب إليه فاطمةعليها السلام إلى ربّه؛ ذلك أن المسألة ليست بيده. إلىٰ أن جاءه أمير المؤمنينعليه السلام وقد بدا عليه التعثّر والتلعثم والحياء، فقال له الرسولصلى الله عليه وآله باسماً: «**ما حاجة ابن أبي طالب؟**». فقالعليه السلام: «**ذكرت لي فاطمة**». فبشَّ له النبيّصلى الله عليه وآله، وقال: «**أبشر يا علي، فإن الله قد زوّجك بها في السماء، قبل أن يزوّجك بها في الأرض**»[1].

وعظمة هذه الخطوة أنهصلى الله عليه وآله خالف جملة من الأعراف الاجتماعيّة، فالناس كانوا قد عيّروا خديجة لأنها تزوّجت النبيصلى الله عليه وآله وهو الفقير اليتيم؛ حيث إنهصلى الله عليه وآله كان قد ربي عند أبي طالبرضي الله عنه .فخديجة صاحبة المكانة والأموال تلج مثل هذه الزيجة؛ ولذا فقد قاطعوها زمناً طويلاً، ثم يفعل الرسولصلى الله عليه وآله الشيء نفسه مع أمير المؤمنينعليه السلام وفاطمة، وبأي مهر؟ إن المهر الذي ساقه مروان بن الحكم لأمرأة بلغ (٥٠) ألف دينار، وساق مصعب بن الزبير مهراً قدره مليون، فقال أحد الشعراء:

أبلغ عميد بني الزبير رسالة ... من مؤمن لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل ... وبنات سادات الجنود جياعا

أمّا المهر الذي زوّج به النبيصلى الله عليه وآله فاطمةعليها السلام فكان أربعمئة وستّين درهماً، وقد اشترىٰ به بعض الصحابه طيباً، وسريراً مزمّلاً بشرائط النخل، وحصيراً هجريّاً، وستراً من صوف، ومخضبة من نحاس، وقعباً للّبن، وشنّاً للماء. فهذا هو كلّ الأثاث، ولمّا جاؤوا به طرحوه بين يدي رسول اللهصلى الله عليه وآله، والنبي يقلبه ويقول: «**بأبي وأُمّي قوم جلّ إنائهم الخزف**»[2].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٠٩.
(٢) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

ثانياً: القضاء على الشعور بالعار من تزويج البنت

والعرف الثاني الذي قضى عليه الرسول الأكرم ﷺ هو النظرة التي كان العرب ينظرون بها إزاء تزويج البنت، فالرسول ﷺ عاش في قلب الجزيرة العربيّة.. في مكّة.. في مجتمع يقول أحد الرؤوساء فيه وهو عقيل المري:

إنـــي وإن ســـيق إليّ المـهرُ ألفٌ وعـــبدانٌ وذودٌ عشـــرُ

أحبُّ أصهاري إلـيّ القـبرُ[1]

فهذا لا يطيق أن تُخطب ابنته إلىٰ رجل، في حين أن النبي الأعظم ﷺ يقود موكب عرس فاطمة عليها السلام بنفسه، وحتى أزواجه ﷺ اشتركن في زفاف فاطمة عليها السلام. وكان لأُم المؤمنين عائشة في هذه المناسبة هذه المقطوعة:

يـــا نســـوةُ اسـتترنَ بـالمعاجرِ واذكُـرْنَ مـا يحسنُ في المحاضرِ

والحـــمدُ للهِ عـــلىٰ أفـــضالِهِ والشكـــرُ للهِ العـــزيزِ القـــادرِ

سِـــرْنَ بـها فـاللهُ أعـلىٰ ذكـرَها وخَـــصَّها مِـــنْهُ بـــطُهْرٍ طـاهرِ

وكذلك كان لحفصة دورها فقالت:

فـــاطمةٌ خـــيرُ نســـاءِ البشـــرِ ومَـــن لهـا وجـهٌ كـوجهِ القـمرِ

زوّجكِ اللهُ فـــــتىً فـــــاضلاً أعـني عـليّاً خـيرَ مَن في الحضرِ

فسِـــرنَ جـــاراتـــي بـها إنـها كـــريمةٌ بـــنتُ عـــظيمِ الخـطرِ

وقالت معاذة (أُمّ سعد بن معاذ):

أقـــولُ قـــولاً فـــيهِ مـــا فـيهِ وأذكـــرُ الخـــيرَ وأُبـــديهِ

مـــحمّدٌ خـــيرُ بـــني آدمٍ مـــا فـــيه مِـــنْ كِـبْرٍ ولا تِـيهِ

بـــفضْلِهِ عـــرّفَنا رُشْـــدَنا فـــاللهُ بـــالخيرِ يـــجازيهِ

---

(١) الأمالي (المرتضى) ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٣٢.

ونـــحنُ مــعْ بــنتِ نــبيِّ الهُــدىٰ ذي شـــرفٍ قـــد مُكّـــنت فـــيهِ

فـــــي ذروةٍ شـــامخةٍ أصـــلُها فـــما أرىٰ شـــيئاً يـــدانـــيهِ

وأنشدت أُمّسلمة تقول:

سِـــرْنَ بـــعونِ اللهِ جـــاراتـــي واشكـــرْنَهُ فِـــي كـــلِّ حـــالاتِ

واذكــرْنَ مـــا أنــعمَ ربُّ العُــلا مِـــنْ دفْـــعِ مكـــروهٍ وآفـــاتِ

وسِــرْنَ مــعْ خــيرِ نســاءِ الورىٰ تُــــفدىٰ بـــعمّاتٍ وخـــالاتِ

يـــا بــنتَ مَــنْ فــضّله ذو العُــلا بـــالفَضْلِ مِـــنْه والرســـالاتِ

وكان زمام الناقة بيد سلمان الفارسي، وإلىٰ جانب الناقة عمار بن ياسر، وأبو ذر من وراء الناقة يسوقها، ورسول الله، وأصحابه أمامها، ثم يقف بباب الحجرة ويُقنع بالشيبة الكريمة إلى السماء ويقول: « **يارَبِّ إنّك باركت علىٰ آل عمران، فبارك علىٰ آل محمد** ». ويأخذ يد علي بن أبي طالب ويضعها بيد فاطمة ويقول: « **هذه وديعتي عندك** ». ثم يتلو قوله تعالىٰ: ﴿**رَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾[1]. ويخرج من عندهما وهو يدعو لهما[2].

فالنبي يري المسلمين بهذا الفعل أنه يسحق أعراف الجاهلية، فليعمل كل مسلم لأجل إنشاء الأُسرة السعيدة.

جور بعض من يدّعي الإسلام

ثم قالت الآية الكريمة بعد ذلك: ﴿**وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**﴾، أي أنها تقول للنبي:

---

(١) هود: ٧٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٩٣ ـ ٤٠٥، بحار الأنوار ٤٣: ١١١ ـ ١١٧، ١٢٥ ـ ١٢٧.

لا تدعُ عليهم؛ لأن رسالتك رسالة رحمة، وأنت رحمة للعالمين [١]،كما أن عندك من الخواصّ ـ مع أنك بشر ـ ما يمنعك من أن يضيق صدرك عليهم، أو تطلب من الله أن يؤدّبهم بالعذاب. ثم إنك بما أُتيت من دواعي الرحمة، وبما وهبك الله من ألوان العطف والشفقة تستطيع أن تتجاوز عن هؤلاء؛ ذلك أن الإنسان ضعيف حتّىٰ لو تظاهر بالقوّة والعجرفة، إذ أنه تؤثّر عليه طبيعة الحياة ومشاكلها كافّة.

والإنسان عندما يولد تمنحه البيئة كلّ خواصّها، فالذي يولد في الجزيرة العربية لا نتوقّع منه أن يتخلّق بأخلاق الدول الأوروبّية؛ لأن الذي يعيش في أوروبّا له قيمه الخاصّة، فليس عنده مثلاً حساسية تجاه أن تراقص أُمّه رجلاً. ولذا فإن علينا حينما نريد أن نعالج قضية ما أن نأخذ بنظر الاعتبار الظروف الموضوعيّة التي تكتنف تلك القضية، وعليه فالذي يسرق في عام المجاعة ليأكل لا تقطع يده؛ لأن الظرف أجبره على السرقة. وهكذا نجد أن بعض الناس عاشوا في ظروف أجبرتهم علىٰ نمط معيّن من السلوك، وألجأتهم إليه إلجاء، فالذي ينبغي ألّا نحكم عليهم هم ومحترفي الجريمة علىٰ حد سواء.

ثم إن على الإنسان أن يسأل نفسه حول ما إذا كان غيره قد نشأ في ظروف غير ظروفه، فلماذا يحكم عليه اعتباطاً ودون تروٍّ بالكفر والضلال؟

إن الذي يجب علينا هنا أن نأخذ بنظر الاعتبار ضعف الإنسان، فالأُطر الاجتماعية هي التي تملي عليه مستلزماته أحياناً وتصنعه، ومن هذا على سبيل المثال ما تفرضه بعض العادات والنظم القبلية عندنا؛ فعندما يريد الرجل أن يتزوّج فإنه يولم الولائم مهما كلّفه ذلك، وإن لم يجد يعمد إلى بيع كل شيء عنده من أجل هذا وإن أثّر على مستوى معيشته مستقبلاً. فهذا إطار اجتماعي، والإنسان ضعيف

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

أمام الأُطر الاجتماعية كافّة، ولذا فإن الواجب أن نأتي إليه من هذا المنطلق لتهذيبه دون أن نحكم عليه بأحكام قاسية.

فالآية تقول: ﴿**وَلاَ تَسْتَعْجِلْ**﴾؛ فهؤلاء ضعفاء أمام الإطار الاجتماعي، ولذا فإن النبي ﷺ كان كلّما اشتدّ عليه أذاهم قال: «**اللهم اهدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون**» (١). وفي أحد الأيام أخرجوه من مكّة بعد أن رموه بالحجارة من كلّ جانب إلىٰ أن وصل للطائف، وكان لعتبة وشيبة بستان يصطافان فيه، فرأيا النبي ﷺ، فالتفتا إلىٰ عبد لهم اسمه «عداس»، وقالا له: اجنِ من هذه الكرمة عنباً وأعطه إيّاه ـ وأشارا إليه ﷺ ـ وابتعد عنه؛ لئلّا يسحرك بكلامه. فجاء «عداس» بالعنب والماء، وأراد أن يضعه بين يدي الرسول ﷺ وينصرف، فرفع إليه النبي ﷺ رأسه وقال: «**عُداس هذا؟**». قال: فداؤك عداس، مامعرفتك باسمي وقد سمتني أُمي به؟ قال ﷺ: «**أوليس قد أسمتك أُمّك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟**». قال: بأبي أنت وأُمي، نعم والله هكذا أخبرتني أُمّي، فمن الذي أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: «**أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متي من نينوى بالموصل؟**». قال: وما أدراك بهذا؟ قال ﷺ: «**ذاك نبي وأنا نبي**». فقال عداس: واللّه إني لأرى عليك سيماء النبوّة. ثم انحنى على أقدامه يقبّلهما، وكان عتبة وشيبة يعاينان ما يفعل، فقالا: قد أفسد علينا غلامنا (٢).

ثم رأىٰ النبي ﷺ أن جسمه يسيل دماً، وأن ملابسه قد تلطّخت من دمه الشريف، فأخذ يمسح الدماء عن جسده، ثم رمق السماء بطرفه وقال: «**اللهم**

(١) الخرائج والجرائح ١: ١٦٤ / ٢٥٢، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٧٥.
(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ١٥:٢، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

رفقاً بهم؛ إنهم جهلاء لا يعلمون من أنا». فهذا هو الخلق العالي، وهو حاصل نتيجة معرفته ﷺ بأن هؤلاء ضعفاء أمام الأُطر الاجتماعية، فهم لا يعرفون النبي ﷺ.

ولا زال البعض إلىٰ الآن يسأل عن أُمور غاية في البداهة، وكأنه خارج الأُطر الاجتماعية، وعلماء الاجتماع يعرفون التقاليد بقولهم: التقليد هو قوة الإجبار، أي أنه يجبر الإنسان على الكون في وضع معيّن؛ فلذا قالت الآية الكريمة: ﴿**وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**﴾؛ فإنهم إن كانوا يصرّون علىٰ الخطيئة فإن الله سينتقم منهم، وإذا كانوا غير مصرّين عليها ــ وهذا محتمل ــ فمن الممكن أن يهتدوا؛ فلا تستعجل بالدعاء عليهم.

جزاء المجاهد في سبيل الله

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**﴾؛ فإن هؤلاء قد يمرّون بدور يصلون فيه إلىٰ نهاية المطاف، فيرون أنهم قد أضاعوا حياتهم، وأنها لم تكن سوى فراغ مقيت؛ حيث إنهم لم يملؤوها بما يتوجّب على الإنسان فعله، وربما التفتوا إلىٰ أخطائهم.

وحينما يتناول القرطبي هذا المقطع من الآية الكريمة يقول: «عن ابن عبّاس أنه إذا عسرت على المرأة الولادة تكتب هذا المقطع ــ ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**﴾ ــ وقوله تعالىٰ: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾[1] في صحيفة، ويكتب: الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ثم تغسل بالماء، ويعطى للمرأة فتشرب منه، فإنها تضع

---

(١) النازعات: ٤٦.

جنينها »[١].

وهذه الرواية واردة بالطريق المعلّق[٢]، أي روى فلان من الصحابة، من دون ذكر السند حتّىٰ يمكن أن يعرف أن الراوي ثقة أم لا. والعلماء لا يعملون بالحديث المعلّق.

وهذه الرواية أيضاً يرويها عكرمة، وهو إن لم يكن خارجيّاً فإنه يميل إلى رأي الخوارج. وكان معروفاً بالكذب؛ ولذا فإن علي بن عبد الله بن عباس ربطه بباب الكنيف ـ وقيل: على باب حشّ ـ فقالوا له: إن هذا صاحب أبيك! قال: إنه يكذب علىٰ أبي[٣]. ذلك أن عكرمة كان متأثّراً بالفكر اليهودي، غير أن بعض العلماء يعتمد على نقله.

أمّا بالنسبة للرواية فلاشك أن القرآن الكريم له تأثير إيجابي: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٤]، لكن الموضع الذي يثبت فيه الشفاء إنما يكون بالرواية الموثوقة، أوبآية قرآنية، كقوله تعالىٰ: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً**﴾[٥]. وهو ذو فائدة لكلّ النساء الحوامل والمراضع؛ لأنه غني بالمعادن؛ ولهذا فإن الفراعنة نحتوا الرطب في قبورهم وأهراماتهم. وقد أمر الله تعالى مريم عليها السلام أن تأكل من الرطب؛ لما يحويه من طاقة يمكن أن يوفّرها لها،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٢٢.

(٢) وكذا رواه مقطوعاً في مكارم الأخلاق ٣٧٩ ـ ٣٨٠، ٣٩٣ ـ ٣٩٤، وعنه في بحار الأنوار ٩٢: ١٢١، لكنه نسبه للإمام الصادق عليه السلام مع أن الطبرسي لم ينسبه له عليه السلام.

(٣) فتح الباري / المقدمة: ٤٢٥، الضعفاء (العقيلي) ٣: ٣٧٣، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٨٠، ميزان الاعتدال ٣: ٩٤، سير أعلام النبلاء ٥: ٢٣. ومرّ تحقيق كونه كاذباً في ج٣ ص٣١ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٤) الإسراء: ٨٢.

(٥) مريم: ٢٥.

كما أن له آثاراً صحّيّة إيجابية اُخرى.

كما أن الرطب والتمر يعتبران من الغذاء الذي أراده الله تعالى حتّىٰ للمجاهدين، وقد أرشد إليه النبيﷺ خلال غزواته، كان أحد الصحابة ـ وهو عمير ـ قد وضع في فمه تمرات حينما سمع النبي يقول: «**والذي نفسي بيده، لا يقاتل هؤلاء القوم أحد صابراً محتسباً ولا يهرب إلّا أدخله الله الجنة**». فقال عمير: بخٍ بخٍ، ليس بيني وبين دخول الجنة إلّا هذه التميرات. ثم ألقاها إلىٰ الأرض وانغمس في لهوات الحرب حتّىٰ قتل [1]. وهكذا كان طعام المجاهدين التمر.

إن الله تعالى قد وعد الشهداء بجنتين هما: جنّة الآخرة، وجنّة الدنيا التي هي الراحة النفسية والذكر الخالد. فالمجاهد الذي يعرف أنه يقاتل دفاعاً عن مبادئ الإسلام يخرج من الدنيا وفي نفسه جنّة، أما الذي يقاتل من أجل فكرة مجرمة فإنه يعرف أنه سيذهب إلىٰ الجحيم.

إذن الجنّة جنّتان: جنّة ذاتية، وجنّة موضوعية؛ ولذا فإن الله تعالى قد وعد الشهداء بهذا المعنىٰ.

فإذا نُفخ في الصُّوَر

وهو جمع صورة. وهذه القراءة فيها إشارة إلىٰ روايات كثيرة تنصّ علىٰ أن الله تعالىٰ قبل أن يبعث الخلائق من القبور، يرسم لهم صوراً جديدة داخل القبور. فالثابت عندنا أن المعدوم لا يعاد، أي أن الذي ينعدم لا يعاد نفسه؛ لأنه انتهىٰ، فهذا الهيكل للإنسان إذا وضع في القبر تحوّل إلىٰ ذرّات، فإعادته بالصورة نفسها

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٢٦، تاريخ الإسلام ٢: ٩١.

أمر غير ممكن، أما إذا كانت الإعادة بصورة مثلها فنعم. لكن الصورة التي يبعث عليها تختلف من إنسان لآخر؛ فبعض الناس يبعث علىٰ هيئة القردة، وهؤلاء هم النمّامون الذين ينمّون بين الناس ـ أي ينقلون الكلام بينهم ـ وهم أهل الفتنة: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[1]، وهم سرّاق القلوب. حينما تزوّج المأمون بوران ابنة الفضل بن سهل ـ وكان المأمون يحترمه ـ التفت إليه في صبيحة زواجه وقال: هل لك من حاجة؟ فإني أُريد أن أُكافئك؟ قال: بلىٰ. قال: ما هي؟ قال: أُريد أن تحفظ لي قلبك من السرقة. قال: ماالذي تقصده؟ قال: من النمامين الذين ينقلون كلاماً لم أقله؛ فيقلبوا رأيك عليَّ، فصاحب السلطان كراكب الأسد[2]، قد ينقلب عليه الأسد بين آونة وأُخرى. فقال له: لا، بل لك خمس أفريقيا[3].

فالنمام: سارق القلوب، وهو يحشر علىٰ هيئة القرد؛ لأن القرد إن تعطه تملّقك، وإن لم تعطه انقلب عليك. ففي رواياتنا أن أُناساً يتخبّطون في عرصات القيامة لا يقدرون علىٰ الحركة: ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[4]، وهؤلاء هم أكلة الربا[5]. فالذي يأكل الربا يتخبّط دون توازن في حركته؛ لأنه اعتدى علىٰ أقوات الضعفاء. ونحن الآن نعيش في عصر من الصعوبة أن يتخلّص فيه الإنسان من الربا؛ لأن المؤسّسات تكاد تكون كلها رِبوية، ونادراً ماتجد معاملة تخلو من الربا، مع أن الربا يمحق الثروة ويقضي عليها[6].

---

(١) القلم: ١١.

(٢) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام. نهج البلاغة / الحكمة: ٢٦٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٣، تاريخ بغداد ٧: ٣٣١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٠٩.

(٤) البقرة: ٢٧٥.

(٥) تفسير القمّي ١: ٩٣، ٢: ٧، ٢: التبيان ٣٥٨ ـ ٣٥٩، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٣٥٥.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ البقرة: ٢٧٦.

وقسم آخر يحشرون مقطوعي الأيدي والأرجل، وهؤلاء هم الذين يـؤذون جيرانهم؛ لأن الجار أحد أفراد العائلة. وكانت العرب تعتني بالجوار، وقـد أكّـد الإسلام على هذا. وقسم تقرض شفاههم، وكلما قرضت وفيت، وتسيل ألسنتهم قيحاً فيتقذّرهم أهل المحشر، وهؤلاء هم الخطباء الذين يأمرون النـاس بـما لا يأمرون به أنفسهم، فيأمرون الناس بالإصلاح والأمانة والعفّة وهم لا يتّسمون بها، وبهذا فإنهم يخدعون الناس [1].

فهذه القراءة (الصوَر) تعني أن الصورة ترسم للإنسان، ثـم يـنفخ فـيه الروح ويبعث علىٰ الصورة التي رُسمت له في القبر. والروايات بهذا المعنىٰ كثيرة.

وبناء علىٰ هذه القراءة فإنه لا توجد روح من الأرواح ليس لها ثقب في الصُّور (بوق ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام)؛ فلكلّ صورة ثقب، فإذا نفخ بعثت إليها الحياة.

عالم الأنساب

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾. إن عندنا عالمين، هـنا: عالم الدنيا وعالم الآخرة، والأنساب تلعب دوراً هامّاً وكبيراً في حياة الإنسان الدنيوية وعالمه الأرضي؛ حـيث إنـه يـحتاج لمـعرفة الأنسـاب حـتّىٰ يـعرف الخواصّ البشرية؛ فالذي يريد أن يتزوّج من أحد أو يزوّجه فـلابـد له وعـليه أن يعرف الكثير عن أصهاره الجدد، وهذا لا يكون إلّا بمعرفة عـلم الأنسـاب. وهذا ما عليه أوروبّا الآن؛ حيث إنه توجد فيها مكاتب مختصّة بـالزواج تـقوم بدراسة الأعراق مثلاً؛ فهذا من العرق الفلاني وهذا أصله هـندي أو أوروبّـي... فيدرسون خواصّ وخصائص هـذا الأمـر عـند التـزويج.. يـدرسون خـواصّ

(١) الأمالي (المرتضى) ١: ٥.

وخصائص المرأة وخواصّ وخصائص الرجل، ونسبة النجاح الممكنة والكائنة في زيجاتهم.

ونحن عندنا في تاريخنا النسّابون الذين يعرفون الأعراق، يقول نبيّنا الأكرم ﷺ: «**تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس**»[١]. وقال ﷺ لرجل أراد أن يرشده للزواج من امرأة: «**اظفر بذات الدين تربت يداك**»[٢]. أي اختر التي عندها دين وعفّة؛ لأنها تتوفّر على جانبي الاستقامة ومراعاة زوجها. فالأموال إلى نفاد، والجمال إلى أُفول وذهاب، وحتّىٰ لو أنها ماتت جميلة فإنها ستصبح بعد فترة وجيزة تحت التراب شيئاً لا يطاق النظر إليه، يقول الشريف الرضي:

ومسنَّدين على الجُنوب كأنهم ... شِرب تخاذل بالطلا أَعضاؤهُ

وجه كوجه البرق غاب وميضه ... صدرٌ كصدر العضب قل نضاؤهُ

حكم البلا فيه فلو نظرت له ... أعداؤه لرثت له أعداؤهُ[٣]

فحتىٰ أعداؤه لو رأته لرثت لحاله؛ حيث يأكل الدود عينيه، والرمل خدّيه، ويتحول الجسد إلىٰ ذرّات. فالجمال سريع الزوال، وكذلك المال، أمّا الحسب والنسب فإذا كان الاعتناء بهما لهدف أخلاقي معقول فلا بأس، أما إذا كانا طلبهما لأجل الكبرياء والعزّة فلا؛ لأنه حينئذٍ يصبح هدفاً حقيراً.

لقد تخلّت بعض الفتيات في مجتمعاتنا الآن عن قيمهن الدينيّة والاجتماعيّة الأصيلة، فرحن يتجمّلن ويخرجن شبه عاريات، وهذا ينمّ عن عقليّة ضحلة لا تقيم وزناً واعتباراً للأخلاق والقيم. إن مجتمعاتنا كانت عالية الخلق، لكننا

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

(٢) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(٣) ديوان الشريف الرضي ١: ٢٢.

أضعنا هذا، ومع ذلك تظل فرصة الرجوع إلى منابع تربيتنا قائمة وموجودة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[1]؛ فكتاب الله هو الذي يهذّبنا ويهدينا، وهاهو تعالىٰ يقول لنا: إن الأنساب إنما تراعىٰ في الدنيا حيث يكون الهدف من مراعاتها معرفةَ ماهيّة الأنساب أوّلاً، ومعرفة النفقات وكيفيّة صلة الأرحام ثانياً. فعندنا مثلاً خلاف بين فقهاء المسلمين فيمن تجب نفقته؛ فالأحناف يقولون: إن من يحرم الزواج منه تجب نفقته إذا كان صاحب النفقة غنياً ومحلّها معسراً، مثل ابنة الأُخت وابنة الأخ والجدّ وإن علا والابن وإن نزل. فالقرابة التي تنشر الحرمة عند الأحناف هي الموجب للنفقة بشرط كون المنفق موسراً والمنفق عليه معسراً كما ذكرنا.

في حين أن بعض المذاهب الأُخرى يرون أنها واجبة فقط في العمودين، وعند البعض الآخر أن واجب النفقة هو الأبوان المباشران والأبناء المباشرون، وعند بعض آخر أنه الوسط بين من يحرم الزواج منه وغيره. أمّا عند الإمامية، فهم الآباء وإن علوا، والأبناء وإن نزلوا، إضافة إلى أفراد آخرين ينصوّن عليهم في باب النفقات من كتبهم الفقهيّة. إذن لا بدّ من التعرّف علىٰ الأنساب.

وكذلك نعرف عن طريق الأنساب الرحم الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[2]، وهل إنهم الذين يتّصلون بالمرء عن طريق الأبوين، أو عن طريق أكثر من هذا؟ وأيضاً نعرف من الأنساب حرمة الزواج من المحارم (الأُمّهات والبنات والخالات والعمّات وبنات الأخ وبنات الأُخت)، فهؤلاء يحرم علىٰ الإنسان أن يتزوّج منهن.

وفي مسألة البنت مجال للمناقشة عند بعض الفقهاء؛ فالقانون مثلاً يعطي لبعض

---

(١) آل عمران: ١٠٢. (٢) النساء: ١.

حالات البنات مشروعية، فهو حينما يعتبر هذه المتولّدة بنتاً فهل يقصد بها تلك التي جاءت من عقد شرعي، أو أنها تشمل حتى تلك التي جاءت عن طريق معاشرة غير شرعية؟ وبعبارة أُخرى: إن البنت المتولّدة من معاشرة غير شرعية (الزنا) بين رجل وامرأة؛ هل تعتبر ابنة هذا الرجل، أم لا؟ [١] كل ذلك يعرف بالنسب، فهو ضروري حتّىٰ يُبتعد عن المحارم.

وهناك ضرورة لمعرفة الأنساب تقتضيها الحالة الاجتماعية، يقول الإمام أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن عليهما السلام: «**أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي بهم تطير، وأصلك الذي إليه تصير**» [٢]. فالعشيرة التي ينتمي لها المرء وإليها ينتهي إنما تُعرف عن طريق النسب. فالإنسان يحتاج لعشيرته؛ فهم من يقف معه في فرحه وألمه؛ وفي الحالات الاجتماعية التي تعتوِر عليه. وهذ الأمر يأخذ عند قبائل العرب بعداً أكبر؛ فإنها عامل أساسي في جميع متطلّبات حياة العربي. وهذا الحكم يستند طبعاً إلىٰ الوضع القبلي؛ فهناك إلىٰ الآن من لا زال ولاؤه لقبيلته، وإن كان عنده لون ولاء للقانون، فولاؤه لقبيلته يكون قبل ولائه له، ويظلّ قائماً بشكل أكبر لها.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... بالنائبات علىٰ ماقال برهانا

فإذا صاح: يا آل فلان. اجتمعوا إليه من كل فجّ. وقد ذكرت سابقاً أن القسم الفكري من الحضارة ليس من السهل تغييره، أما القسم المادّي فيمكن

---

(١) قد مرّ أن الشافعي لا يعطيها صفة البنت، فيجيز الزواج منها. انظر في هذه المسألة: المجموع شرح المهذب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، وقد نسبه في كتابيه هذين إلىٰ مالك أيضاً، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠.

(٢) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

تغييره بسهولة؛ فمن السهل استخدام الغاز وقوداً بدلاً من الحطب، في حين أن العادة التي تورث من الآباء والأجداد يتعذّر تركها، ويبرّر ذلك بأن الآباء والأجداد لم يكونوا علىٰ باطل أبداً. فالميراث الاجتماعي ليس من السهل تغييره؛ لأنه متأصّل في النفوس.

فالأنساب تلعب دوراً كبيراً في كلّ هذه المجالات؛ لأن أبناء النسب الواحد يجمعهم دم واحد، وعرف واحد، وانتماء واحد. وحال الدنيا أنها لا يمكن أن يستغني فيها الإنسان عن الأنساب، أمّا في الآخرة فهذا الأمر لا حاجة له؛ لأن الأنساب تسقط هناك، تقول الرواية: «**إذا بعث الله الخلائق يلتفت إليهم ويقول لهم: اليوم أضع أنسابكم وأرفع نسبي**»[1]. ومعنى «**أضع أنسابكم**»: أنه إذا كان جدّكم رئيس قبيلة أو من قبيلة متميّزة، فإنه لا قيمة له اليوم، فهذه الألقاب كلّها تُلغىٰ، ومعنى «**نسبي**»: التقوىٰ، فنسبه تعالى هم الذين يتّقونه ويطيعونه. فأنسابكم تتلاشىٰ إلّا النسب عند الله:

كفاك أنك من عِقْدٍ فرائده ... عاشوا كراماً وماتوا سادة نجبا
أبوهُمُ الدين والتقوىٰ قبيلتهم ... ما أنتجو عجماً يوماً ولا عُرُبا[2]

فالانتماء إلىٰ الله تعالى هو انتماء التقوىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[3]. فعنصر الكفاءة هنا قائم على أساس عادل هو التقوىٰ؛ فالمؤمن أخو المؤمن.

فإذا عرفنا أن النسب الحقيقي هو نسب التقوىٰ لزم أن نعرف بقناعة تامّة أن

---

(١) الفتوحات المكيّة ٢: ٥٨٧، ٣: ٥٣١، ٤: ٦٩، ٢٣٧، ٤١٥، شرح فصوص الحكم (القيصري): ٧٣٨.
(٢) ديوان المحاضر ١: ٨٤.
(٣) الحجرات: ١٣.

كثيراً من أسباب العجرفة والكبرياء والعنصرية يجب أن تتلاشىٰ. وممّا يـناسب المقام ذكره ما نقله المؤرّخون من أن المقداد رضي الله عنه خطب اُخت عبد الرحـمن بـن عوف، فانزعج عبد الرحمن من هذا، ولمّا سئل عن السبب أجاب بأنه لا يصح أن يخطب إليه المقداد اُخته؛ لأنه بهذا يتجرّأ عليه، وليس نسب المقداد كنسبه. فتألّم المقداد وجاء إلىٰ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهو مـتأثّر مـن كـلامه: قـال له النـبي صلى الله عليه وآله: «**مابالك؟**». فأخبره بالأمر، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**أنا اُزوّجك**». فزوجه من ضـباعة بنت عمّته، وقال له: «**أعطاك الله خيراً منها**» (١).

وخطب سلمان المحمدي رضي الله عنه بنت عمر بن الخطاب فتأثّر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له المغيرة: أنا أحتال لك في هذا الأمر. فقال عبد الله: وكيف؟ قال: سترى. ثم جاء المغيرة إلى سلمان رضي الله عنه وقال له: هنيئاً لك. فقال سلمان رضي الله عنه: علىٰ ماذا؟ قال المغيرة: هنيئاً لك بما حدث. قال: ما الذي حدث؟ قال: لقد تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقبل أن يزوّجك ابنته. فقال سلمان: وأنا أعرضت عن أمر هذا الزواج مادام عمر قد تواضع فيه. أي يريد أن يقول له: أنا لا اُريد الزواج الذي تكرمونني به وترفعونني لأجله (٢).

فهذا اللون من التفكير قائم علىٰ الفكر المتطرّف؛ فالإنسان بشكل عامّ تتحكّم به مواريثه الاجتماعية، يقول الحديث الشريف: «**كلّ سبب ونسب منقطع يـوم القيامة إلّا سببي ونسبي**» (٣).

والسبب هو الزواج والمصاهرة، أمّا النسب فما يـنتهي إليـه الإنسـان. وقـد

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٣: ١٦٢، الإصابة ٦: ١٦٠ / ٨٢٠١.

(٢) أحكام القرآن: ١٦١، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٤٧، وليس فيهما ذكر للمغيرة، بـل فيهما أن عمر نفسه ردّه ثم عاد، فأبى سلمان.

(٣) الخصال: ٥٥٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٦٤.

استشهد الخليفة الثاني بهذه الرواية عندما جاء يخطب أُم كلثوم بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وكان الموقف حسّاساً جدّاً. إن على المرء أن يقرأ في وقت فراغه، ومثل هذا الموضوع الحسّاس قد تناولته عدّة بحوث منها ما كتب في مجلة (تراثنا) الصادرة عن مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام في أعدادها التاسع والعشرين والثلاثين والحادي والثلاثين؛ فقد تناولت هذه الأعداد الثلاثة قضيّة زواج عمر ابن الخطاب من أُمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام)، وهل إنه صحيح أم لا، وهل فيه نقاش أم لا.

وفي هذا المقام أردت فقط أن أُلفت النظر إلىٰ رواية: «**كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي**».

وانطلاقاً من المحافظة علىٰ الأنساب في الدنيا كلّف الإمام علي عليه السلام أخاه عقيل بن أبي طالب ـ وكان نسابة ـ بأن يختار له زوجة بما عنده من قابلية وقدرة في علم الأنساب، وقال له: «**انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب؛ لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطفّ كربلاء**». وهو عليه السلام بهذا إنما يمشي مع العرف الاجتماعي، فقال له عقيل بعد تأمّل: عليك بفاطمة بنت حزام الكلابيّة؛ فليس في العرب من هو أفرس وأفتىٰ من أهلها [(١)].

وأهلها هم الذين افتخر بهم لبيد الشاعر في مجلس النعمان بقوله:

نحن بنو أُمّ البنينَ الأربعهْ	**ونحن خيرُ عامرِ بنِ صعصعهْ**
الضاربون الهامَ وسطَ الخيضعهْ	**والمطعمون الجفنةَ المدعدعهْ** [(٢)]

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، وليس فيه: «يكون ناصراً...».

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨.

ولم يجرؤ أحد أن يردّ عليه.

وقد تزوّج الإمام علي عليه السلام هذه المرأة، فوجدها علىٰ درجة كبيرة من الأخلاق والتهذيب، وقد ولدت له أولاداً أربعة هم: العباس وجعفر وعثمان وعون، وقد استشهدوا جميعهم في الطفّ مع الإمام الحسين عليه السلام. وكانت فاطمة (رضي اللّه تعالى عنها) في غاية الرعاية للحسنين عليهما السلام، وكان موقفها يوم الطفّ يبرهن علىٰ هذا المعنىٰ. والذي استأثر بمكانة كبيرة عندها من بين أولادها هو العباس عليه السلام، وكان عمره (٣٤) سنة يوم الطفّ، وكان متزوّجاً من لبابة بنت عبد الله بن العباس، فولدت له عبيد الله والفضل الذي كانت أُم البنين (رضي الله تعالى عنها) تخرجه معها إلىٰ البقيع لتندب أبناءها تلك الندبة التي تفطر القلب وتفجّر الدموع:

لا تدعونّي ويكَ أُمّ البنينْ ... تذكّريني بليوثِ العرينْ

كانت بنون ليَ أُدعىٰ بهم ... واليوم أصبحت ولا من بنينْ

أربعة مثل نسور الربىٰ ... قد عالجوا الموت بقطع الوتينْ

يا ليت شعري أكما أخبروا ... بأن عباساً قطيع اليمنْ[1]

فتجلس عند قبور أولادها وتندبهم، وكان من جملة من يستمع إلىٰ ندبها مروان بن الحكم، فكان يبكي علىٰ بكائها. ثم بعد ذلك تقوم لتدور حول محاريب أولادها، فتراها وهي خالية.

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

كيف نتفاعل مع المحرّم؟

فما الذي ينبغي أن يكون لدينا في هذا الشهر من التفاعل والتأثّر؟ إن هذا الشهر يرفع لنا شيئين يجب اغتنامهما:

أولاً: أنه يرفع دماء أبي الأحرارعليه السلام

فهذا الشهر يرفع لنا دماء الإمام الحسين عليه السلام. تقول الرواية: «**إذا هلّ هلال المحرم نشرت الملائكة قميص الحسين عليه السلام وهو مخضّب بالدم**»، يقول الإمام: «**نحن وشيعتنا نراه بالبصيرة لا بالبصر، فتجري لذلك دموعنا**». حيث إننا نسمع من وراء ذلك الدم، «**والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد**»(١).

فهذا الشهر يوحي إلينا التسليم بقضاء الله وقدره، لأننا نرى ببصائرنا الإمام الحسين عليه السلام يقول: «**لك العتبىٰ يا ربّ، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ**»(٢). ولذا فإن علينا ألّا نضيع دمه الشريف الذي أراقه من أجل الإسلام وأجلنا.

ثانياً: أنه يجسّد لنا المثل

فإذا مرّ بنا هذا الشهر تجسّد لنا الإمام الحسين عليه السلام، بما جسّد من المثل والصبر والبطولة، يقول عبد الله بن عمّار: واللّه لقد رأيت الحسين عليه السلام يوم العاشر، فما

---

(١) شرح الأخبار ١٤٤: ١٤٤، مثير الأحزان: ٢٧، تاريخ الطبري ٤: ٢٥٣، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٤٨، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٤.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال تشدّ عـليه فـيشدّ عليها، فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مـركزه فيتّكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: «**لا حول ولا قوة إلّا بالله**»[١].

ثالثاً: أنه يجسّد الارتباط برسول الله ﷺ

وكذلك معاني الارتباط برسول الله ﷺ والوفاء له؛ حيث إننا نواسـي رسـول الله ﷺ بأبنائه وبواقعة الطفّ.

كما أن المحرم يحمل لنا الحزن واللوعة والألم، ويظلّ الطفّ ماثلاً أمام أعيننا، وتبقى كربلاء تعيش في نفوسنا وتشدّنا إلىٰ الإمام الحسـين عليه السلام شـدّاً. كـلّ ذلك يعكسه لنا المحرم، فينبغي علينا ألّا نهدره، وكان هذا المعنى ينعكس علىٰ أهـل بيته، وبالخصوص اُخته زينب، فكلّ أوّل يوم من المـحرّم كـانت تـعيش الآلام والأحزان، وتدور من بيت إلىٰ بيت، ومن اُسرة إلىٰ اُسرة:

يـابه مـا بـعيني دمـع واسجيك بـنفسي يـبو السـجّاد اداويك

عدالة الصحابة بين العقل والعاطفة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحَاً قَرِيباً﴾[٢].

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٢) الفتح: ١٨.

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: منهجنا العلمي في تقييم الصحابة

هذه الآية الكريمة فيها مضامين عدّة، وهي ترتبط بموضوع مهمّ من مواضيع الساحة الإسلاميّة، وهو موضوع يرتبط بمشاعر كل مسلم؛ لأنه يتعلّق بالواسطة بيننا وبين المصدر الثاني من مصادر التشريع، بل بين المصدرين المهمين: الكتاب والسنّة. وأعني به موضوع عدالة الصحابة، الذي يحتاج إلى كثير من التجلية؛ لكثرة ما قيل فيه ووضع من التقوّلات والادّعاءات التي لا نصيب لها من الصحة. ومن يحرص على أن ينظّف الساحة الإسلامية ويكتسح ما بها من ألغام، فعليه أن يعطي هذا الموضوع حقّه من البحث؛ ليزيل عنه الكثير من الغبار والشبهات العالقة به، والمتغلغلة في أدمغة الناس.

وقبل كل شيء لابدّ من أن ننوّه إلى أننا لن نأنف من أن نتبرك بتراب أقدام الصحابة الطاهرين الأبرار الأوفياء الذين حملوا الكتاب والسنّة، وامتلأت قلوبهم إيماناً ورحمة [١]. وإذا كان هناك تخبّط حاصل حول نِقاط معيّنة ساخنة، أو حول شراذم معيّنة، فإننا نتّبع معهم أُسلوب القرآن الكريم في تحديد مفهومي التزكية والعدالة. ومن يملك أدنى مقدار من الإدراك والسعة والاطّلاع على العلوم الإسلامية وطلب الحقيقة فإنه سيجد أن علماء الدراية عندنا وحتى كتّابنا لا يخرجون في هذا الموضوع عن إطار منهج القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. وهذا ما نجده واضحاً بيّناً في الكتب المعتبرة الموثوقة عندنا في تقييم الصحابة، وسوف نمر بهذا المعنى في هذا المبحث، وما يليه من مباحث إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) كسلمان المحمّدي وأبي ذرّ والمقداد وحبر الأُمّة وغيرهم من أمثالهم.

في سبب نزول الآية الكريمة

نزلت هذه الآية الكريمة في واقعة الحديبية، وكانت هذه الواقعة سنة ست من الهجرة المشرّفة؛ إذ خرج النبي الأعظم ﷺ ومعه (١٤٠٠) صحابي، فلما وصل إلى الحديبية ظنّت قريش أنه ﷺ خرج لقتالهم، في حين أن الأمر لم يكن كذلك، فالنبي ﷺ أرسل يخبرهم بأنه لم يجئ مقاتلاً، وإنما جاء معتمراً وأصحابه، وليجدّد العهد بالبيت ويعظّموه، ولينحروا الهدي عنده ويرجعوا. لكن قريشاً صدّوه، وقالوا له: لا تبرح المكان الذي نزلت فيه. ثم حشدوا جيشهم، وجعلوا خالد بن الوليد قائداً عليه، ورابطوا هناك استعداداً لما يطرأ.

وتوالت بينهم الرسل، فهناك من عزّ عليه أن تُسفك الدماء، فقام بدور الوسيط لحسم الأمر، وكان أحد الوسطاء بين الطرفين عروة بن مسعود الثقفي جدّ علي الأكبر لأُمّه. وكان آنذاك لم يُسلم بعدُ، فهو قد أسلم سنة (٩) هـ. وكان في تلك الأيام مع قريش، لكنه كان من العقلاء الناضجين ذوي المكانة في قريش. فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: علام هذا الجمع؟ فبيّن له النبي ﷺ أنهم لم يأتوا لحرب ولا لقتال، وإنما جاؤوا زائرين لهذا البيت الحرام، ولينحروا الهدي ويرجعوا.

فعاد عروة إلى قريش وأخبرهم بقول النبي ﷺ، فقالوا له: ماذا رأيت هناك؟ قال: والله لقد وفدت إلى الملوك ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه كما يعظّم أصحاب محمد محمداً. ووالله إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها وأجمعوا أمركم [١].

---

(١) صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

ولأن عثمان بن عفّان كان قريباً لأبي سفيان، فقد بعث به رسولنا الأكرم ﷺ إلى قريش ليرى رأيهم فيما قاله لعروة، فاحتبسته قريش وانقطع خبره، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**». ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾، فسميت «بيعة الرضوان»؛ لما حصل فيها من رضا الله تعالى على المؤمنين، و«بيعة الشجرة»؛ لوقوعها تحت الشجرة[1].

فلما رأت قريش إصراره على هذا الأمر خضعوا له وقالوا: نصالحك على أن ترجع هذه السنة، وتعود في السنة الآتية وتدخل إلى مكّة، ولك فيها ثلاثة أيام، تسعى وتطوف وتعتمر ثم ترجع. فقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين: «**هلم اكتب بيننا هذا**». فأتى بورقة وكتب: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾. فقالوا له: لا تكتب هذا، بل اكتب: باسمك اللهم. فقال له النبي ﷺ: «**اكتبها كما يريدون**». ثم كتب عليه السلام: «**هذا ما تعاهد عليه رسول اللّه محمد بن عبد اللّه...**». فقاطعه سهيل قائلاً: مهلاً، لو كنّا نعرف أنك رسول الله لأطعناك ولما خرجنا لقتالك، اكتب: «محمد بن عبد اللّه».

فطلب الرسول الأكرم ﷺ من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكتب ذلك فتلكّأ عليه السلام في ذلك؛ حيث إنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم تطاوعه نفسه الشريفة أن يمحو صفة الرسالة عن النبي الأكرم ﷺ ويكتب اسمه فقط، يقول عليه السلام: «**فقلت**[2]: **هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، لا والله لا أمحوها. فقال ﷺ لي: أما إن لك مثلها**،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٢) مخاطباً سهيل بن عمرو.

ستأتيها وأنت مضطرّ»[(١)].

وفعلاً مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بهذه التجربة نفسها، وذلك في واقعة الحكمين في صفّين، فقد أجبره عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وأشباههم على ذلك [(٢)]. والتاريخ يحدّثنا أن معاوية قد حاول الفرار وتهيّأ له، فجاء إليه من أمسك ركابه قائلاً: إلى أين، وقد قتل عشرات الآلاف من أجلك؟ يقول معاوية: فتذكّرت عند ذاك أبيات ابن الإطنابة:

أبت لي عــفّتي وأبــى بــلائي	**وأخذي الحـمدَ بـالثمن الربـيحِ**
وإقدامي على المكـروه نـفسي	**وضربي هامةَ البـطل المشـيحِ**
وقـولي كـلّما جشأت وجـاشت	**مكانك تحمدي أو تستريحي** [(٣)]

ثم قال معاوية لعمرو بن العاص: ما فـي مـخبأتك؟ قـال: مـرهم فـليرفعوا المصاحف. فلمّا رفعوها تغيّر الأمر.

فكان النبي صلى الله عليه وآله يذكّر الإمام عليه السلام في الحديبية بقوله: «**أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ**».

وهكذا وقّع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الوثيقة، وحلّ وأصـحابه مـن إحـرامـهم،

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ ـ ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧ / ٨٥٧٦، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢. وقد مرّ فـي ج٢ ص٢١٠ ـ ٢١١ / الهامش: ٢ من موسوعة محاضرات الوائلي تفسير ابن حجر رفض أمير المؤمنين عليه السلام محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول صلى الله عليه وآله إيّاه بذلك بقوله: وكأن علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتّماً، فلذلك امتنع من امتثاله.

وكذلك فسّر قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»، بقوله: يشير صلى الله عليه وآله إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٣٨٦.

(٢) انظر ذلك مفصّلاً في ج٢ ص٢١٠ ـ ٢١١ / الهامش: ٢ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٣) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

ونحروا وحلقوا ورجعوا. ثم انتظروا إلى السنة القابلة، فذهبوا إلى مكّة، وبقوا فيها ثلاثة أيام، ودخلوا الكعبة وهم يهلّلون ويكبّرون. وهذا هو السبب في نزول هذه الآية.

والمهم في القصّة أن النبيﷺ لما أصرّ على القتال رضخ المشركون، وطلبوا الهدنة، وقال الصحابة للنبيﷺ: نبايعك على القتال والموت. وكان النبي تحت شجرة فبايعوه فنزلت الآية. فكان الناس يقولون: بايعنا رسول اللهﷺ على الموت.

المبحث الثاني: مناسبة الحكم والموضوع

تقول الآية الكريمة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، ولدينا هنا ما يسمىٰ: الحكم والموضوع، فلكلّ موضوع حكم يرتبط به. وهذا الارتباط تارة يكون على أساس أن الموضوع صفة له، وأُخرى لا يكون كذلك. ولتقريب المعنى سنعوم في أجواء هذا المقطع من الآية الكريمة، فالرضا في قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ حكم موضوعه المؤمنون. والمؤمن هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه الإيمان. وهذا مثله مثل النجّار الذي هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه مهنة النجارة أومهارة النجارة.

وهنا نلاحظ أن الرجل موصوف، وأن الإيمان صفة زائدة عنه. وعليه فإن الله تعالى عندما يقول: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أي رضي عمّن بايعك من الصحابة المتّصفين بصفة الإيمان والاعتقاد، والتفاني في طاعة الله. وهذا اللون من الصحابة ـ بلا شك ـ منارة هدى لنا، وطريقنا إلى القرآن والسنّة النبوية الشريفة، وهم مجدنا، ونحن بهذا اللحاظ نقدّسهم ونحترمهم.

لكن عندما يُنزل القرآن سورة كاملة باسم سورة (المنافقون)، وعندما ينزل في القرآن: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**

سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(١)، كما يعطي صفات متعدّدة في القرآن تحدّد جماعة خاصّة، منها أنهم لم يتّصفوا بصفات الصحبة ولو أنهم عاصروا النبي الكريم ﷺ، فكيف يمكن أن يكون الموقف من الصحبة والصحابة؟

إننا نقرأ في (صحيح البخاري)(٢) و(صحيح مسلم)(٣) والصحاح الأُخرى(٤) أن النبي الأكرم ﷺ يقول: «**ألا وإنه يجاء برجال من اُمّتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ، اُصيحابي. فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾(٥). فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم**».

وهذا كما يرى القارئ ليس من كتب الشيعة، بل هو من كتب السنة، ومن أراد المزيد فليرجع فقط إلى روايات الحوض في الصحيحين، وأنا على استعداد لأن أعطيه عشرات المصادر حول هذا الموضوع. فهو موضوع حسّاس جداً، لكنّي لا اُريد أن أضع يدي على جراحنا فتؤلمنا، غير أني آمل أن يكون المسلم واعياً، وأن نفكّر جميعاً بعقولنا لا بآذاننا.

إن القرآن ينزل آيات فيمن اتّصف بصفة الصحبة، ومفهوم الصحبة عند إخواننا السنّة ينطبق على كل من يرى النبي ﷺ ولو لساعة واحدة، فمن رأى النبي الأكرم ﷺ كذلك أصبح ممّن لا يمكن أن يتطرّق إليه الريب أو النقد. وهذا كلام

---

(١) التوبة: ١٠١.

(٢) صحيح البخاري ٥: ١٩١ ـ ١٩٢، ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٧: ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٨: ٨٧.

(٣) صحيح مسلم ١: ١٥٠، ٧: ٦٧، ٦٨، ٨: ١٥٧.

(٤) انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، سنن ابن ماجة ٢: ١٠١٦ / ٣٠٥٧، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٣٨ ـ ٣٩ / ٢٥٣٩، ٥: ٤ / ٣٢١٥، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥.

(٥) المائدة: ١١٧.

بعيد عن دائرة المسؤوليّة، ولا يمكن أن نعيره اهتماماً؛ لأنه ليس كلام من يحترم عقله. فالله تعالى أعطانا المقاييس وأمرنا أن نتّبعها. والنبي صلى الله عليه وآله نفسه أشار إلى أن الناس فيهم الصالح وفيهم الطالح، وليست هناك ميزة استثنائيّة ألّا للمعصوم، أمّا غيره فيمكن أن يخطئ ويمكن أن يصيب. وكل ما في الأمر أننا إذا مررنا بأحدهم فالواجب يقتضي حينئذٍ أن نقيّمه أولاً، لا أن نشتمه أو نسبّه حتى يتبين أنه أهل لذلك.

والتقييم الذي نعنيه هنا هو التقييم الموضوعي، وهو أن يُذكر للصحابي ما له وما عليه من الفضائل والإنجازات والمقام المحترم، أو الأخطاء التي ارتكبها والانحراف الذي أصابه، أمّا الشتم فلا، فهو غير وارد في قاموس النقد الموضوعي. وليس الشتم من شأننا، والذي يشتم غيرنا لا نحن، لأن السباب والشتم يؤذيان مشاعر كلّ مسلم. ونحن نتقرب إلى الله بحبّ الصحابي الذي تنطبق عليه صفات الصحبة، وهذه كتبنا بين أيدي الجميع. أما إذا قيّمنا فإننا إذا رأينا في البين انحرافاً، فحتماً سنقول: إن هناك انحرافاً يترتب عليه جزاء.

وهذا ليس بعيداً عن القرآن الكريم؛ ذلك أنه مدح أقواماً بقوله: ﴿**وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[1] وذمّ آخرين بقوله: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[2] وهذا هو منهج القرآن: فـ ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾[3]، و ﴿**لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ**﴾[4].

---

(١) التوبة: ٩٩.

(٢) التوبة: ٩٧، وقال: ﴿وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة: ٩٨.

(٣) الشورى: ٧. (٤) الحشر: ٢٠.

وهذه هي المقاييس التي يجب أن نتّبعها، أمّا الشتم فقد جاء من غيرنا، ومن هذا مثلاً ما يرويه المؤرّخون من أنه كان في أيام هشام بن عبد الملك رجل يدعى جنيد بن عبد الرحمن من أهل حرّان، وهو من الرجال المحترمين المرموقين، والرؤساء المعروفين، وكان الأُمويّون يحترمونه، وكانت له حصّة من العطاء من بيت المال يأخذها كلّ سنة. يروي جنيد نفسه فيقول: كنت في طريقي إلى الشام يوماً لأستلم عطائي، وكان دخولي يوم جمعة، فدخلت إلى مسجد احتشد فيه الناس ليصلّوا الجمعة، فلمّا فرغت من الصلاة صعد الخطيب المنبر، ووعظ فاتّعظنا، وذكّر فتذكّرنا، ونصح فانتصحنا. ثم لمّا أراد الختام قال: دعونا نختم صلاتنا وموعظتنا بشتم أبي تراب.

فراحوا يشتمون علياً شتماً ذريعاً، فلما فرغوا سألت أحدهم: من أبو تراب هذا؟ فقال: إنه علي بن أبي طالب. قلت: زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: أبو الحسن والحسين عليهما السلام؟ قال: نعم. قلت: أول القوم إسلاماً؟ قال: نعم. قلت: أهو صاحب السيف المقاتل الذي ذبّ عن الإسلام، ثم استشهد في سبيل مبدئه؟ قال: نعم. قلت: فما المبرّر لشتمه إذن؟

ثم قمت إلى الخطيب فأمسكته من وفرة شعره، وجعلت أضرب برأسه الجدار حتى أدميته، فصاح: خذوني إلى الخليفة. فأخذنا الجلاوزة، فلما وقع بصر هشام عليّ قال: مرحباً بك أبا عبد الرحمن، متى قدمت؟ قلت: أمس. قال: ما الخبر؟ فأخبرته الخبر وقلت: لو أنني سمعت من يشتم صهرك وابن عمّك وأبا سبطيك لما تركته، وهذا يشتم صهر رسول الله ﷺ. فقال هشام: صدقت يا أبا عبد الرحمن، وعليك ألّا تتأخّر، خذ عطاءك واذهب إلى أهلك.

لقد أحسّ هشام أن هذا الرجل يشكّل عنصر خطر عليه، وهذا هو شأن الكثير من الدول الآن، إذ أنها تعتبر الإنسان الواعي خطراً عليها.

وقد جعل الأُمويّون هذا الأمر سنّة شاب الصغير وهرم الكبير عليها، حتى إنها وصلت إلى الصلاة، وكان معاوية يقنت في الصلاة ويشتم أمير المؤمنين عليه السلام، ويتقرّب إليه البعض فيقول: وأزيدكم حسناً وحسيناً، ثم يأتي عمرو بن العاص فيقول: وأزيدكم أُمّهما فاطمة. والمسألة معروفة، فالأمد الذي شتم فيه علي عليه السلام على المنبر ثمانون عاماً. بل إن البعض كان يشتمه وهو في حياته، وكان بوسع الإمام عليه السلام أن ينتقم منه، لكنه على العكس من ذلك كان لا يبخسه في عطائه. يقول أحد الأُدباء:

سيّدي كلّما تلبّد أُفق	وتمادى بعسفه الديجورُ
وتمادت صحائف خطّ منها	قلم الحقد والهوى والزورُ
لا ح بالأُفق من رؤاك جبين	بعض أوصافه السنا والعبيرُ
الجبين الذي أحاطوه شتماً	وإلى الآن بالجيوب الكثيرُ
فحباهم طيباً وعفواً كما يفـ	ـعل إن زجّ في اللهيب البخورُ
وتمهل أبا تراب فدون الـ	ـشتم من حولك الفضائل سورُ
إن أشادت بك السما وأفاضت	أي ضير لو سبّك المسعورُ

ويقول آخر:

وما مِدحتي تُوليك فخراً وإنما	أردّ بإطرائي عليك الطّواريا
إذا الملأ الأعلى تحدّرَ بالثّنا	عليك فما شأني وشأن ثنائيا[1]

---

(١) الأبيات للشيخ حميد السماوي. علي في الكتاب والسنّة والأدب ٥: ١٤٩. وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمداً	إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا
وإذا استطال الشيء قام بذاته	وكذا صفات الشمس تذهب باطلا

نهج الإيمان: ٦٦٩.

المبحث الثالث: فرى القوم على الشيعة

وقد كان هذا المنهج من شتم علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام هو السائد عند الأُمويّين. وليس هذا فحسب، وإنما عمدوا على أيدي صنائعهم ووعّاظهم إلى تزييف وتكذيب كلّ منقبة له، ومحوها من الوجود. وإلى الآن لم تنتهِ آثار هذه المسألة، فعندما تدخل إلى مكتبة لتقرأ التفسير أو التاريخ أو الحديث، فستجد ركاماً هائلاً من الشتائم في قواميس الكثيرين الذين لا يتركون كلمة نابية أو جارحة أو فيها سباب إلّا ويقذفون بها من يوالي علياً عليه السلام.

فرى ابن تيمية

الأُولى: أن كتب الصحاح لم تنقل عن راوٍ منهم

وكمثال على هذا أنقل لك ما ينقله ابن تيمية عنا حيث يقول: «ليس في فرق الأُمة فرقة أكثر كذباً واختلافاً من الرافضة، فهم أكذب الناس؛ ولذا لم تروِ كتب الصحاح عنهم رواية واحدة»[1].

هذا مع ملاحظة أن الكذب عندنا يفطر الصائم إذا كان كذباً على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله، لكن لنرَ من من هو الكاذب منّا، وهل صحيح أن كتب الصحاح لم تروِ عن الشيعة؟ كلا، إن العشرات من رواة هذه الكتب من الشيعة.

ومن أراد المزيد فليرجع إلى (الفصول المهمّة) لعبد الحسين شرف الدين، والجزء الثالث من (الغدير).

والذي تحت يدي الآن منهم (٩١) راوياً، أما المصادر الأُخرى فتروي أنهم أكثر من هذا. فهل تبيّن من الكاذب الآن؟

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥: ١٨٤.

الثانية: تمثيل عائشة بالشاة

وكمثال آخر على الكذب على الآخرين ما يدّعيه ابن تيمية أيضاً حيث يقول: «إن الرافضة يمسكون نعجة ويطعنونها، ويقولون عنها: هذه أُمّ المؤمنين عائشة»[(١)].

إننا ـ الشيعة ـ والحمد لله نعرف أنفسنا، فهل رأى أحدكم هذا المنظر يوماً من الأيام؟ وأين يوجد هذا الكلام؟ إنه موجود في كتب شيخ الإسلام ومخيّلته.

الثالثة: كراهة الرقم عشرة

ويقول أيضاً: «إن الشيعة يكرهون العدد عشرة، ولا يذكرون رواية فيها هذا العدد؛ لأنهم يكرهون العشرة المبشّرة إلّا علي بن أبي طالب»[(٢)]. ورحم الله الشيخ الأميني الذي تتبّع عشرات الروايات فيها العدد عشرة[(٣)].

فرى أُخرى

وليس هذا فحسب، فلو نظرنا في كتاب (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم لرأيت الغرائب، وكذلك الشهرستاني في مؤلفاته، والقصيمي في (الصراع بين الوثنية والإسلام)، وابن عبد ربّه الأندلسي في العقد الفريد، وغيرهم[(٤)]، فإن القارئ لا يجد فيها إلّا الافتراءات والكذب على الشيعة، ثم يقولون بعد ذلك: إن الصحاح لم تروِ عن الشيعة؛ لأنهم يكذبون.

إن هؤلاء يروون في صحاحهم عن خالد بن مسلم المخزومي الكوفي الذي كان من المرجئة، وكان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب عليه السلام. ويروون عن عمران بن حطّان الذي يقول في عبد الرحمن بن ملجم:

---

(١) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٧٦ ـ ١٧٧. (٢) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٧٦.

(٣) الغدير ٣: ١٤٨ ـ ١٥٠، وانظر الخصال: ٤٢٥ ـ ٤٥٤ / باب العشرة.

(٤) انظر كل ذلك مفصّلاً في المجلّد الثالث من الغدير.

يـا ضـربة مـن تـقي مـا أراد بـها إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانـا
إنــي لأذكــره يـوماً فأحسـبه أوفى البـرية عـند الله مـيزانـا[1]

بالله عليك، لو كان عمران بن حطان يمدح أبا لؤلؤة قاتل الخليفة عمر، فـهل كان البخاري يروي عنه[2]؟ فلم هذا اللون من التعامل مع أمير المؤمنينعليه السلام، وهو على أقل التقادير خليفة من خلفاء المسلمين؟

إن من الضروري أن نقوم بتسليط الأضوءالكاشفة على هذا الركام في تأريخنا وعلى ما يلفّه من زيف، وإلّا فإلى متى نبقى هكـذا؛ الآبـاء يأكـلون الحـصرم، والأبناء يضرسون؟ ولمصلحة من هذه التركة السوداء الثقيلة والعبء القاتل فـي تأريخنا؟ وما ذنب من ينشأ على كلمة «**لا إله إلّا الله**» ليلغم فكره بمثل هذا؟ فإن أردنا أن نصفّي أفكارنا ونغربلها، فعلينا أن نزيح هذا الركام من الفرى والاختلاق، وأن يعاد النظر في هذه الكتب التي تقف عقبة في طريق المسـلمين، وهـو أمـر ضروري جدّاً ولابدّ منه.

يروي الإمام الحسين عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «**الزموا مودّتنا أهل البيت؛**

---

(١) تاريخ الإسلام ١: ٧١٠، الاستيعاب ١: ٣٤٨، الإصابة ٥: ٣٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٣٨٠، ٤٣: ٤٩٥، المواقف ٣: ٦٩٨، الحور العين: ٢٠١.

(٢) فقد روى عن عمران هذا، انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥. وهو إنما يسبّ رجلاً يقول فـيه رسولنا الأكرمصلى الله عليه وآله: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق». مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨. ويقول فيه: «حربك حربي، وسلمك سلمي». شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المـناقب (الخـوارزمـي): ١٩٩، وأحاديث كثيرة غيرها بهذا المعنى، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤، ويقول أيضاً: «من أحبّك ختم اللّه له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام». مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقد نقل عن البوصيري قوله: رواته ثقات.

فإنه من لقي الله عزّ وجلّ وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا. والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقّنا »[١].

وهذا الرواية مروية في كتب السنة أيضاً، وبإمكان القارئ أن يراها في كتاب (الصواعق المحرقة)، وغيره[٢] من الكتب.

ويقول النبي ﷺ في أمير المؤمنين عليه السلام: « **لا يجوز أحد على الصراط إلّا من كتب له علي الجواز** »[٣].

وإن كان الأمر كذلك، فهل يسعنا إلّا أن نفضّل من تنزل فيه هذه الروايات والأخبار والآيات؟ وكيف لا نرتّب على قول النبي ﷺ آثاراً؟

إذن فالذي يشتم غيرنا، وإلى الآن ما يزال الشتم يصيبنا منهم، وكلّ من ألّف كتاباً منهم لا يسعه أحياناً إلّا أن يفتتحه بشتمنا والافتراء علينا، ولا يقدر إلّا أن يبهتنا، فلم كلّ هذا؟

وعليه فإن الحكم في الآية الكريمة ترتّب على قيد هو الإيمان، فيكون الوصف علّة له. فالصحابة المتّصفون بهذا الوصف هم موضع احترامنا وتقديرنا وتقديسنا، وأما إذا كان الأمر على غير ذلك، فإن النبي يقول: « **لو عصيت لهويت** »[٤].

---

(١) الأمالي (المفيد): ١٣٩ ـ ١٤٠ / ٤. (٢) المعجم الأوسط ٢: ٣٦٠.
(٣) جواهر المطالب ١: ١٨، ١٠١، ينابيع المودّة ٢: ١٦٣، ٤٠٤.
(٤) الإرشاد ١: ١٨٧، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٤.

مسؤولية المسلم تجاه نهضة الحسين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا كَانَ الله لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معالم النهضة الحسينية

نحن نعيش دائماً ثمرة مدرسة الحسين عليه السلام نتفيّأ ظلالها ونستوحي منها القيم الخالدة والمثل الأصيلة التي ترقىٰ بالإنسان إلى مصافّ الأحرار، وتسمو به إلى مستوى المسؤولية الشرعية تجاه المجتمع واحتياجاته، وإحداث ثورة التغيير فيه. ولذا فإن من الواجب على كلّ مسلم أن يفتح الأبواب إلى هذه المدرسة المعطاء؛ ليقوم كل بدوره، وهو السعي إلى تحقيق الهدف الذي قامت من أجله هذه الثورة العالمية المباركة. وهنا نقطتان ينبغي الالتفات إليهما هما:

النقطة الأولى: الجوانب العاطفية في الثورة

إن الحسين عليه السلام بهذا الجانب من جوانب الثورة، وضع المجتمع الإسلامي أمام المسؤولية، فنجده يخاطب المجتمع لأنّه حامل الرسالة ويحاول أن ينفذ إلى نفس كل مسلم؛ لأنّ المسلمين جميعاً هم حملة الرسالة السماوية التي يجب أن تصل إلى الناس جميعهم. وبهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام أراد أن يجسّد رسالة الإسلام؛ إذ أنّ هدف النهضة الحسينية هو إحياء رسالة الإسلام التي كادت تموت على يد يزيد

(١) آل عمران: ١٧٩.

وأعوانه. فكان الإمام الحسين عليه السلام يردّد هذه الآية في مثل هذه الليلة، يقول الضحاك بن قيس المشرقي: بتنا الليلة العاشرة، فقام الحسين وأصحابه الليل كلّه يصلّون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون، فمرّت بنا خيل تحرسنا، وإن الحسين عليه السلام ليقرأ: **﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**[1]، فسمعها رجل من تلك الخيل فقال: نحن وربّ الكعبة الطيّبون، ميّزنا منكم وأنتم الخبيثون. قال: فعرفته، فقلت لبرير: أتعرف من هذا؟ قال: لا. قلت: أبو حريث عبد الله بن شهر السبيعي، فعرفه برير، فقال له: أما أنت فلن يجعلك الله في الطيّبين. فقال له: من أنت؟ قال: برير. فقال: هلكت والله يا برير. فقال له برير: لا أراك تحسن من كتاب الله آية [2].

ووجه الاستشهاد هذا أن الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يضع الأُمم الإسلامية التي تدّعي الإسلام وتتلبّس بلباسه أمام مسؤوليّاتها الجسام في حمل مبادئ الإسلام، ليبرهنوا عمليّاً على إسلامهم بوقوفهم بوجه حاملي ألوية الكفر والعناد والفساد ممّن يريدون الرجوع بالإسلام إلى زمن الجاهلية وعاداتها المقيتة. فهذا هو وجه استشهاد أبي الأحرار عليه السلام بهذه الآية الكريمة، أي أنّه لابدّ من أن يتميّز الطيب من الخبيث الذي يهزأ بعواطف الناس ويسخر منها، ويدّعي الإسلام وهو لا يصلي ولا

---

(١) آل عمران: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) مقتل الحسين (أبو محتف): ١١١، إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ١٢٢ ـ ١٢٣، لواعج الأشجان: ١٢٣ ـ ١٢٢، تاريخ الطبري ٣: ٣١٧.

يؤدّي فرائضه التي افترضها الله تعالى عليه..يدّعي الإسلام وهو لا يقدّم للإسلام شيئاً، بخلاف الطيّب الذي يجسّد الإسلام موقفاً وبطولة وتطبيقاً، ويعرف أنّ الجهاد من أوّل واجبات المسلم وأهم تشريعات الإسلام.

والغريب أنّ هذه الظاهر ـ قضية موقفنا من يزيد ـ تعيش بين الناس حتى في هذه الأيام، مع أن المفروض بهذا المعترض أن يمتلك الوعي في هذا المجال، ومن لم يكن كذلك فلينظر في كتب المسلمين ككتاب (حياة الحيوان) للدميري في باب (فهد) وليرَ ما ينقل عن يزيد وما يقول فيه، وهو ينقل ذلك عن علماء المسلمين [١] من غير الشيعة.

ونحن لا نبتغي من وراء احتفالاتنا هذه بثّ روح الفرقة بين المسلمين، وليس هذا في حسابنا أبداً، بل إن هدفنا هو خدمة الإسلام والحفاظ على وحدة المسلمين وفق الضوابط الشرعية والآيات القرآنية. وهذه أصواتنا تخرج لوسائل الإعلام وليس عندنا ما يقدح بوحدة المسلمين، بل العكس هو الصحيح؛ لأننا ندعو إلى النبع الذي شرب منه المسلمون وهو النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام، ولا ندعو إلى نبع الجاهلية. ونحن عندما نتمسّك بالحسين عليه السلام فإنّما نتمسّك برافد من روافد الإسلام التي لم تلوّث.

فالإمام الحسين عليه السلام يريد أن يضع المسلمين على مفترق الطرق، ويقول لهم: ادرسوا أسباب هذه النهضة؛ فـ: «**إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في اُمّة جدّي ﷺ، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين**» [٢]. فالحسين عليه السلام هو ابن رسول

---

(١) حياة الحيوان ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦. (٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

الله ﷺ والرسول ﷺ جاء بشيراً ونذيراً للمسلمين كافّة، كما أنه عليه السلام ابن القرآن والقرآن الكريم كتاب المسلمين كافّة. ولو أننا حكّمنا العقل لرأينا أن سيّد شباب أهل الجنة [١] أولىٰ بالاتباع ممّن كان يتغنّىٰ:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزلْ [٢]

فليحاول كل من يطلب الحقّ والحقيقة أن يكسر حاجز التعصّب المقيت والجمود على التاريخ المزوّر وأن يقرأ بموضوعية ومنهجيّة علمية ليطلع على الحقائق، وليطلق الحرّيّة لفكره، وليسمع صوت الحسين عليه السلام مجلجلاً يهزّ أعماق الكون ويرعب مخلوقات الشرّ والظلام، وهو يهدر في مثل هذه الليلة: «**ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكَّرَ معروفُها، وذهبت حذَّاء، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، و إلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه مُحقًّاً. إني لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً**» [٣].

فالحياة ليست عبارة عن طعام وشراب ولباس؛ لأن من يرَها كذلك لا يعدُّ الحيوان في شيء؛ إذ أن الحيوان يشاركنا في هذا الجانب البهيمي، بل الحياة هي المواقف النبيلة، وأن يقال للحق: إنك حقّ، وللباطل: إنك باطل، يقول أحد

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤، المعجم الكبير ٣: ١١٤، نزهة الناظر: ٨٨.

الشعراء:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسـيرُ

ذلك أن الميت ليس من تخرج روحه من بدنه، فكثير ممّن فارقوا الدنيا لكنهم يعيشون معنا بما خلّفوه من أثر كبير في الحضارة والعلم والفكر والتقدّم البشري، بل إن الميت هو من لا يحمل الوعي، فتراه جثة تسير على سطح الأرض لا تعي ما حولها ولا تبصر أكثر مما هو تحت قدميها، فلا تحسّ بالعالم ولا تشعر.

النقطة الثانية: الجوانب غير العاطفية

وهذه الجوانب كثيرة يمكن أن نذكر منها:

أوّلاً: معادلة الخير والشر

ففي مثل هذه الليلة تتّضح لنا معالم معادلة حساسة جداً، ويعتمد هذا الأمـر على معرفة طرفي المعادلة:

الطرف الأوّل: خطّ الرسول الأكرمﷺ

ففي الطرف الأوّل من المعادلة أبو الأحرار وسيّد الشهداء وسيد شباب أهـل الجنة الحسين بن رسول اللهﷺ، وابن أوّل الناس إسلاماً وإيماناً بدعوة الرسول الأكرمﷺ، وابن علي بن أبي طالبعليه السلام. وهو عصارة مـبادئ الإسـلام، وكـان رسول اللهﷺ يحمله على صدره ويقول: «**حسينٌ منّي وأنا من حُسين**» [(١)].

ويقول: «**أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً**» [(٢)]. مرّ أبو بكر بالرسولﷺ فرآه يحمل الحسـنينعليهما السلام عـلىٰ عـاتقيه، فـقال: نِـعمَ الجـمل

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٢) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

جملكما. فقال النبي ﷺ: «**ونعم الراكبان هما، وأبوهما خير منهما**»[١]. فأخذهما أبو بكر من حجر النبي ﷺ.

الطرف الثاني: الخطّ الجاهلي المعتم

أما في هذا الطرف فتتضح معالم الجاهلية المقيتة وخلاصتها، وطرف الأحقاد الأُموية والانحراف عن خطّ الإسلام الحنيف. وهذا الطرف تجسّد في شخص كان يصعد المنبر وهو يترنح تحت وطأة سكره، وينشد:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم … وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة … فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّمُ[٢]

إذن في المعادلة رافد من راوافد الإسلام ورافد من روافد الجاهلية، وهذا هو سبب الصراع؛ فالإسلام على خطّ موازٍ للجاهلية ولا يمكن أن يتقاطعا أو يلتقيا أبداً. فهنا نحن ننظر إلى رمز بارز من رموز الإسلام وإلى رمز آخر بارز لكن من رموز الجاهلية، وبهذا يتقرّر أن دعوى كون يزيد يشكل حلقة من حلقات الحكم الإسلامي هي دعوىٰ باطلة وفارغة من أي مضمون؛ فالنظرية الإسلامية لا تقوم على أساس تقديم الدم واللحم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ**

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٤٤ / ١١٨، المعجم الكبير ٣: ٣٩ / ٢٦١٧، ٦٥ / ٢٦٧٧، ١٩: ٢٩٢، وليس فيها إشارة إلى أبي بكر.

(٢) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروّي فؤادي … ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زيادِ
موضع العدل والأمانة مني … ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

خَبِيرٌ﴾[١].

فالمسألة هي مسألة فكر، والمسلم هويته الإسلام، فيجب على الآخرين ألّا يدخلوا عوامل أجنبية ويقولوا: أنتم ضد العرب، وأنتم شعوبيون، فنحن عرب ونعتزّ بعروبتنا وبتاريخنا الإسلامي، وبمن حمل الإيمان والدين من العرب. كما أننا لا نتخلّىٰ عن دورنا في الحفاظ على اللغة العربية في عبادتنا، وهو ما ليس موجوداً عند غيرنا؛ فعند غيرنا أنّ الصلاة تجوز بغير العربية والعقود كذلك، وكذلك عندهم أن الخليفة لا بأس بأن يكون غير عربي في حين أننا لا نقول بذلك، بل نشترط كونه عربياً.

فكل ما يثار في هذه المجال لا يعدو كونه لعبة عاطفيّة، فهويتنا «لا إله إلّا الله محمد رسول الله»، ونحترم الشعوب الأُخرىٰ والقوميات كافّة، لكن لا نقدّس أحداً لا يستحقّ التقديس لمجرد أنّه قد حكم، فالحكم وجوده وعدمه سواء فيما يخصّ قدسية الرجل واستحقاقه للطاعة والحب والتقدير والإكرام، يقول أحد الشعراء مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام:

هو عدل السماء أعطتك عرشاً لا يدانيه عرشك المغصوب

فعرشه عليه السلام الذي وهبته إياه السماء هو قلوب المؤمنين، فما قيمة كرسي مصنوع من خشب حينئذٍ؟

ثانياً: أهل بدر والأحزاب

وهنا يتّضح لنا كذلك من هم الذين كانوا مع الحسين عليه السلام، ومن هم الذين كانوا مع يزيد في معادلة الخير والشر ممّن وقفوا إلى جانب الرمز. وبه يتّضح لنا هذا

(١) الحجرات: ١٣.

البعد الهام من أبعاد هذه المعادلة التي يمكن رسمها بالشكل التالي:

الطرف الأوّل: صحابة الرسول ﷺ

فممّن وقف إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعادلة بعض من صحابة النبي الأكرم ﷺ، وكان في طليعة هؤلاء حبيب بن مظاهر الأسدي. وكان لهؤلاء سابقة وقدِم في الإسلام والجهاد ونصرة الله تعالى ورسوله الكريم ودينه الحنيف.

الطرف الثاني: أصحاب الخندق

إن في جيش يزيد بقية باقية من معسكر الأحزاب، وقد صوّر لنا هذا الأمر بأروع صورة عقيل بن أبي طالب حينما راح يصف جيش أخيه أمير المؤمنين عليه السلام وجيش معاوية لهذا الأخير إذ طلب منه ذلك وقال له: قد مررت بجيش أخي علي بن أبي طالب عليه السلام فما رأيت فيهم إلّا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً كأنه جيش رسول الله ﷺ ولكن الرسول ﷺ ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله ليلة العقبة حيث يوجد الطليق وغيره[1].

يقول أحد الشعراء مخاطباً الحسين عليه السلام:

يا أبَا الطفّ ساحة الطفّ تبقى	**وعـليها مَشاهدُ لا تزولُ**
فـهنا والنبيّ يرقب شلواً	**مـزّقته قـناً وداست خيولُ**
يـزدهيه بأنـه وحسـين	**قـصّة الأمس والغد الموصولُ**
وبأن الروح الذي حـمل السبـ	**ـط تراث من النبي أصيلُ**
وهـنا حشد آل حرب وللخسّـ	**ـة في كلّ ما به تذليلُ**
وهـنا حشد هاشم وهـو جـذر	**يـنتمي للشذا وطبع نبيلُ**
وسـتبقَى الدنـيا وللوضر النتـ	**ـن قـبيل وللسموّ قـبيلُ[2]**

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥، بحار الأنوار ٤٢: ١١٣.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

فهناك مجموعة خيّرة فيهم بقية من الصحابة التفّت حول رمز الإسلام، فكانوا حماة الإسلام، عاشوا على المبدأ وماتوا دونه وهم يتمنّون لو أنهم نشروا ثم قتلوا ثم نشروا ثم قتلوا يفعل بهم ذلك ألف مرّة لما تركوا رمز الإسلام، فكيف وهي ميتة واحدة؟ هؤلاء المضحون هم الذين جمعهم هذا الرمز الإمام وخطب فيهم قائلاً: «**هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي**»[1].

فكان جوابهم ما جاء على لسان مسلم بن عوسجة رحمه الله حيث قال مخاطباً الإمام أبا عبد الله عليه السلام: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق ثم أحيا ثم أُذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وعلى لسان زهير بن القين رحمه الله حيث قال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرّة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وعلى لسان محمد بن بشير الحضرمي رحمه الله إذ قال له: أُسر ابني بثغر الري فما أُحبُّ أن أبقىٰ بعده حيّاً. فقال له الحسين عليه السلام: «**أنت في حلّ من بيعتي**». ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: «**اعمل علىٰ فكاك ابنك**». فقال له:

---

(١) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

أكلتني السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول الله [(١)].

أما الطرف الآخر فمجموعة من الأشرار المرتزقة ممّن اشتروا دنياهم بدينهم، يقول أحدهم:

املأ ركابي فضّة أو ذهبا ... إنّي قتلت السيّد المهذّبا

قتلت خير الناس أُماً وأبا [(٢)]

وهذا هو الفرق بين هذين الطرفين اللذين يمثلان معسكري الحقّ والباطل.. بين معسكرين يحمل أحدهما روح الإيمان والتضحية في سبيل الدين ومعسكر يعشّش الحقد في قلبه، ويتراءى الطمع له أمام عينيه.

نعم اللّه على خلقه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [(٣)].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأول: وجوب شكر المنعم

في هذه الآيات الكريمة يذكّر الله تعالى عباده بالنعم التي أنعم بها عليهم، وهذا يسمىٰ بتقرير النعم [(٤)]. وهنا نتوقف عند هذا التقرير الوارد هنا، فنحن مثلاً عندما

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٢٧، الاستيعاب ١: ٣٩٣.

(٣) البلد: ٨ ـ ١٠.

(٤) فائدة نحويّة: قد توسّع العرب فأخرجوا الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربوه

نريد أن نذكّر الآخرين بإحساننا فإنّ الهدف غالباً شخصي؛ فإمّا أننا نريد أن نقول: إننا تفضّلنا، وإما أن نريد مقابل ذلك مكافأة. لكن هذين المعنيين لا يمكن أن يتصوّرا على الله تعالى؛ لأن كل منحه تعالى عطاء ونعمة، وكله جود وكرم، فلا يريد أن يمنّ علىٰ عباده، ولا يريد جزاء مقابل ذلك؛ إذ أنه لا قيمة للإنسان أمام الله تعالى حتى يكون عنده شيء يقدّمه له، بل إن ما عنده من الله لا من غيره.

وكذلك فإن الله تعالى لا يريد أي هدف من الأهداف ذات الطابع الشخصي، نعم يريد أن يدفع الإنسان نحو طريق التكامل، والتكامل هو أن يقابل تلك النعمة، فإذا لم يقابلها فهذا يعني أن عنده نقصاً، في حين أن الله تعالى يريد لعبده الكمال الممكن.. الكمال الذي هو شكر نعمة الله عز وجل. فالله تعالى يريد الإنسان مخلوقاً سويّاً، ومن ضمن مستلزمات المخلوق السوي أن يقابل النعمة بالشكر.

غير أن الواقع أنه يوجد من الناس من لا يقابل النعمة بالشكر، بل يسيء إلى المنعم إليه، حتى قيل: «اتّقِ شرّ من أحسنت إليه»[1]. فعوض الخير الذي تمنحه

☚ تلك المعاني، وقد عدّها ابن هشام الأنصاري ثمانية معانٍ، أمّا السيوطي فأوصلها إلى اثنين وثلاثين معنى، منها الإقرار، وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده، ويجب أن يليها الشيء الذي تقرّره به. وهي للتقرير بالفعل، كقولك: أضربت زيداً؟ وللتقرير بالفاعل، كقولك: أأنت ضربت زيداً؟ وللتقرير بالمفعول، كقولك: أزيداً ضربت؟ مغني اللبيب ١: ١٧ ـ ١٩، الإتقان في علوم القرآن ٢: ٢١٢ ـ ٢١٧.

(١) قال الفتني: «في المقاصد: اتق شرّ من أحسنت إليه، ولا أعرفه، ويشبه أن يكون كلام بعض السلف، وهو محمول على اللئام». تذكرة الموضوعات: ٦٨ ـ ٦٩.
وقال العجلوني: «اتق شرّ من أحسنت إليه، وفي لفظ: من تحسن إليه. قال في (الأصل): لا أعرفه، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف، قال: وليس على إطلاقه بل هو محمول على اللئام دون الكرام؛ ويشهد له ما في (المجالسة) للدينوري عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لطف». كشف الخفاء ١: ٤٣ ـ ٤٤ / ٨٦.

إيّاه يقابلك بالشرّ والجحود والكفران. ومثل هذا المخلوق غير سوي؛ لأن شكر المنعم واجب عقلاً؛ فالعقل يستقلّ بوجوب شكر المنعم.

وهنا نسجّل ملاحظة تشكّل ظاهرة ثابتة وسمة عامّة، وهي أنه ليس هناك من أنعم علىٰ هذه الأُمّة بقدر ما أنعم عليها رسول الله ﷺ، فقد حمل الإسلام الذي نقلها من الضلال إلى الإيمان والسعادة والنور، وغيّرها نحو الأحسن، لكن المسلمين قابلوا رسول الله ﷺ بغير ما يستحقّ، ولم يشكروه كما ينبغي، فنجد أن أبناء الأجانب يحظون بحبّ المسلمين ورعايتهم، لكن أبناء رسول الله ﷺ لا يحظون بحبّهم ورعايتهم، وليس لهم في هذا نصيب أبداً. وهذا كفر للنعمة، وعدم الشكر لها، فرسول الله ﷺ علّمنا بعد جهل، ووحّدنا بعد تجزئة، وأغنانا بعد فقر، سئل شخص: لماذا لا تصلّي على آل محمد إذا ذكروا عندك؟ قال: أخشىٰ أن أُتّهم بالرفض.

وقد ذكر في بعض الأحاديث [1] أن الصلاة علىٰ محمّد ﷺ دون «آله» هي صلاة بتراء، فلماذا نتعمّد أن نجعل صلاتنا بتراء، مع أن النبي أمر بذلك؟ فأي عقوق أعظم من هذا العقوق؟ أليس المرء يحفظ في ولده؟ وفي باب «الوفاء» أنه إذا كان لرجل صديق توفي عن أولاد فإن من الوفاء المأمور به هذا الصديق أنه إذا أراد أن يدخل السرور علىٰ قلب صديقه فعليه أن يرعىٰ أولاده.

المبحث الثاني: نعمة البصر

نعود للآية حيث تقول: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ**﴾، فأول نعمة تذكّرنا بها هذه الآية الشريفة هي نعمة البصر؛ لأن الإنسان إذا سلب منه البصر فقد الإحساس بما حوله.

---

(١) كشف الغمّة (الشعراني) ١: ٢١٩.

ومن لطف الله تعالى أنه يعوّض هذا الإنسان مقابله.

نوع الجزاء عند المصيبة

وهذه المسألة يبحثها الفلاسفة وعلماء الكلام، فيقولون: إذا ابتلىٰ الله العبد بشيء، فهل يعطيه عوضاً عن هذا الابتلاء أم لا؟ يقولون: نعم، إنه يجب تعويضه، لكن يبرز هنا تساؤل آخر هو: ما هو نوع هذا العوض؟ هل هو تعويض بالمثل، وهذا لا يجوز؛ لأنه عبث يُنزّه الله تعالى عنه، فلا معنى لأن يؤخذ منه شيء ويعطى بعد ذلك بقدره؛ فلا ثمرة في البين، او أنه يعوّض بالأقل، وهذا لا يجوز كذلك؛ لأنه ظلم، وهو تعالى عادل، أم أنه يعوّض بالأفضل؟

وهنا يجيبون بأنه لابد أن يكون التعويض بما هو أكبر؛ حتى يتحقّق العدل والحكمة الإلهيّان. فالله تعالى لا يمكن أن يسلب من الإنسان نعمة دون أن يعطيه مقابلها شيئاً، وهذا الشيء أكبر من النعمة المسلوبة [١].

فإذا سلب الله أحداً بصره عوّضه عنه بالبصيرة، يقول حبر الأُمة عبد الله بن عباس، وكان قد ابتلي بفقد البصر:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ [٢]

وحدث يوماً أن ابن الزبير صعد المنبر وأراد أن ينال منه فقال: إن هاهنا رجلاً أعمى الله قلبه كما أعمىٰ عينيه. فقال له ابن عباس: يابن الزبير: «أمّا عينيّ فقد أخذ الله نورهما، ولكن عوّضني اليقين في قلبي والنور في بصيرتي...» [٣].

(١) هذا مع أن هذه النعم نعم ابتدأ الله تعالى بها المكلّف، وليست نعم استدامة.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٥٨، اختيار معرفة الرجال ١: ٢٧٢ / ١٠٣.

(٣) أنساب الأشراف ٤: ٥٥ ـ ٥٧، شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٢٩ ـ ١٣١، الدرجات الرفيعة: ١٣٢، ١٣٤.

فلابدّ أن يعوّض الله عبده بمقتضى عدله ولطفه. مع أنه تعالى إذا أخذ من عبده شيئاً فإنما يأخذه لمصلحة، وهو مع هذا في الوقت نفسه لا يترك تعويضه.

لكن نعمة البصر من أهم النعم التي أنعم الله بها علىٰ عباده، ولذلك ورد في الدعاء الشريف: «**اللهم متّعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني**»[1].

يروي البزاز في مسنده عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه في ديوان النعم: خذي ثمنك من عمله الصالح. فتستوعب عمله الصالح كلّه، ثم تنحّى وتقول: وعزّتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم، فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت لك عن سيئاتك، ووهبت لك نعمي**»[2].

ولو أن الإنسان يملك أكبر ثروة، ويعطيها لأضخم المستشفيات وأحدثها، فهل يمكن أن تعوّض عيناً له تالفة؟ ولو قدر الله سبحانه وتعالى لأجل الإنسان أن ينتهي، فهل تستطيع ثروته أو هذه المستشفيات أن تمدّ في عمره لحظة واحدة؟ فكيف نقابل نعم الله تعالى إذن؟ إنّ أكبر الأعمال عندنا لا تقابل أصغر نعمه كما في الحديث. فالبارئ جلّ وعلا يريد أن يذكّرنا بهذه النعم فيقول: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ**﴾.

ضريبة النعم

إننا يجب أن نعرف أن لكل نعمة ضريبة، فالعقل عليه ضريبة هي المشورة

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٥: ٩١ / ٥٤١٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٤٢ / ٣٦٨٠.

(٢) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ١٦١، العهود المحمدية: ٩٠٠.

الحسنة، واللسان عليه ضريبة هي الإصلاح بين الناس وذكر الله تعالى، والعين كذلك. والله تعالى حينما أعطىٰ العينين للإنسان جعل باستطاعة غيره أن يدرس سلوكه من عينيه، فالعين تكشف عن مشاعر صاحبها وأحاسيسه، يقول الشاعر:

تأمل مساقط لحظ المريب فإنّ العيون وجوه القلوب (١)

والعين تبصر له ما يريد، ويقرأ بها ويهتدي إلى حوائجه. لكن ضريبتها هي أن تسهر في طاعة الله وخلافه، هو عدم الشكر له تعالىٰ. وهذا مثله مثل المال الذي يمكن أن يصرف في الحرام أو يصرف في الحلال، فالعين يمكن أن نقرأ بها القرآن ونسهر الليل لأداء فريضة أو صلاة ركعة، وفي الوقت نفسه يجبّ أن نعفّها عن محارم الله، فلا نسلّطها على عورات الناس، وعلىٰ ما لم يحلّه الله لنا، وإلّا كانت جارحة حرام؛ لأنها عضو سيشهد على صاحبه يوم يلقىٰ الله تعالى، فإن الأعضاء تنطق يوم القيامة (٢).

المبحث الثالث: نعمة اللسان ومسؤوليّة الكلمة

ثم قالت الآية الكريمة التي بعدها: ﴿**وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ**﴾، واللسان أيضاً من النعم؛ فهو المعبّر عن الإرادة التي لا يمكن إبرازها إلّا عبر الكلام، والإنسان لا يستطيع أن يفصح عمّا في داخله إلّا باللسان، فهو وسيلة البيان التي تميّز الإنسان.

وللكلام جهتان متعارضتان، وهنا يُطرح هذا السؤال: أيها أفضل الكلام أم السكوت؟ وهذا طبعاً لانستطيع أن نجزم به بمعزل من الحال التي يكون عليها الإنسان، لكننا نعرف أحياناً أن السكوت أفضل من الكلام، كأن يسكت إنسان عن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٩.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يس: ٦٥.

الغيبة، فلو دار الأمر بين كلام مؤدّاه الغيبة، وبين سكوت مؤدّاه التعفّف عن أعراض الناس فإنّ السكوت هنا يصبح واجباً إلّا إذا كان فيه ردع لفاعل الغيبة ونصرة للمأخوذة غيبته. وهكذا نجد أن السكوت هنا له قيمة، ويجعل لصاحبه كرامة. إذن السكوت هنا أفضل من الكلام.

وكذلك السكوت عن الفضول ـ أي تدخّل الشخص فيما لا يعنيه ولا يعود عليه بخير ـ فهو هنا أفضل [1]، أو أن شخصاً يقحم نفسه في قضية علميّة ليست من اختصاصه، فالسكوت هنا أفضل له؛ لأنه يؤدي به إلى الانهيار أمام جلسائه، ويكشف عن فراغ مكنوناته.

تروى في هذا الصدد رواية مشكوك في صحّتها، تقول: «**كان النبي موسى بن عمران**عليه السلام **يرى رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته، وكان ظاهره يدلّ على أنه ذو وقار وهيبة، وكان مظهره الخارجي يوحي بذلك، فكان**عليه السلام **لا يكاد يذهب إلى موضع إلّا وهو معه. وبينا كان**عليه السلام **يوماً في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتزّ، فتأوّه الرجل فقال له النبي موسى**عليه السلام**: على ماذا تأوّهت؟ قال: تمنّيت أن يكون لربّي حمار أرعاه هاهنا. فأكبّ النبي موسى**عليه السلام **طويلاً ببصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحطّ عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أُؤاخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل**» [2].

فهذا هو مقدار إدراكه. على أية حال فإن هذا لو ظلّ ساكتاً لبقي محافظاً على

---

(١) مرّ أمير المؤمنين عليه السلام برجل يتكلّم بفضول الكلام، فوقف عليه، ثم قال: «إنك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربّك، فتكلّم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك». الأمالي (الصدوق): ٨٥ / ٥٣.

(٢) المحاسن ١: ١٩٣ / ١٠، شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٧.

احترامه. والغرض من ذلك أن السكوت في حالات معيّنة يكون أفضل من الكلام.

لكن في مقابل هذا يكون الكلام أحياناً ـ في حالات معيّنة ـ أفضل من السكوت، فيما لو كان هذا السكوت سكوتاً عن كلمة حقّ، حيث إنه يستطيع أن ينطق بكلمة الحقّ لكن لا يتكلّمها، لأنها تصطدم بمصالحة، فالسكوت هنا يصبح جريمة والكلام واجباً. وهنا يأتي دور الأثر: «الساكت عن الحقّ شيطان أخرس»(١). فإذا كان المرء يقوىٰ علىٰ قول كلمة الحقّ، دون أن يمسّه ضرر من ورائها، ويستطيع أن يقوّم بها انحرافاً فالواجب يقتضي ألّا يسكت.

والواقع أن كلمة الحقّ أفضل الجهاد حسب ما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر**»(٢). فالكلمة مسؤولية نبيلة، وهي هنا تترتّب على الإنسان، والسكوت عنها يعتبر رذيلة وذلّة.

إذن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رذيلة، لأن الكلمة أحياناً قد تترك أكبر الأثر، كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مارّاً بطريقه في المدينة على بيت (بشر الحافي)، وبشر كان رجلاً غير ملتزم، منشغلاً باللذائذ والفجور، فسمع ضرب الأعواد وأدوات الطرب، فقد كان يعيش حينها ليلة صاخبة من ليالي اللهو واللعب، فلفت نظر الإمام عليه السلام هذه الأصوات والضوضاء والغناء، وهنا خرجت جارية لبشر من الدار، وبيدها فضلات الطعام والشراب ممّا خلّفه هؤلاء السكارىٰ، فسألها الإمام عليه السلام: «**لمن هذه الدار؟**». قالت: لسيدي. قال: «**سيدك حرّ أم عبد؟**». قالت: بل حرّ. قال: «**صدقت لو كان عبداً للّه لاستحىٰ من اللّه**».

فرجعت إلى البيت مضطربة، فسألها بشر: ماوراءك؟ قالت: مرّ عليّ رجل تكاد

---

(١) الأذكار النوويّة: ٣٣٥.

(٢) عوالي اللئالي ١: ٤٣٢، مسند أحمد ١٩، ٦١، ٤ ٣١٥، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٩.

تميله الريح إذا مرت عليه، وسألني... ثم روت له القصّة كاملة.

فأخذت هذه الكلمة منه مأخذها، وأثّرت فيه تأثيراً بالغاً، ووقعت في قلب له استعداد لأن يتغيّر، فأخذ أواني الخمر وكسرها، وأخرج رفقته من البيت، وطهّره من دنس الخمر، حتى ضرب به المثل في الزهد والالتزام والتديّن [١].

فهذه الكلمة أخذت أثرها من نفسه؛ لأنها خرجت من إنسان متّعظ.

وبهذا نجد أنه أحياناً يكون الكلام أفضل من السكوت، وفي أحيان أُخرى يكون السكوت أفضل من الكلام. سئل السجّاد عليه السلام: أيهما أفضل؛ الكلام، أم السكوت؟ فقال عليه السلام: «**لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات، فالكلام أفضل من السكوت**». قيل: وكيف ذاك يابن رسول الله؟ قال عليه السلام: «**لأن اللّه عزّ وجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، وإنما يبعثهم بالكلام، ولا استُحقّت الجنّة بالسكوت، ولا استُوجبت ولاية اللّه بالسكوت، ولا توقّيت النار بالسكوت، ولا تُجنب سخط اللّه بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام. وما كنت لأعدل القمر بالشمس؛ إنك تصف فضل السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت**» [٢].

فهذه الكلمة حدّدت الفرق بينهما تحديداً رائعاً، فالكلام له آفات ومشاكل والسكوت كذلك، لكن إذا جرّدناهما من المشاكل والآفات، فإنّ الكلام يصبح أفضل لأن الله لم يبعث الأنبياء ساكتين، والكلام وسيلة الدعاء إلى الله، وولاية الله تعالى لا تنال إلّا بالكلام. فالإنسان لا يصلي حتى يتكلّم، ولا يقرأ القرآن ويقول كلمة طيّبة إلّا بالكلام، والكلام تصف به السكوت، فعندما يسأل سائل: ما هو

(١) الكنى والألقاب ٢: ١٦٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٤٥ ـ ٤٦، وسائل الشيعة ١٢: ١٨٨ ـ ١٨٩.

السكوت؟ يجاب بأنه إطباق الشفتين وعدم التكلّم، لكن هل يستطيع أحد أن يصف الكلام بالسكوت؟

فالنطق ثمرة هامّة عند الإنسان، وهو من دون نطق يصبح عاطلاً؛ لأن الكتب كلام، والدراسة والتعلّم والقرآن والدعاء كلّها مصادر لا تتأتّى بغير الكلام. لكن يراد من الكلام والسكوت أن يكونا وفق مقاييس وضوابط معيّنة؛ فالكلمة فيها شعور بالمسؤولية، وعلى الإنسان أن يفكّر قبل أن يتكلّم، يقول الإمام علي عليه السلام: «**إذا تمّ العقل نقص الكلام**»[1]. فعلى الإنسان أن يدرس الكلمة وتأثيرها وفائدتها، فإن كان كذلك، قلّ كلامه. فالله يضع على الإنسان رقيباً، يقول نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله: « **يقول الله تبارك وتعالى لابن آدم: يابن آدم إذا نازعتك عينك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليها بطبقين، فأطبق** ـ أي أدر وجهك عن الحرام ـ **ولا تكلّم. وإذا نازعك لسانك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق** ـ أي فاسكت ـ **ولا تكلّم. وإذا نازعك فرجك إلى بعض ما حرّمت عليك فقد أعتنك عليه بطبقين فأطبق** »[2].

فالإنسان يستطيع أن يصبر على الكلام، المحرّم والنظر المحرّم، والفعل المحرّم، والإنسان ملاك المسؤولية، فالله لم يكلّف الحيوان؛ لذلك يجب مراعاة أن تكون الكلمة موزونة وفيها شعور بالمسؤولية.

جراحات السنان وجراحات اللسان

وغالباً ما يكون للكلمة أثر مروّع؛ فقد يجرح شخص بالسلاح فيختفي أثره، لكن الكلمة الخبيثة يبقى أثرها[3]؛ لأن الجرح الذي له علاقة بالجسد ينسى

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٧١.
(٢) الكافي ٨: ٢١٩ / ٢٧٠.
(٣) قال الشاعر:

بمجرّد بر ئه، أمّا الكلمة فلها علاقة بالروح. ولذلك فإن مسؤولية الكلمة كبيرة سيّما تلك التي تزرع في الكتب، حيث إن صاحبها يضعها ويذهب ويبقى الكتاب يفعل فعله في العقول. والنتيجة أن كلّ من يقرؤه سيحمل الحقد على من افتُري عليه فيه، وينفعل انفعالاً لا حدود له.

وتوجد في تاريخنا كلمات عجيبة من حيث افتراؤها وأثرها، وليس هناك أي محاولة جدّيّة لتصفيته من هذه الكلمات وإخراجها من قاموسه. بل إنه توجد هناك مفاعلات في تاريخنا تتفجّر، وهي مفاعلات صادرة من أُناس لهم علم واسع، مثلاً تجد مفسّراً يقول: «إن الشيعة يبيحون الأكل إلى طلوع الشمس في شهر رمضان». فهل الكذب علينا حلال؟ وعلى اي مصدر اعتمد هذا؟ ولماذا افترى على طائفة كبيرة من المسلمين؟ وهي فرية إذا قرأها مسلم من فرقة أُخرى فسيقول: إن هؤلاء كفرة؛ لأنهم يخالفون القرآن الكريم الذي ينهى الإنسان عن الأكل بعد طلوع الفجر. فالإمساك يجب أن يكون قبل الفجر. وهكذا نرى أن هؤلاء سيحكمون علينا بالكفر عند قراءة ذلك في أمثال هذه الكتب.

وهناك كلمات عديدة من هذا القبيل بالعشرات، فتجد فرقة تعتدي على فرقة أُخرى، فمثلاً الخطيب البغدادي يقول: زقّ خمر أفضل عند الله من أبي حنيفة. وهذا كلام شخص لا يشعر بالمسؤولية ولا يحترم الناس، فأبو حنيفة له مذهب ومقام، وإذا خالفني في العملية الاستنباطيّة فلن يضير ذلك. إن المفروض أن نتحلّى بجنبة أدب الكلام.

ونظام الإسلام يتميّز بمسؤوليّة الكلمة، ومجتمعه يجب أن تتوفّر فيه هذه

☚ جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسانُ

عمدة القاري ١: ١٣٢، تحفة الأحوذي ٧: ١٧٣.

الحالة، فالقرآن يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[(١)].

كتمان الحقّ

ثم قالت الآية: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾، أي أن هؤلاء قد اطّلعوا على وصف النبيّ صلى الله عليه وآله في التوراة ووصفه في الإنجيل، لكنهم لا يبشّرون به؛ لأنهم إذا بشّروا به فقدوا مراكزهم الدينية ووظائفهم، ثم إنهم بعدُ لا تهمهم الحقيقة. سألوا مروان: هل تعتقدون أن الإمام علياً قد اشترك في الأحداث ضدّ الخليفة الثالث عثمان؟ قال: معاذ الله، وإن الإمام علياً أبرأ الناس من هذا، بل إنه بعث أولاده للدفاع عنه. فقيل له: فلماذا تشيعون بين الناس بأنه قد شرك في دم الخليفة الثالث؟ قال: لأن أمرنا لا يستقيم ألّا بهذا[(٢)].

فهذا الرجل صادق مع نفسه، ونحن نرىٰ في تاريخنا الكثير ممّن إذا مرّ بذكر الإمام علي صلى الله عليه وآله أعرض عنه، وإذا مرّ برواية له أعرض عنها، مع أنه تراث إسلامي كبير؛ فإنّ أهل البيت عليهم السلام للناس كافّة، وإن آل محمد عليهم السلام عطاء للأُمّة الإسلامية كلّها. ومعلوم أن ترك ذلك وعدم ذكره لأجل المكانة والمال، مع أن المفروض بهذا أنه يكتم علماً ،وسيحاسبه الله عليه[(٣)]. فنحن نأخذ الحكم الشرعي من أي مذهب إسلامي إذااستكمل الشرائط.

والأغرب من هذا أن الرشيد يبعث إلى جماعة من القضاة والمفتين ويقول لهم:

---

(١) ق: ١٨. (٢) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾ البقرة: ١٥٩، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٤.

إذا مررتم برأي لعلي بن أبي طالب فلا تأخذوا به. فهؤلاء وقفوا موقفاً معادياً لعلي بن أبي طالب ﷺ بكل ما في كلمة عداء من معنى.

بل إن الرشيد قال لهم: إذا مررتم بآية في القرآن تنّوه به فأعرضوا بوجوهكم عنها. وغير خفي أن هناك روايات عديدة لأعداء أهل البيت عليهم السلام تشهّر بالإمام علي عليه السلام، لكن هذا لا يضيره، يقول الشاعر:

عِداي لهم فضل عليَّ ومِنّة فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هُمُ فتّشوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[1]

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ﴾، وهنا مكمن المشكلة، حيث إنه ﷺ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يسكت؛ لأنه وضع يده على مكامن النقص في حضارتهم، فوقفوا بوجهه، فقد فنّد مزاعمهم، وأبطل الكثير من معتقداتهم.

الحسن والقبح الذاتيين

إن قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ﴾ يقرّر أن هناك حسناً وقبحاً ذاتيين للأشياء. وهذه المسألة موضع نزاع بين المذاهب الإسلامية، فمتى نسمي هذا الشيء حسَناً ومتى نسميه قبيحاً؟ المذاهب الإسلامية تقول: إن القبيح ما قبّحه الله، والحسن ما حسّنه الله؛ فإنه يجوز لله أن يعذّب المطيع، ويرفع العاصي ويدخله الجنّة، فالذي يقضي عمره بالصلاة والصوم والعبادة لا ضير في أن يضعه الله في النار، والذي يقضي عمره بالفجور والرذائل لا ضير في أن يضعه

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

الله في الجنة. فهو تعالى يفعل ما يشاء.

وهذا الكلام غير مقبول، لأن هذا ظلم، والظلم قبيح، والله تعالى لا يقدم على القبيح، وبالتالي لا يقدم على الظلم. فإذا نعّم العاصي فإنه فرّق بين المقاييس، والله تعبّدنا بالعقول والمقاييس. ولذا فإن ابن قيم الجوزية (وهو تلميذ ابن تيمية) يذهب إلى الحسن والقبح العقليين، أي أنه لا يذهب إلى أن الحسن والقبح هما ما حسّنه وقبّحه الشرع. فالشرع يرشد إلى الحسن والقبح العقليين، وهذا الذي عليه الشيعة. سألوا أعرابياً: بماذا بعث الرسول صلى الله عليه وآله؟ قال: إنه لم يجئ بشيء وقال عنه العقل: إنه قبيح، ولم ينهَ عن شيء وقال عنه العقل: إنه حسن؛ فهذا دليل علىٰ أنه علىٰ حقّ. فهذا الأعرابي أفضل من هؤلاء الذين يقولون: إن الحسَن ما حسّنه الشرع، والقبيح ما قبّحه الشرع، ومن يقل بأن الله يمكن أن يأتي بشريعة ثم يأتي بضدّها فليراجع متبنياته العقلية والفكرية.

فهذا المقطع من الآية نستدل منه على أن الأشياء لها صفة ذاتية، أما الأشياء المادّية أو بعض الأعمال فنحن نعرف أن بعضاً منها قبيح، كالسرقة والخيانة قبل أن يقول الشارع لنا ذلك، وكذلك الإحسان إلى الناس فهو أمر حسن قبل أن يقول لنا الشارع بأنه أمر حسن. والشرع إنما يرشد لهذا؛ فإنّ العقل نبي داخلي والشرع نبي خارجي.

ومن لم يكن لديه عقل فإن الله لا يكلّفه، فالأبله لا يكلّف، ذلك أن العقل مناط التكليف وملاكه، أي أن له القابلية على تمييز الأشياء، ومعرفة القبح والحسن، وأن الله تعبّدنا بهذا: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[1]، و: ﴿**هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾[2]، أي ذي عقل، و: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ**

(١) الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤. (٢) الفجر: ٥.

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

فالله يأمرنا أن نحكّم عقولنا ونفكّر، ولو لم يكن العقل حجّة ما أحالنا إليه، ومن هذا نعرف أن الله تعالى تعبّدنا بالعقول، والإنسان إذا جُرّد من العقل فإنّ الحيوان يصبح أفضل منه، وإذا أُلغي العقل أُلغي التكليف، والله لا يأمرنا بما يخالف العقول، فإنّ الله عُبد وعُرف بالعقل.

سأل النبي ﷺ عجوزاً: كيف عرفت ربك؟ قالت: إن عندي دولاباً ألفّ عليه المغزل، يشتغل بحركة يدي، ويتوقّف إذا لم أُحرّكه، وأنا أرىٰ الشمس تطلع وتغرب، والأرض تمرّ بأحوال مختلفة حيث الليل والنهار، والمراسم كلّاً في وقته، فعلمت أنه لابدّ من وجود أحد يديره، فإذا كان هذا الدولاب لا يتحرّك إلّا إذا حرّكته فكيف بهذا الكون؟ فهذا تحكيم للعقل، فالأشياء لها حسن وقبح عقليان.

النقطة الثالثة: الحرية الفكرية

إن هذا المقطع الشريف يدلّ على تحرير البشر من المؤسسات التي تتحكّم في تفكيره؛ لأن السماء هي التي تحدد لنا الطيّب والخبيث بمساعدة عقولنا. فاللّه تعالى خلق لنا هذه العقول ومنحنا القدرة على التفكير، ووضع لنا القواعد التي نستطيع عبرها أن نعرف الصحيح من غيره. فهذه الضوابط هي من وضع السماء، وليست من هؤلاء الذين يطرحون رأيهم بلا دليل كالأحبار والرهبان، فهؤلاء مثلاً كانت أغلب آرائهم مناطها التحكّم[2]، كما في مسائل الزواج والطلاق، حيث أباحوا زواج المحارم كالمجوس، فإن المجوسي يباح له أن يتزوّج بنت أُخته

(١) الحجّ: ٤٦.

(٢) التحكّم: هو كل دعوى بلا دليل يعضدها.

وبنت أخيه. وهذا بخلاف الإسلام الذي يأمر بالزواج من الأباعد؛ لأن هذا الفعل سيؤدّي إلى أن يغرس المحبّة بين عائلتي الزوجين، فحينما يضمّ الزوج أُسرة جديدة إلى أُسرته، فإنه يكون قد نشر المحبّة بينهما، وهذا من جملة أهداف الزواج. فبهذا الزواج تقترب هذه القبيلة من تلك القبيلة، وتتبادل المحبّة والولاء بينهما، ويُتخلّص من البلايا التي تحدث عند الزواج من الأقارب.

فهؤلاء الأحبار والرهبان يتحكّمون بالزواج كما يتحكّمون بالطلاق، حيث يمنعونه ولا يبيحونه. وليس هذا مقتصراً على هؤلاء، فبعض المذاهب الإسلامية لها أُمور عجيبة في الطلاق، فمثلاً إذا قال الرجل لزوجته: أنت بتّة فقد طلقت [١]، أما عندنا فلا يقع الطلاق إلّا بلفظ الطلاق. كما أنهم يجيزون طلاق السكران [٢] الذي يفقد عقله، فتنهدم الأُسرة بقول السكران. وقد أُلغيت الطلقات الثلاث في جمهورية مصر مؤخّراً، واعتبرت واحدة، ذلك أن عندهم لو طلّق الزوج زوجته بالثلاث أصبح طلاقاً بائناً، وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره.

فالأحبار والرهبان كانوا يتحكّمون بالطلاق والزواج، ونحن نشاهد مقدار المفاسد التي تترتّب على بعض الزيجات، فربما لا تنسجم حياة الرجل مع المرأة، فلابد من الطلاق حينها، صحيح أنه أبغض الحلال عند الله [٣]، لكن إذا تعذّرت الحياة فلابدّ منه.

إذن فبيان الحلال والحرام من اختصاص السماء وليس من اختصاصنا نحن، فالعرب مثلاً كانوا يتحكّمون بالسوائب والفواصل، فالبعير إذا خرج من ظهره

(١) الأُم ٥: ١٢٤، الشرح الكبير ٢: ٤٠٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٧٩.
(٢) مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.
(٣) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

عشرة اعتبروه سائبة فلا يأكلونه، ويقولون: إنه حامٍ، أي حمىٰ ظهره، وكذلك الحال مع البحيرة التي هي ناقة تلد خمسة بطون، فيبحرون أُذنها، ويرسلونها فلا يستفيدون من لحمها. فهؤلاء كانوا يتحكّمون بهذا، فجاء الدين وقال لهم: إن الله هو الذي يبيّن لكم الحلال والحرام، فشأنه ليس لكم ولا بأيديكم: **﴿قُلْ أَ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾**[(١)].

إن بعض المذاهب الإسلامية تذهب إلى أنه لا يوجد حكم ثابت عند الله، وإنما الحكم ما حكم به المفتي، ونحن نقول: إن الله له حكم في كل واقعة، والفقيه أو المفتي إنما يبحث عن الحكم، فإنّ أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. فالآية الكريمة إذ تقول: **﴿وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ﴾**، فهي إنما تقرّر أن السلطة بيد الله، ولو أنها أُعطيت للإنسان فإنه سيتحكّم بغيره من أبناء جلدته، صعد الحجاج على المنبر وقال: اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلّت لي دماؤهم وأموالهم. والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً[(٢)].

وهذا لون عجيب من التحكّم بعباد الله، وهذا وأمثاله[(٣)] هو الذي دفع بالحسين عليه السلام إلى أن يقف بوجه هذا التيار الجاهلي الذي حاول أن يظهر مرّة أُخرى علىٰ الساحة الإسلامية، ويقف بوجه رسالة السماء، فاستحلّ أصحابه به المحارم،

---

(١) يونس: ٥٩.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٤٠٠ / ٤٦٤٣، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٥٩، البداية والنهاية ٩: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) كفعل مسرف بن عقبة حينما أخذ البيعة ليزيد من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة، حيث إنه كان يقول للمبايع: تبايع علىٰ أنك عبد قِنّ ليزيد. تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

فرأىٰ الحسين عليه السلام أنه لابدّ من جولة للوقوف بوجه الطغيان الذي تحكّم بعباد الله.

من يحمل الكتاب ولا يعمل به

إن الهدف من التمثيل هو تقريب المعنى لذهن السامع، فالمسألة إذا كان فيها خفاء يضرب لها مثل محسوس حتى تقرّب إلى ذهن السامع. فوظيفة المثل تبيانية، ومن الأمثلة التي جاء بها القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ**﴾[1]، فإنه يريد أن يبيّن أن هؤلاء الذين يجمعون أموالهم من السحت والحرام هي أموال أشبه شيء بالنبات اليابس الذي يقع عليه المطر ويحطمه، وتأتي الريح القوية فتأخذه وترميه في الفضاء، فيتبدّد يميناً وشمالاً. فالثروة التي يكون مصدرها الحرام فإنّ مصيرها التبدّد. فالله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً ليقرّبه إلى أذهان الناس.

فالآية الكريمة موضوع المقام نزلت في اليهود الذين حملوا التوراة، أي كلّفوا بحملها، فحمّل الشيء: كلّف به. فالله تعالى حينما حمّلهم التوراة كلّفهم أن يعملوا بمضمونها، فقال لهم: إن التوراة هي دستور الحياة، فيجب عليكم أن تطبّقوا المفاهيم الواردة فيها على ساحة الواقع، فتطبّقوا الحدود والوصايا والنظم التي احتوتها.

فلمّا نزلت التوراة وقرأها الأحبار، رأوا فيها أشياء لا تروقهم، فمثلاً جاء فيها تبشير بالنبي محمد صلى الله عليه وآله، وليس من مصلحتهم أن يدعوا لنبوّته، بل إن عندهم مؤسسات قائمة على اليهودية، تدرّ عليهم أموالاً، وهي مرتبطة بالدولة. وعليه

---

(١) الكهف: ٤٥.

فإنّ مصالحهم ستذهب إذا أخبروا أتباعهم بالأحكام التي تلتقي مع الإسلام، وهم يريدون كياناً متميّزاً. وهنا جاء القرآن الكريم مخبراً عنهم: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾.

إن هذه المسألة لا تخص اليهود فقط، فليسوا هم وحدهم من لم يحملوا مضامين كتابهم، فهناك الكثير ممّن نزل عليهم القرآن ولم يعملوا به، وكأن القرآن نزل للقراءة صباحاً فقط أو لتحلّى به الأعناق للبركة. إن القرآن فيه مضامين عالية علينا أن نطبّقها، فنحن حُمّلنا القرآن للتكليف، وحكمنا عندما نترك القرآن كحكم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة، وسيلحقنا الذمّ. فعلينا أن نعرف مضامين القرآن ولا نقع ضمن دائرة قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**﴾[1]. والعلاقة بين الإعراض عن ذكر الله وبين ضيق المعيشة أن تطبيق مبادئ غير مبادئ القرآن كالرأسمالية والاشتراكية وتطبيق المذاهب ومجموعة النظم الاقتصادية الدخيلة ـ وكلها لا تحلّ أي مشكلة ـ هو الذي يؤدّي إلى حصول هذا الضنك في المعيشة. فلماذا لا نجرب الاقتصاد الإسلامي وننزله إلى الساحة، فنعالج نظريات التوزيع، ونظريات الإنتاج، ونظريات البيع والتبادل، على ضوء النظام الإسلامي، ولنرَ حياتنا هل ستصبح مرفّهة أم لا؟

فنحن نجد الآن في أرقى الدول أُناساً لا يملكون مأوى أو طعاماً، فنجد إنساناً يفترش الأرض ويلتحف السماء، ونجد الجوع منتشراً، ونسمع بالمشاكل الاقتصادية تنتشر في كل مكان في حين أنهم ينفقون الأموال لأجل إطعام كلب وتنظيفه. يحدّثنا التاريخ أن الناس في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز كانوا مكتفين اقتصادياً، فكانت السلطات تأخذ الزكاة من الأغنياء فلا تعثر على

(١) طه: ١٢٤.

مستحقّ لها في بعض المناطق لعدم احتياجهم لذلك.

فهل قمنا بدراسة العلاقة بين الإعراض عن ذكر الله تعالى وبين ضنك العيش في الآية: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾** دراسة جدية وواقعية؟ بل أكثر من هذا نجد أن جامعاتنا لا تدرّس الاقتصاد حسب رأي الإمام الصادق عليه السلام أو رأي أبي حنيفة أو مالك، فلماذا لا نأخذ رأي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وهو رأي الإسلام؟ إن الواجب علينا أن ننظر إلى ما كتبه فقهاء المسلمين حول المسائل التي لها علاقة بالاقتصاد، وأن نضع لنا منهجاً في دراستها.

إذن يوجد عندنا أُناس يحملون القرآن ولا يعرفون مضمونه، بل يوجد أُناس لا يعرفون ماذا يوجد في القرآن، كالبعير يحمل الأثقال ولا يعرف ما هي، فهو يحمل القرآن ولا يعرف نسبته إلى المذاهب الاجتماعية الأُخرى. إن في القرآن أكثر من (٧٠) آية نزلت في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا الأمر تذكره حتى المذاهب الإسلامية الأُخرى[1]، ومع كل هذا نجد من يقول: إن علي بن أبي طالب بدري، وحاطب بن أبي بلتعة بدري أيضاً، أي كلاهما سواء. فصحيح أنهما بدريان، لكن من يقول: إنهما سواء؟ إن من يقول: « **سلوني سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلّا حدثتكم عنها بمن نزلت بليل أو بنهار، أو في مقام أو في سهل أو في جبل، وفيمن نزلت؛ أفي مؤمن أو منافق** »[2]، هل يمكن أن نضعه في مصافّ من لا يعرف أبسط الأحكام؟

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزل في علي ثلاثمئة آية». الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ٢٣١، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧٢، نور الأبصار: ٧٣، إسعاف الراغبين: ١٦٠.

(٢) سعد السعود: ١٠٩، وهو عليه السلام القائل: «أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض». نهج البلاغة / الكلام: ١٨٩.

وصحيح أن حاطباً له صحبة لكنه ارتكب خطأ كبيراً حينما أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يفتح مكّة، فقد كانت عائلة حاطب بن أبي بلتعة في مكّة، فعرف أن النبي صلى الله عليه وآله سيفتح مكّة فأراد أن يفعل جميلاً لقريش، فيخبرهم أن النبي صلى الله عليه وآله استعدّ لغزوهم؛ حتى يحفظوا له الجميل، ولا يؤذوا عائلته.

فكتب رسالة وأعطاها لسارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، وكتب فيها: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم.

فأخذت الرسالة ووضعتها في عقيصتها (شعر رأسها) وخرجت، فهبط جبرائيل عليه السلام، وأخبر النبي صلى الله عليه وآله بما فعل حاطب، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك. فعادوا إلى النبي صلى الله عليه وآله فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر والزبير وطلحة، وكانوا كلّهم فرساناً، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ**[1]**، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها**».

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال الإمام علي عليه السلام: «**والله ما كَذبنا، ولا كُذبنا**». ثم سلّ سيفه في وجهها وقال لها: «**أخرجي الكتاب وإلّا والله لأضربن عنقك**». فلما رأت الجدّ عند أمير المؤمنين عليه السلام، أخرجته من ذؤابتها وأعطته إيّاه، فرجعوا به إلى

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. وذكر في أحماء المدينة، والأحماء: جمع حمي، وهي التي حماها النبي صلى الله عليه وآله والخلفاء بعده. معجم البلدان ٢: ٣٣٥ ـ خاخ.

رسول اللّهﷺ.

فأرسلﷺ إلى حاطب فأتاه، فقال له: «**هل تعرف الكتاب؟**». قال: نعم. قال: «**فما حملك على ما صنعت؟**». قال: يا رسول اللّه، والله ماكفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكّة من يمنعه، وهم عشيرته، وكنت عريراً فيهم ـ أي غريباً[1] ـ وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول اللهﷺ وعذره، وقال له: «**قم، فقد وكلتك إلى ظاهر إسلامك**»[2].

فهذا يخاف من أن تتعرّض عائلته إلى سوء، فأين هذا من الذي يصبح عليه الصباح وقد شهر سيفه بوجه الكفر وأخذ يضربهم يميناً وشمالاً حينما بات في فراش رسول الله؟ وهو يعرف ما الذي ستتعرّض له عائلته، لقد تعرضت عائلة علي بن أبي طالبؑ للإبادة، فكان الأُمويون يواجهون قبر النبيﷺ ويقولون: يا محمّد، ثار بثارات بدر.. بدر التي قتل فيها الإمام عليؑ (٣٥) بسيفه، والجيش الإسلامي والملائكة قتلوا (٣٥)، فهل كلاهما سواء؟

يجب أن يكون عندنا مقاييس علمية وموضوعيّة، ونحن بهذا الشكل لا نعمل بمضامين القرآن. كان مروان بن أبي حفصة يقول:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيّدها إلا كعلم الأباعرِ

لعمرك ما يدري المطي إذا غدا ... بأسفاره إذ راح ما في الغرائرِ[3]

---

(١) لسان العرب ٢: ٧٤٤ ـ عرر.

(٢) مجمع البيان ٩: ٤٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٥٠.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٨، تفسير الثعلبي ٩: ٣٠٧، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٩٥.

فالبعير لا يدري بالغرائر، لكن أنت يا مروان إذ تنتقد هؤلاء، هل أنت أفضل منهم؟ وهل أنت تحسن أن تحمل القرآن وتعمل بمضمونه؟ إنك تعرف ظلم العباسيّين وجورهم، فكيف تخاطب الرشيد بقولك:

خليفةَ الله إنَّ الجودَ أوديةٌ ... أحلَّك اللهُ منها حيث تجتمعُ
إن أخلفَ الغيثُ لم تخلف مخائلُه ... أو ضاق شيءٌ ذكرناه فيتسعُ
من لم يكن ببني العباس مُعتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ[1]

فأين علمك الذي حملته بصدرك؟ إن هذه هي مصيبتنا، وهذه ظاهرة عامة، يرى أحدنا القذى في عين غيره ولا يرى الجذعة في عينه.

فالمسألة لا تقتصر على التوراة، بل تشمل حتى حامل القرآن، فهو معرّض لمؤاخذة عند عدم العمل به، فالقرآن إمامنا ومرشدنا ومصدر حضارتنا، فعلينا أن نأخذ من مضامين القرآن الذي ملأ كل أركان الحياة.

فالقرآن حياة المجتمع، وعندما نزل فإنه نزل على أُناس أموات؛ فلا علم ولا أخلاق ولا استقامة، فبعثهم وأحياهم من جديد. فعلينا الآن أن نتعلم ونحيي المجتمع بأن نأخذ من تعاليمه وآدابه وأخلاقه.

هل ترفع الحدود في الدنيا عذاب الآخرة؟

إن هناك خلافاً بين الفقهاء حول من يُقتصّ منه في الدنيا؛ هل إنه يعاقب على جريمته في الآخرة، أم لا؟ وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من معرفة أن هناك حقوقاً خاصّة وحقوقاً عامّة، فالسارق حينما يردّ المبلغ الذي سرقه يسقط الحقّ الخاصّ، لكن هذا لا يعني أن الأمر قد انتهى عند هذا الحدّ؛ إذ أنه يتبقّى في ذمّته

(١) لم نعثر عليها لمروان، بل لمنصور النمري. انظر تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢، ١٣: ٦٩.

الحقّ العامّ، وهو حقّ الهيئة الإنسانية. فالسارق عمل على الاستهانة بحقوق الآخرين والاعتداء على الناس وعلى حقّهم العام، وهذا ما يعبّر عنه الفقهاء بحقّ الله عزّ وجلّ. فالذي يعتدي على حقّ غيره، ويردّه إليه في الدنيا يجب أن يعلم أن وراءه رقابة إلهيّة وملاحقة يتبنّاها الله عزّ وجل.

إن الإنسان ضخم بعقله، فلا يستهِن بحقوق الناس، وعلى قدر عقله يكون تكليفه وحسابه، فـ: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسَاً إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾[١]، فالجاهل غير العالم، أي أن العالم الذي يعتدي على غيره يكون عقابه مضاعفاً[٢]؛ ولذا فقد ورد في الأثر أن «ذنب العالِم كالعالَم»[٣]؛ لأن المفترض بالعالم أنه هو الذي يهذّب الجاهل ويعلّمه. ولكننا الآن لا نجد من هذا شيئاً؛ ذلك أن هناك علماء ذوي ثقافة وإدراك لكنهم أسرع من غيرهم إلى ارتكاب الجريمة.

إذا لم يزد علمُ الفتى قلبَه هدى ... وسيرتُه عدلاً وأخلاقُه حسنا

فبشّره أن الله أولاه فتنة ... تغشّيه حرماناً وتوسعه حزنا[٤]

وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾[٥]. فمثل هذا سواء كان عنده علم أو لم يكن عنده علم، فهو على حدّ سواء؛ لأنه لم يستفد من علمه، مع أن المفروض أن يأخذ العلم أثره من السلوك في العمل، وأن يأخذ بيده إلى الصواب.

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) انظر شرح أُصول الكافي (المازندراني) ٢: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣) وقال الصادق عليه السلام: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد». الكافي ١: ٤٧ / ١: وأرسله في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦: ٤٨٠ / ٩٦٥٧ عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله.

(٤) شرح رسالة الحقوق: ٥٠٩.

(٥) الأعراف: ١٧٦.

العفو عند المقدرة والمثليّة في القصاص

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، هناك قاعدة أُصولية تقول: «إن المورد لا يخصّص الوارد» [١]، أي أنه إذا أُنزلت آية في موضوع خاصّ فإنها لا يقصر حكمها على ذلك الموضوع، بل لنا أن نعدّيَه إلى كلّ ما يتوفّر فيه وحدة الملاك، فمثلا قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[٢]، نزل بسبب سارق بعينه، لكن ليس معناه أن هذا السارق فقط تقطع يده، بل إن كلّ من يسرق تقطع يده، فالآية الكريمة حكمها عام. وكذا آية المقام: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فإن فيها عموماً، فليس الاعتداء في الشهر الحرام فقط هو المسوّغ للردّ عليه، بل إنها شاملة لكلّ اعتداء حتى لو كان في غير الشهر الحرام.

وربما يقول قائل: ألا يتناقض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٣]؟

ويجاب بأن هذا لا ينفي حقّ المعتدى عليه في الردّ، فهو يملك حق ردّ الاعتداء لكن لا يجب عليه تنفيذه، أي أنه يجوز له أن يترك هذا الحقّ، ويجوز له أن يردّ الاعتداء. فترك الاعتداء من حسن الخلق لكن ينبغي ألّا يتحوّل إلى حالة من الضعف، كما أنه أمر يتبع المزاج، فهناك من يطغى عليه مزاج الردّ:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا[٤]

---

(١) جواهر الكلام ١: ٢١٥، حقائق الأُصول ٢: ٤١٢.

(٢) المائدة: ٣٨.

(٣) فصلت: ٣٤.

(٤) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. آمالي السيد المرتضىٰ ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة

في حين أننا نجد مقابله مزاجاً يذوب رقّة ورحمة، فيقول صاحبه:

إنـي شكـرت لظـالمي ظـلمي ... وغـفـرت ذاك له عـلـى عـلمي

ورأيـــته أســدى إليَّ يـداً ... لمـــا أبـان بـجهله حـلمي

رجـعت إسـاءته إليـه وإحـ ... ـساني فعاد مضاعف الجرمِ

ورجـعت ذا أجـرٍ ومـحمدةٍ ... وغـدا بكسب الوزر والإثـمِ

مـــازال يـظلمني فأرحـمه ... حتى بكيت له مـن الظـلمِ(١)

إذن فالأمر في الآية الكريمة: ﴿**فَاعْتَدُوا عَلَيْه**﴾ هو للإباحة لا للوجوب، أي أن المعتدى عليه يملك الحقّ في ردّ الاعتداء، فهو بالخَيار إن شاء اقتصّ وإن شاء عفا وقابل بالإحسان.

موقف الإمام السجّاد عليه السلام من مروان

وهناك في تاريخنا أمثلة سامية في عدم مقابلة الإساءة بمثلها، فمثلاً مروان بن الحكم الذي لم يُسئ أحد من المسلمين إلى الإسلام بقدر ما أساء إليه هو، فقد خلق ألف مشكلة للإسلام، كما أنه هو الذي سبّب مشكلة للخليفة الثالث مع الناس ممّا أدّى إلى مصرعه، وخلق حالة من الشقاق بين المسلمين(٢). وهو الذي كان يضرب رأس الإمام الحسين عليه السلام بالعصا ومع ذلك فإنه حينما حدثت الثورة على الأُمويّين في المدينة وقف الإمام زين العابدين يحمي عائلته وعوائل الأُمويّين. فأين يمكن أن نجد مثل هذا الخلق العالي؟ لقد كان الإمام عليه السلام يصلهم بالطعام،

☚ ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦.

(١) الأبيات لمحمود الورّاق. شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣: ٣٩٧، الإمامة والسياسة ١: ٣٥، شرح نهج البلاغة ٢: ١٤٦ ـ ١٤٨، ٩: ٢٦.

ويوفّر لهم الحماية ويأمر أبناءه بذلك[١].

فهذه مشاعر آل محمد صلى الله عليه وآله التي تترفّع على الحقد. وكان بعض الجماعة يسيئون للإمام علي عليه السلام، فيشتمونه تحت منبره، وقد قال لهم مرّة وهو على المنبر: «**أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم إوَدكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي**»[٢]. فيسكت عنهم ويسامحهم، ولكن الجاهل لا يعي أن العفو عفو، وإنما يسميه ضعفاً، مع أن على الإنسان أن يصنع الفضيلة للفضيلة.

ثم إن الاعتداء يجب ان يأخذ صفة المماثلة، فلا تجمح العاطفة بالإنسان فيتعدّى الحدود المشروعة في الاقتصاص، قتل ولد لأحد من بني تميم، فلما جاءه أهل القاتل ليدفعوا له الدية، قال: أنا أُخيّركم إحدى ثلاث: أن تعيدوا لي ولدي حيّاً. فقالوا: إن هذا غير ممكن. فقال: إذن عليكم أن تُنزلوا لي نجماً من السماء. فقالوا: وهذا غير ممكن كذلك. فقال: إذن أبيدكم عن آخركم، فإن قطرة واحدة من دمه تعدل دماءكم كلّها. فعاطفة هذا الأب جامحة، وهو في حالة غضب كذلك؛ ولذا طلب منهم ما طلب، لكنه يتعارض مع ضوابط الإسلام والإنسانيّة.

فالقرآن الكريم يريد أن يقيّد هذه العواطف الجامحة، فأمر بأن تراعى المثليّة في القصاص، فلا ينتقل إلى حكم آخر إلّا إذا لم يكن بالإمكان إحراز المماثلة، كالضرب مثلاً؛ فإنه إذا خيف أن يفقد المقتصّ منه سمعه أو بصره مثلاً عند الاقتصاص منه، فليس من المعلوم أن يسلما له إن هو ضُرب، فحينها ينتقل إلى حكم آخر كما قلنا. فالمماثلة أُوجدت لحفظ النظام وكيلا تكون حياة المجتمع غابة يأكل أبناؤها بعضهم بعضاً.

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.
(٢) الكافي ٨: ٣٦١ / ٥٥١.

حرمة الأشهر الحرم عند المسلمين

إذن فالله تعالى أكّد على حرمة هذه الأشهر فلا يسفك فيها دم ولا يعتدى فيها على أحد، وكان العرب يحترمونها كذلك وإن كانت هناك بعض الخروقات المعلّلة بالنسيء الذي حرّمه الله تعالى، ولكننا مع ذلك نجد أنه قد اعتدي في أحدها على قدسيّة حامل الرسالة ﷺ، وعلى عائلته.

وهذا الأمر غير متوقّع في تاريخ الإسلام، فالفترة بين بعثة النبي ﷺ وبين واقعة الطفّ كانت قليلة، فهي بحدود (٦٠) سنة، أي أن من أبنائها الجيل عينه الذي عايش النبي الأكرم ﷺ، فقد كان مع الإمام الحسين عليه السلام قسم من صحابة رسول الله ﷺ، ومع هذا فقد فُعل به ما فُعل، مع أن الرسول الأكرم ﷺ جاء منقذاً؛ فقد كانت الجزيرة عند نقطة الصفر من الناحية الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهذا المقطع من خطبة الزهراء عليها السلام يوضّح حياتهم خير توضيح، تقول عليها السلام: «**وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق فأنقذكم اللّه بأبي محمد ﷺ منها**»[1]. فقد كانوا يأخذون دم الذبيحة ويشربونه، ويشربون الطرق، وهو الماء الآسن الذي تبول فيه الإبل، ويزدحمون على البئر الواحدة؛ فتسفك الدماء وتسقط في البئر، فيضطرون لشرب مائه، ولمّا جاء الإسلام بدّل ذلك الخباء الممزّق الذي عبّرت عنه ميسون بقولها:

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ[2]

فالبيت تلعب الريح فيه، ولمّا جاء الإسلام استبدله بعروش كسرى وقيصر، فأوطأهم إيّاها، وجعل الأنهار تجري من بين أيديهم، وفتحوا الدنيا بأكملها،

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٥.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٣٣ ـ ١٣٤.

ووضعت بين أيديهم أنواع الأطعمة، ونالوا الكنوز العظيمة. هذا من الناحية المادّيّة أمّا من ناحية أُخرى فقد استطاع أن يجعل منهم عباقرة ينظر إليهم التاريخ بإعجاب. فهل جزاء ذلك كلّه الاعتداءُ على أبناء رسول الله ﷺ بعد أن رحل عنهم؟ إننا نعرف مدى حرمة الدم في الإسلام، فكيف إذا كان دم النبي ﷺ نفسه؟ حينما جاؤوا بالرؤوس إلى الشام اختفى خالد بن معدان ـ وهو من الفقهاء ـ فكان يجلس في بيته ويردّد:

جاؤوا برأسك يابن بنت محمد　　متزمّلاً بدمائه تزميلا

ويهلّلون بأن قتلت وإنما　　قتلوا بك التكبير والتهليلا[1]

فهو يعجب كيف أنهم قتلوه فأراقوا به دم النبي ﷺ. وكان الشافعي يقول:

تأوّه قلبي والفؤادُ كئيبُ　　وأُرّق نومي فالسهاد عجيبُ

ذبيح بلا جرم كأن قميصه　　صبيغ بماء الأرجوان خضيبُ

فمن مبلغ عني الحسين رسالة　　وإن كرهتها أنفس وقلوبُ[2]

فكان يندب الإمام الحسين عليه السلام ويبكيه أشدّ البكاء. وكان الحسن البصري يقول: «أذلّ الله أُمّةً قتلت ابن بنت نبيها»[3].

فهؤلاء كان عندهم ضمير يقدّر الواقعة، في حين أن البعض يقول: إن الحسين خرج على إمامه وقتل، بل أكثر من هذا نجد أن ابن العربي يقول: «إن الحسين قتل

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٣ تهذيب الكمال ٦: ٤٤٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٩، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٣ / ١٢، ٢٧٣ - ٢٧٤، معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول عليهم السلام (الزرندي الشافعي): ١٠١، ينابيع المودّة ٣: ٤٨ - ٤٩. انظر محاضرة (السبط المخلّد عليه السلام) ج ٨ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٣) ينابيع المودَّة ٢: ٣٩٨.

بسيف جدّه؛ حيث إن جدّه صلى الله عليه وآله حمل القرآن، والقران يقول: ﴿**فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي**﴾[(١)]... »[(٢)]. وهذا كلام غريب؛ فهل إن الإمام الحسين عليه السلام باغٍ؟ إنه الحسين الذي عبّر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه « **سيّد شباب أهل الجنّة** »[(٣)].

ثم إنه صلى الله عليه وآله ألم يكن يعرف أنه سيقاتل حينما قال فيه ما قال؟ فهل يريد هذا المعترض أن يصحّح لرسول الله صلى الله عليه وآله رأيه؟ إن هذا الأمر من الثغرات العجيبة في تاريخنا، ولابدّ من ملئها، ومن عودة المسلمين جميعاً لأُسس الإسلام.

وكما قلنا فإن من المفارقات الغريبة في تاريخنا أن هذا الشهر الحرام تنتهك حرمته، وبمن؟ بدماء أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله[(٤)]؛ ولذلك فإن شهر المحرم إذا مرّ أخذ من قلوب أهل البيت عليهم السلام، كان الإمام الباقر عليه السلام يدخل عليه الشعراء والخطباء فيردّدون واقعة الطف بقصيدة أو كلمة، وكان الإمام الصادق والكاظم والرضا عليهم السلام كذلك، وحذا شيعتهم حذوهم في هذا، وكانوا عليهم السلام يؤكّدون على هذا، ويأمرون به: «**أحيوا أمرنا؛ رحم الله من أحيا أمرنا**»[(٥)]. فما هو الهدف من ذلك؟ ولماذا يصرّ الإمام الصادق عليه السلام على أن يستعيد واقعة الطفّ؟ إن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن دمعة فقط، وإنما كان سيفاً، ولا يصحّ أن يُحوّل السيف إلى دمعة؟ يقول الأديب:

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

(٣) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، شرح النووي على صحيح مسلم ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٤) قال الشاعر:

قتلوا الحرامَ من الأيمّـ ـة في الحرامِ من الشهورِ

مثير الأحزان: ٦١.

(٥) الخصال: ٢٢ / ٧٧، الأمالي (الطوسي): ١٣٥ / ٢١٨.

أبـا الثـورة الكـبرى صـليلُ سـيوفها نشـيدٌ بأبـعاد الخـلود مُـرجَّـعُ
تُشـير وإيـماضُ القـواضب مشـعلٌ وتـحدو بـركب الثـائرين فـيتبعُ
أبـا الطـف مـا جـئنا لنـبني بـلفظنا لمـعناك صَـرحاً إن مـعناك أرفـعُ
مـتى بـنت الألفـاظُ صـرحاً وإنـما الـ ـصروح بـمقدود الجـماجم تُـرفعُ
ألا إن بُـرداً مـن جـراحٍ لبسـته بـنى لك مـجداً مـن جـراحك يُـصنعُ
وضـعناك فـي الأعـناق حِـرزاً وإنـما خُـلقت لكـي تُـنضى حسـاماً فـتُشرعُ
وصُـغناك مـن دمـعٍ وتـلك نـفوسنا نـصوِّرها لا أنت إنّك أرفـعُ[١]

إن الإمام عليه السلام ليس بحاجة لأن تحشد كلّ تلك الناس لأجل دمعة، فالدمع إفراز طبيعي عند تأجّج العاطفة، كما أن «**أحيوا أمرنا**» لا يكون بالبكاء، لقد كان الإمام يودّ أن يجعل من الحسين عليه السلام أُنشودة ومثلاً؛ لأنه رفع مبادئ الإسلام، ووقف يصارع مبادئ الجاهليّة، ليُخرج المسلم من قوقعته وليقف ثائراً بوجه الظلم، وليرفع كلمة «**لا إله إلّا الله**»، ومن أجل حرّيّته. فوقعة الحرّة بيّنت الموقف الحقيقي والشائن للأُمويين من المسلمين، حيث فرضوا عليهم أن يبايعوا كعبيد أقنان ليزيد[٢]، أي أن يزيد يتحكّم بدمائهم وأموالهم وأعراضهم. وهذا ما لا يرتضيه الإسلام للإنسان، فهو مكرّم عنده ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[٣].

كان عمر بن عبد العزيز يأخذ الأموال من بني أُميّة ويرجعها الى الناس، فتقول له عمّته: ألا تخشى منهم؟ قال لها: «كل يوم دون يوم القيامة لا أخشاه»[٤]. فهؤلاء نهبوا أموال المسلمين وسأُرجعها إلى أهلها.

فالأموال سرقت، والأعراض والدماء انتهكت، فقد قتل بسر بن أرطاة (٣٠)

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٣٢.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) الإسراء: ٧٠.
(٤) انظر الطبقات الكبرى ٥: ٣٩٨.

ألفاً في يوم واحد، كما ذكرنا أول المحاضرة، حتى قام عقيبة الأسدي وقال:

مـــعاويَ إنـــنا بشـــرٌ فـــأسجِحْ فـــلسنا بـــالجبالِ ولا الحـــديدِ
أكـــلتم أرضَـــنا فـــجردتموها فـــهل مـــن قـائمٍ أو مـن حـصيدِ
ذروا جـــورَ الإمـــارةِ واســتقيموا وتـــأميراً عـــلى النـــاس العـبيدِ
فـــهبنا أُمّـــةً ذهـــبت ضـــياعاً يـــزيدُ أمـــيرُها وأبـــو يـــزيدِ
أتـــطمعُ فـــي الخـــلافةِ إذ هـلكنا وليس لنـــا ولا لك مـــن خـــلودِ
وأعـــطونا الســـويّةَ لا تـــزرْكـم جـــنودٌ مـــردفاتٌ بـــالجنودِ[1]

فالإمام الحسين عليه السلام خرج ليقارع الظلم، وليصارع قيم الجاهلية؛ فهو أكبر من أن يعامل بالدموع، لكن يبقى الدمع يفرز عندما تمرّ الواقعة شئنا أم أبينا، فـنحن حينما ندرس الواقعة وننتهي إلى نتيجة هي أن واقعة الطفّ جعلت بيوت النبي صلى الله عليه وآله خالية، فإن الإنسان حينئذٍ لا يمكن أن يتمالك دمعه دون أن يتركه يسـيل مـن عينيه، ورحم الله سليمان بن قتّة إذ مرّ بديار الحسين عليه السلام ورآها خالية فأنشد:

مـــررت عـــلى أبـــياتِ آلِ مـحمدٍ فـــلم أرَهـــا أمـــثالَها يـومَ حـلّتِ
ألم تـرَ أن الشـمسَ أضـحت مـريضةً لفـــقدِ حســـينٍ والبـلادَ اقشـعرّتِ
وكـــانوا رجـاء ثـم صـاروا رزيـةً لقـد عـظمت تـلك الرزايـا وجـلّتِ
وإن قـــتيلَ الطـــفِّ مـن آلِ هـاشمٍ أذلّ رقـــابَ المســـلمين فـــذلّتِ[2]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٧.
(٢) أُسد الغابة ٢: ٢١، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٨.

من مسائل الفقه الدولي
«القانون الدولي الإسلامي»

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في سبب نزول الآية الكريمة

هناك مجموعة من الأُمور التي ترتّبت على صلح الحديبية شكّلت بجملتها سبب نزول هذه الآية الكريمة، وهي بهذا ترتبط بمنظومة الفقه الدولي في الإسلام. وسبب النزول هو أن الرسول الأكرمﷺ خرج معتمراً في السنة السادسة للهجرة الشريفة، وكان معه من الصحابة (١٤٠٠) صحابي، خرجوا يسوقون معهم (٧٠٠) ناقة لينحروها في الهدي. ولمّا دخلوا الحديبية وصل الخبر إلى أبي سفيان الذي جمع قريشاً وقال لهم: لابدّ من منع محمّد من دخول مكّة. مبيّناً لهم أنهﷺ إنما يتحدّاهم بهذا، ثم جمع الخيّالة، وكان عليهم يومئذٍ خالد بن الوليد، فأقبلوا حتى وصلوا الحديبية، وبدأت الرسل بينهم، فبعثت قريش سفراءها، وفيهم عروة بن مسعود ـ وهو جدّ علي الأكبر لأُمّه، وجدّ المختار بن أبي عبيد ـ ومعه آخر، فقالوا للنبيﷺ: لا سبيل إلى دخولك مكّة.

فأخبرهم رسولنا الأكرمﷺ أنه لم يأتِ للحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت

(١) الفتح: ٢٥.

ومعظّماً لحرمته، وأنه ﷺ يريد أن ينحر الهدي ويرجع. ثم أرسل ﷺ عثمان بن عفّان إلى مكّة فاحتبسته قريش وانقطع خبره، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**». ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت. فنزل قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحَاً قَرِيباً**﴾[١]، فسميت «بيعة الرضوان» و«بيعة الشجرة»[٢].

وكان عروة بن مسعود ممّن وفد إلى الرسول ﷺ في هذا الصلح، ولمّا رجع لأصحابه قال مخاطباً إياهم: أي قوم؟ والله لقد وفدت إلى الملوك ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمداً. ووالله إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها وأجمعوا أمركم[٣].

فهو يؤكّد لهم أن هؤلاء كانوا بمجرّد أن يتوجّه ﷺ إلى وضوئه يتهالكون على تناول وضوئه، وإذا أراد شيئاً أسرعوا بأجمعهم إلى قضائه له، وأنه رأى من الالتفاف حوله ما لا نظير له، وأنهم مستميتون دونه، فعليهم أن يحسبوا لهذا حساباً، وأن يقرّروا فيه رأيهم.

وبهذا تغيّر وضع قريش، وقرّروا الصلح مع الرسول الأكرم ﷺ، فأعادوا عروة والوفد الذي كان معه إليه ﷺ، فتمّ الاتفاق بينهم على أن يرجع رسول اللّه ﷺ عامه هذا، وله أن يأتي بمن معه في السنة التالية للحجّ. ورأى النبي ﷺ في هذا

(١) الفتح: ١٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.
(٣) صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

الأمر حقناً للدماء وتحقيقاً لأهداف معينة، فوافق على الصلح، ونحر الإبل (هدي التحليل)، ورجع بأصحابه، ورجعت قريش إلى مكّة. فالآية إذن نزلت لتشرح بعض المواقف لهذا الصلح.

المبحث الثاني: أن في التشريع الإسلامي قوانين دولية

وهذه الآية ترتبط بالقانون الدولي العام كما ذكرنا، وممّا يؤسف له، ويدمي القلوب ذكره أنّ فقهاء القانون عندهم عقدة من الدين الإسلامي وشريعته، فيتّهمونه بأنه ليس في تشريعاته وقوانينه أي ذكر لنظام أو قانون دولي يتعامل بموجبه مع الآخرين. وهم يعزون ذلك إلى الأسباب التالية:

السبب الأوّل: أن لغة الإسلام هي العربية

فهؤلاء يقولون: إن لغة الإسلام الرسمية هي العربية؛ لأنها لغة القرآن والسنة والعبادة والمعاملة، واللغة العربية تمتاز بأنها لغة فيها قسر وإكراه ونوع من الجبر، أي ليس فيها أيّ مرونة أو روح دولية. والروح الدولية يفترض فيها ألّا تتّسم بطابع الإكراه، أو بنوع من القسر مطلقاً كهذا الذي تتّصف به اللغة العربية، وهو الأمر الذي يبعدها عن أن تكون لغة التشريعات والنظم والقوانين الدولية.

مناقشة السبب الأوّل

إنّ هؤلاء قد نسوا أن القانون الدولي نفسه هو قانون يقوم على الإكراه، ولا سبيل إلى تطبيقه دون اللجوء إلى الإكراه، وكمثال على ذلك مجالات تطبيق القانون الدولي على مجريات الحروب وتنفيذه فيها كما في معاهدة «لاهاي»، فإن بنودها تحتاج إلى القوّة والإكراه لتطبيقها وتنفيذها سيما مع مجرمي الحروب، وكذلك الحال في الكثير من الأُمور التي تسنّها الأُمم المتّحدة ولا تجد آذاناً صاغية أو تجاوباً من الطرف المعني؛ وحينها فإن هذه القرارات تنفّذ بالقوة والإكراه. والمشرّع الإسلامي لم يخرج عن هذا الحد؛ وعليه فاللغة التي يستخدمها في الفقه الدولي لابدّ أن تكون مدعّمة بالقوّة حتى يتاح له تنفيذ أحكامه

وقوانينه.

السبب الثاني: أن الإسلام لا يقوم على مبدأ المساواة

وهذا الإشكال قائم على دعوى أنّ الإسلام يميّز المسلمين عن غيرهم من الشعوب وأهل الأديان الأُخرى، ويعطيهم من الحقوق ما لا يعطيه لهؤلاء، في حين أنّ القانون الدولي يضمن هذه الجنبة لجميع الناس باختلاف أطيافهم وألوانهم وشرائحهم، فهو يتعامل بمبدأ المساواة مع الجميع.

مناقشة السبب الثاني

ولنا أن نسأل: هل إنّ هذا التمايز هو في أصل المنشأ والخلقة، أم في أصل التعامل؟ الواضح للعيان والحقيقة التي لا غبار عليها من خلال ملاحظة نصوص الشريعة أنه ليس هناك أي تمايز بين الناس من جهة أصل المنشأ والخلقة؛ فالنص التشريعي يعلن ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1]. فليس هناك تفاوت في أصل المنشأ والخلقة في الشريعة الإسلامية.

ثم إن القانون الدولي نفسه أليس قائماً على أساس التمايز؟ وإلّا فبأي حقّ تُعطى خمس دول هي أمريكا وبريطانيا وفرنسا والصين وروسيا عضويةً دائمة في مجلس الأمن؟ أليس في هذا تمايز، وتمييز بين الدول والشعوب؟ وهذه الدول كما هو معلوم لها حق «veto» ضدّ أي قرار لا ترتضيه سياستها وإن كان فيه مصلحة لغيرها من الدول.

فهل من الصواب أن تلصق هذه التهمة بالإسلام مع أنّ القانون الدولي قائم عليها؟

(١) الحجرات: ١٣.

السبب الثالث: خصوصية الشريعة الإسلامية

يدّعي هؤلاء أنّ الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون أساساً للقانون الدولي أو مقننة له ولا تصلح لذلك؛ لأنها مطبوعة بطابع الدين، ومعنى هذا أنّها للمسلمين فقط الذين يدينون بها دون غيرهم من أبناء الطوائف والأديان الأُخرىٰ. أمّا القانون الدولي فيراد له أن يكون عالميّاً عامّاً يشمل كل أبناء البشر.

مناقشة السبب الثالث

وهذه مغالطة؛ لأنّ الشريعة الإسلامية والقانون الدولي يستهدفان شيئاً واحداً هو السير بالإنسانية نحو التكامل، ورفع مستواها. فالشريعة الإسلامية تعالج الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والجانب الجنائي عند الإنسان؛ حيث ترتفع به عن مستوى الغرائز، وتدفعه إلى التكامل.

إذن يتّضح مما مرّ أنّ جميع العناصر التي يطلبها القانون الدولي ميسّرة في الإسلام.

القانون الدولي الإسلامي

هو مجموعة من القواعد والنظم التي تفرض على المسلمين التعامل مع غير المسلمين داخل البلاد الإسلامية وخارجها.

فالآية إذن ـ وفق هذا المنظار ـ ترتبط بالفقه الدولي العامّ، وتنظّم علاقات المسلمين مع غيرهم.

مشروعية التقية ومراعاة حرمة المسلم

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ**﴾، وهي تشير إلى جماعة من المؤمنين قد أخفوا أنفسهم عن قريش

خشية أن ينالهم أذاها؛كسهل بن جندل، وابن أبي ربيعة، وهشام،ومجموعة من النساء. فهؤلاء كانوا يرون أنهم إذا أعلنوا إيمانهم فإن قريشاً لن يمنعها مانع ولن يردعها وازع عن أن تمتد ايديها إليهم بالعذاب وأن تعرضهم للموت. وهم يعلمون أن الروّاد الأوائل قد تعرضوا إلى مستويات مرعبة من التعذيب.

وهذا المقطع من الآية الكريمة يعالج جانبين مهمين:

الأوّل: مسألة التقية

فهؤلاء قد أخفوا أنفسهم خوفاً من قريش، وحسب تعبير الآية ﴿**لَمْ تَعْلَمُوهُمْ**﴾. ونفهم من هذا أنّ الإنسان إذا ما اضطرّ فله أن يستعمل التقية. فلو كان عملهم هذا غير مشروع لأرسل إليهم النبي ﷺ وقال: أعلنوا إسلامكم. إنّ المذاهب الإسلامية بأجمعها تقول بالتقية، وعند الرجوع إلى تاريخنا وقواعدنا الشرعية نجد أنهما يدفعان الإنسان دفعاً إلى التقيّة فيما لو وقع بين أُناس لا يملكون حرّية الرأي، حيث إنّه يضطرّ حينها إلى أن يبطن خلاف ما يظهر؛ حفظاً لنفسه[1]. وهنا تقدّر الضرورة بقدرها، فهذا المعنى استعمله الصحابة وأقرّهم النبي ﷺ عليه.

ومما هو غير واقعي بحال أن يأتي بعض الكتاب الذين لا تُلمس على أقلامهم أيّ روح إسلاميّة فيعالجوا هذا الموضوع باستعراض العضلات، وما ذلك إلّا لأنهم لم يمرّوا بالتجربة التي مرّ بها القائلون بالتقية، حيث إن القائلين بالتقية كانوا قد عايشوا المذابح التي كانت تجري من غير سبب ودونما وازع أو مانع من أمر اللّه تعالى أو ضمير حيّ. وما يثار حولنا من نقاط تعتبر موجبة للاتّهام من وجهة نظر هؤلاء هي إثارات منكرة وواهية لا تستند إلى أي دليل. ومن هذه الإثارات

---

(١) انظر: واصل بن عطاء مع الخوارج في محاضرة (الجوار في الإسلام) ج ١ من موسوعة محاضرات الوائلي.

اتّهامنا ورمينا بأننا نقول بأنّ أُمّ المؤمنين عائشة زوج النبي ﷺ كانت منحرفة، ونحن نتحدّى هذا المتّهم بأن يجيئنا بمصدر واحد معتبر من مصادرنا يشير إلى هذا المعنى. فهذا اللون من التهم ينمّ عن سوء طويّة وخبث سريرة، وإلّا فإننا لا يمكن أن نتجرّأ على زوجة رسول اللّه ﷺ بمثل هذا؛ لأنّه تجرّؤ على مقام رسول اللّه ﷺ وخدش لمنزلته وانتقاص من كرامته.

وكان ما سوّد وجه تاريخنا هو وجود فتاوى طويلة عريضة ذهب بسببها الكثير من الخلق، ومن يرد أن يطّلع على هذا فلينظر كتاب ابن عابدين (الفتاوى الحامدية) وليدقّق في حيثيتها ومدركها، فقد أمر بقتل الشيعة لأنّهم كما يدّعي يلوكون في سيرة أم المؤمنين عائشة ويرمونها بالانحراف [1].

ونحن نخاطب هؤلاء كمسلمين ونقول لهم: أين يوجد هذا؟ ولماذا تحاولون أن تمزّقوا وحدة المسلمين.

إذن فالإنسان حينما يعيش مع أمثال هذه النماذج وبينهم فإنه يضطر إلى العمل بالتقيّة. وهذا العمل له مداركه في التشريع الإسلامي، قال تعالىٰ: ﴿**لاَ يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾[2]. جاء الحجّاج بن علّاط السلمي مرّة للنبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن لي بمكّة مالاً، وإن لي بها أهلاً أُريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء [3].

---

(١) انظر الفصول المهمّة (شرف الدين): ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) آل عمران: ٢٨.

(٣) بحار الأنوار ٢١: ٣٤، مسند أحمد ٣: ١٣٨.

وهناك عشرات الأدلّة على ذلك، وقد بحثها الفقهاء وناقشوها[1]. فالتقيّة موجودة عند المسلمين بصورة عامّة، مع أنّ بعض ذوي الأقلام الرخيصة يسخّرون أقلامهم في التهريج في هذا الباب بعيداً عن روح الإسلام (نسأل اللّه تعالىٰ أن يخلّصنا من أمثال هؤلاء الذين لا يشعرون بشيء من المسؤولية تجاه وحدة المسلمين).

الثاني: الارتفاع بمستوى الصحابي عن القتل الخطأ

فهذا المقطع من الآية الكريمة يريد أن يرتفع بمستوى أصحاب النبي ﷺ عن إراقة الدم والاعتداء على الغير، ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾[2]. ويتقرّر أنه لا يوجد صحابي لأحد الأنبياء عليهم السلام من يسحق كائناً ضعيفاً وهو يعلم به ويشعر بوجوده؛ لأنهم (رضوان اللّه عليهم) على خلق عالٍ ولا يعتدون على مسلم وهم يشعرون، فإن عرفوه لم يقدموا على أذاه. وهكذا آية المقام؛ فهي جاءت تؤكّد هذا المعنى: ﴿**وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾.

وهي هنا تشير إلى هذه الثلّة من المؤمنين الذين أخفوا إيمانهم وعقائدهم خوفاً من أذى قريش وانتقامها، وتقول لهؤلاء: إنكم إذا دخلتم فإنهم سيذهبون ضحية تحت أقدامكم، وقد تقتلونهم وأنتم لا تشعرون بهم. فالآية الكريمة إذن في مقام إعطاء جوّ حول حرمة المسلم واحترام دمه، ثم تقول لهم: إنكم إذا دخلتم هذا البلد فعليكم أن تأخذوا بنظر الاعتبار هذه المسألة الحساسة، فلو أنّ النبي ﷺ

---

(١) نيل الأوطار ٨: ٨٤ ـ ٨٥، وانظر محاضرة (الحرّيّة الشخصيّة من منظور إسلامي) ج ٢ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) النمل: ١٨.

سمح لكم بدخول البلد الحرام قبل تنبيهكم إليها لراح ضحية لكم هؤلاء الثلة من المؤمنين.

مفارقات تاريخية وآراء بعض مفكري أهل السنة فيها

ونحن نقول: إذا كان الأمر هكذا فما هو موقف المسلم ممّن يقدم على قتل مسلم وهو يعلم أنه مسلم؟ إنّ هناك ثغرات في تاريخنا لابدّ من تصحيحها، فبعض الحوادث التاريخية ليس لها أي تفسير موضوعي، ولا يوجد لها أي مبرّر مقنع، ومن ذلك دعوى ارتداد مالك بن نويرة ﵁ وأصحابه أيّام الخليفة الأول، وبالتالي تعرّضهم للقتل غيلة وغدراً، وبناء خالد بزوجة مالك ليلة قتله، وبالرجوع إلى كتابات بعض المفكّرين المنصفين من السنّة نجد أنهم يقولون بخلاف ما صُوّرت عليه قضية امتناع مالك عن أداء الزكاة إلى الخليفة الأوّل، وهي شهادات تتسم بقول الحق والابتعاد عن التشنّج والتعصب ضد الآراء المحظورة، ومنها:

الأولى: شهادة علي عبد الرزاق[1]

يقول هذا الكاتب في مؤلّفه (الإسلام وأُصول الحكم): إنّ بعض الذين قاتلهم الخليفة الأوّل على أنهم منعوا الزكاة، لم يمنعوا الزكاة، وإنّما امتنعوا عن الإذعان لحكمه.

الثانية: شهادة ابن قيم الجوزية

إنّ ابن القيم هذا يعدّ داعم فكر ابن تيمية ومروّج آرائه؛ فهو أحد تلامذته، بل

---

(١) أحد علماء الجامع الأزهر الذي صرّح بعدم مشروعيّة الخلافة التي حصلت بعد رسول الله ﷺ في كتابه الذي سيذكره المحاضر، وذلك بقوله: إذا أنت رأيت كيف تمّت البيعة لأبي بكر واستقام له الأمر، تبيّن لك أنها كانت بيعة سياسيّة ملكيّة عليها طابع الدولة المحدثة، وأنها قامت كما تقوم الحكومات على أساس القوّة والسيف. الإسلام وأُصول الحكم: ١٨٣.

تلميذه الأوّل، وهو ثروة علمية ضخمة. يقول حيال هذه المسألة: إنّ جماعة مالك بن نويرة لم يكونوا رافضين للإسلام، وإنهم غير مرتدّين عنه، وكل ما في الأمر أنهم اجتهدوا فأخطؤوا؛ حيث إنهم ظنوا أنّ الزكاة مقيّدة بدعاء النبي ﷺ، فالآية الكريمة تقول: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(١)، فهؤلاء كانوا يظنون أنّ الزكاة لا تدفع إلّا إلى النبي ﷺ لأنه سيدعو لهم مقابلها، أمّا بعد وفاة النبي ﷺ فليس هناك من سيدعو لهم.

وهذه شهادة قيّمة نعتزّ بها من ابن القيّم، فهو يقرر أنّ هؤلاء لم يكفروا، وهذا من قبيل أن (المشروط عدم عند عدم شرطه) فالحكم (الزكاة) مشروط بـ(الدعاء) وهو الشرط، فلمّا انعدم الدعاء انعدم المشروط (الزكاة). وبالنتيجة فهو يقرّر بأن هؤلاء تأوّلوا فأخطؤوا، وأنهم كانوا يصلّون، وكان مؤذّنهم ينادي: «**أشهد أن لا إله إلّا اللّه**». فهل هؤلاء مشركون أو مرتدّون؟

وأكبر دليل على هذا استقبال الخليفة الثاني لجيش خالد وقوله له بعد رجوعه من فعلته تلك: يا عدوّ نفسه، قتلت امرأً مسلماً ونزوت على زوجته! واللّه لأرجمّنك بأحجارك(٢).

وهكذا نجد أنّ الآية الكريمة تريد أن تطهّرنا وتطهّر أيدينا عن أن تلغ بدماء المسلمين، ومشاعرنا وألسنتنا عن أن تطال أعراضهم، وألّا يحمل مسلم على مسلم حقداً. فهي تذكّر المسلمين بأنهم سيقدمون على بلد فيه مجموعة من

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٥٠٤، الكامل في التاريخ ٢: ٣٥٨ ـ ٣٥٩، تاريخ الأُمم والملوك ٣: ٣٨٠.

المسلمين، وربما حصل هجوم منهم على المشركين فتذهب هذه المجموعة ضحية تحت الأرجل دون علم منهم وقصد، وأنّ عليهم استشعار حرمة المسلمين الموجودين في مكة، فمن المستحيل دخولهم فيها وهم لا يعرفون أنّ فيها هذه المجموعة منهم. فالمنع من دخول مكة إذن كان حرصاً على الدماء الإسلامية.

ادّراع الكافر بالمسلم

وفي هذه الآية حكم شرعي يذكره الفقهاء في باب الجهاد، وهو: لو أنّ جماعة من المشركين أو الكفّار تترّسوا بجماعة من المسلمين ـ وهذا أمر تتبّعه غالباً الحروب الحديثة، وهو ما يسمىٰ بالدروع البشرية ـ فالآية صريحة في أنّ على المسلمين عدم مقاتلة هؤلاء الكفار حفظاً على أرواح المسلمين من التلف. ومن الفقهاء الذين يتبنّون هذا الرأي الإمام مالك[١] وجماعة آخرون[٢]؛ فقد سئل مالك بأنّه لو كانت هناك سفينة لكفار فيها أسرىٰ مسلمون، فهل يجوز للجيش الإسلامي أن يضرب السفينة بالنار ليقتل من عليها من الكفّار، وربما راح قسم من المسلمين الأسرى الذين فيها ضحية؟ فقال: لا يجوز ذلك، ومن يقدم عليه عامداً عارفاً فعليه الدية والكفارة. بل إنّه يذهب إلى المنع حتى عند ادّراع الكافر بالمسلم لحظة الحرب.

وكذلك الشوافع فإنهم يميلون إلى هذا الرأي[٣]. أمّا الأحناف[٤] والثوري[٥]

---

(١) قريب منه ما عنه في المحلّى ٧: ٣٠٦ / ٩٣٢.

(٢) انظر المغني ٩: ٣٩٩.

(٣) انظر: الأُم ٤: ٢٦٠، المجموع شرح المهذب ١٩: ٦، روضة الطالبين ٧: ٤٤٧، حواشي الشيرواني ٨: ٢٩٦.

(٤) انظر: المبسوط ١٠: ١٥٤، ١٩٨، حاشية ردّ المحتار ٢: ١٨١، ٤: ٣٠٥.

(٥) انظر أحكام القرآن ٣: ٥٢٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٨٧.

والإماميّة[١]، فيخالفونهم في هذا الرأي. وللقرطبي رأي في هذه المسألة حيث يقول: «قد يجوز قتل الترس، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية:

فمعنى كونها ضرورية أنه لا يحصل الوصول إلى الكفار إلّا بقتل الترس.

ومعنى أنها كلية أنها قاطعة لكلّ الأُمةّ حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كلّ المسلمين. فإن لم يُفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كلّ الأُمّة.

ومعنى كونها قطعية أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً.

قال علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يُختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كلّ المسلمين، وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون.

ولا يأتي لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه تلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم»[٢].

على أية حال فإنّ هذه المسألة كانت محل نقاش عند المسلمين وموضع أخذ وردٍّ فيها، وهو مبتنٍ على اختلاف فهم الدليل من كونه يجيز مدّ اليد إلى المسلم الذي تدرّع به الكافر أو لا يجيز ذلك.

المبحث الخامس: في معنى المعرّة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ**﴾، فما معنى المعرّة، وما

---

(١) انظر: المبسوط ٢: ١١، السرائر ٢: ٨، منتهى المطلب ٢: ١٠ (حجري).
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٨٧ ـ ٢٨٨.

المراد بكونها تصيبهم؟ أي ما الذي سيصيب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فيما لو دخلوا البلد الحرام وقتلوا هؤلاء المسلمين وهم لا يشعرون؟ هناك عدة نقاط حول المسألة سنتناولها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

أوّلاً: المعرّة النفسية

وهي أضخم المعرّات التي يمكن أن يمرّ بها الفرد المسلم؛ فإنّه إذا قتل مسلماً دون علم منه بأنّه مسلم ثم عرف بعد ذلك هذه الحقيقة، فسوف لن يهدأ له بال ولن يستقرّ، بل إنّه سيظل يأكل بنفسه ويشبعها لوماً وتقريعاً، وسيعضّ أصابع الندم على ما يظن أنه فرط منه أو فرّط فيه. وقد حدث مثل هذا أيام الإمام زين العابدين عليه السلام؛ حيث إنّ الزهري كان قاضياً فجيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة، وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه. وسأل عنه الإمام السجاد عليه السلام مرّة فقيل له: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمام عليه السلام وقال له: «**إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة اللّه أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك**». فقال الزهري: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[1]، لقد فرّجت عني فرّج اللّه عنك، أشهد أنك زين العابدين. ثم رجع الى أهله وماله [2].

فأوّل معرّة تصيب الإنسان إذن هي تأنيب الضمير واللوم الذي سيعرّض له

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨، ومثله موقف أُسامة بن زيد؛ حيث قال: سوف لن أُشهر سيفي بوجه مسلم بعد أن قتل أعرابياً نطق بالشهادتين، وقال له النبي صلى الله عليه وآله: يعنّفه: «هلا شققت عن قلبه». مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧.

نفسه.

ثانياً: أنّ الدية تجب في هذا القتل

فمن المعرّة أيضاً دفع الدية لأهل القتيل، وهذا أمر يصعب على الإنسان أيضاً وفيه شدّة ومشقّة عليه؛ ولذا كان معرّة.

ثالثاً: إرجاف المشركين بأنّ الرسول ﷺ قد قتل أصحابه

وهذا ما ستستغلّه قريش في حملتها الدعائية ضد الرسول الأكرم ﷺ، فإنها سترجف وستروّج بأنّ الرسول ﷺ قد فرّط بأصحابه وقتلهم من أجل الوصول إلى البيت المحرّم.

وهذا المعنى كان يدور في خلد النبي الكريم ﷺ؛ حيث إنّه (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آله) كان يلاحظ ويعرف أنّ هؤلاء يترصدونه. وعليه فيكون معنى ﴿**فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ**﴾: فيصيبكم عار بسبب ذلك.

النظم في الآية

وعليه فإنّ الفقهاء يستفيدون من هذه الآية ﴿**لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ أنّ غير المؤمن ربما كان في صلبه نطفة يمكن أن يخرج منها مسلم. والمقصود من ﴿**رَحْمَتِهِ**﴾ هنا: الإسلام؛ لأنّه موجِب لها. وهذا هو داعي منع المسلمين من وصول البيت الحرام تلك السنة، وفعلاً خرج من أصلاب بعض هؤلاء أُناس مؤمنون. وهذه القاعدة عامة وليست مختصة بأهل مكة وحدهم، فعبداللّه بن أُبي كان رأس المنافقين، لكن ابنه ؓ وصل إلى درجة من الإيمان أن طلب من النبي ﷺ أن يتولّىٰ ضرب عنق أبيه حينما قال: واللّه ﴿**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ**

لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾[١]. وكان حينما سمع بكلامه هذا قد وقف له بباب الدار في المدينة عندما رجع وقال له: والله لا تدخل البيت حتى يرضى عنك رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وحتى تعرف من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ.

ثم جاء فدخل على النبي صلى الله عليه وآله وقال له: روحي لك الفداء يا رسول الله، لقد سمعت ما قال أبي، وعلمت أنه قد آلمك به، فإن كنت تريد قتله، فائذن لي بأن أتولّى أنا ذلك. فقال له صلى الله عليه وآله: «**لماذا؟**». قال: لأمرين:

الأوّل: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل الآباء والأبناء.

والثاني: أني أخشىٰ أن تدركني حميّة الجاهليّة، فأقتل قاتل أبي لعلّي لا أصبر علىٰ رؤيته إذا رأيته، فأرتدّ عن الإسلام[٢].

فعفا عنه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إكراماً له.

وهذه المسألة ليست سهلة حتى إنّ بعض الفقهاء في مسألة القصاص وولي الدم يرى أنّ الدولة هي التي يجب أن تقتصّ من القاتل وتنتصف لولي الدم وتأخذ بثأره؛ لأنّ ولي الدم إذا باشر ذلك بنفسه فإنّ المشكلة تبقىٰ قائمة، والأحقاد تظلّ متوارثة؛ ولذا كان الأولىٰ أن تتولّى الدولة نفسها تنفيذ القصاص وإن كان بعض الفقهاء يرى أنّ ولي الدم هو الذي يجب أن يتولّى التنفيذ[٣].

المهمّ أنّ قسماً من الفقهاء يميلون إلى الرأي الأوّل، وهو أن يتولّى الحاكم العادل المسلم تنفيذ الحكم ولا يترك ذلك إلى أحد كيلا يدع للأحقاد والضغائن أن تتوالد وتستمرّ في الأجيال. فهذا الرأي قائم على أساس امتصاص هذه الأحقاد من نفوس ابناء الطرفين، وعدم استمرار ذلك فيهم وفي أبنائهم وأعقابهم؛ فالقاتل

(١) المنافقون: ٨. (٢) مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٣) حول هذا المبحث انظر فقه السنّة ٢: ٥٣٤.

سيظل مصدراً للألم ومبعثاً له في نفوس ذوي المقتول، وهكذا تستمرّ السلسلة.

يقول المنهال: ذهبت للحج وجعلت طريقي على المدينة، فجئت أزور الإمام زين العابدين عليه السلام، ولما دخلت عليه قال: «**يا منهال، ما صنع حرملة؟**». فالإمام السجاد عليه السلام ابن أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يمرّ على القتلىٰ والجثث ويترفّع عن أن يتأوّه أو أن يقول شيئاً غير ما يرضي اللّه تعالىٰ، وهو ابن الحسين عليه السلام الذي كان يبكي لأجل أنّ أعداءه وقاتليه سيدخلون النار بسببه، لكنه عليه السلام مع ذلك قد أحدث مصرع عبد اللّه الرضيع الذي قتل بسهم لحرملة هذا لوعة في نفسه الكريمة، وخلّف منبعاً للألم كبيراً في قلبه الشريف؛ لأنّه رأى المشهد بعينه حيث رجع أبوه السبط عليه السلام حاملاً الرضيع على يديه وهو يرفرف كالطير المذبوح. وحينما امتلأت يده من دمه رمىٰ بها إلى السماء وقال: «**اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح**»[1]. ثم عاد به إلى أُمّه قائلاً: «**رباب خذي إليك ولدك مذبوحاً**»:

ولو تـــراه حـــاملاً طـفله … رأيت بـدراً يـحمل الفـرقدا
مُـخضّباً مـن فـيض أوداجـه … ألبسه سهم الردى مجسدا[2]

(١) لم نعثر عليه عند مصرع الطفل الرضيع، لكن ورد هذا الدعاء عند مصرعه عليه السلام حيث إنه عليه السلام جعل يأخذ الدم من نحره فيرميه إلى السماء، ولا يرجع منه شيء. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

(٢) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

الحرية الدينية في التشريع الإسلامي

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: العقيدة ضرورة حياتية عند الإنسان

هناك مجموعة من الحرّيات التي تكفلها الشرائع السماوية والقوانين الإلهية للإنسان، وفي طليعة هذه القوانين حرية المعتقد؛ فالإنسان لا يمكن أن يعيش من غير عقيدة يعتقدها أو دين يدين به. ولو تتبّعنا التنقيبات الأثريّة عن الأُمم السابقة والحضارات البائدة فإننا سنجد من خلال الحفريات أن كل منطقة مأهولة عند هذه الأُمم والحضارات ربما كانت تخلو من مستشفىً أو ملعب أو مكان للمصارعة، لكن من غير الممكن ألّا نجد فيها آثاراً لمعبد كان يرتاده أبناء تلك الحضارات القديمة (٢). فالمعبد كان أمراً ضرورياً للإنسان من القدم يسير معه في رحلته في الحياة؛ لأنّ الإنسان في أصل فطرته يمتلك شعوراً ـ أو يتوفّر عليه ـ بأنّه لابدّ من وجود قوة خفية تحميه، وجهة ما تمتلك القدرة والقوّة والقابلية على أن تتحكم في حياته ومصيره وتوفّر له الحماية من شرور قوىٰ الشرّ التي كان يرى أنّها موجودة في كل مكان. وهذه القوّة الخفيّة لها القابلية المطلقة على أن تؤثّر عليه بصورة

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) يقول عالم الآثار الألماني بلوتارك: «من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار ولا آداب أو مسارح، ولكن لم يرَ إنسان قط مدينة بلا معبد أو شعباً لا يمارس الصلاة». الإسلام رسالتنا /السنة الثالثة: ١٠.

مباشرة.

حدود الحرية الدينية

وما يعبده الإنسان يختلف من حضارة لأُخرىٰ، ومن أُمّة لأُمّة، ويـناط ذلك الاختلاف بمستوى تفكير أبناء الحضارات وقابلياتهم على فهم الحقائق والظواهر وهضمها. وهكذا فإننا نجد أن البعض يعبد أشياء ماديّة والبعض الآخر يعبد أشياء معنوية.

لكن هنا يرد سؤال هو: إلى أي مدى يمكن أن تضمن الحريّة الدينية العقيدية للإنسان؟ والجواب أنها تضمن له ما دامت لا تشكـل مـورد مـضايقة لحـرّيّات الآخرين الدينية أو لعقائدهم. فمسألة العقيدة أمر حيوي وضروري لكل إنسان، ويجب مراعاتها. وهنا يبرز جانب من المشكلة وهو أنّ بعض الناس يمتلك عقيدة «أنّ لا عقيدة»، أي أنه لا يؤمن بالأديان وبوجود إله خالق حيّ رازق، وأقلّها أنه لا يؤمن بوجود قوة خارجية تتصرّف في الكون وتتحكّم في العالم. وهذا طبعاً يعاكس فطرته التي تحكم بهذا الأمر وبوجود هذه القوّة الخارجية؛ وبالتالي فإنّه لا يحترم حريته ولا حرية غيره.

ثم إنّ كل عقيدة لابدّ أن تحتوي على جوانب تنظيمية للحياة، فالعقيدة تنظم الحياة، ومن المستحيل أن تجد عقيدة ليس فيها نظام أو قوانين تحكم العلاقات وتبرمج الحياة. ومن لا عقيدة له فلا نظام يحكم حياته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية ومعنى الإكراه فيها

وبعد هذا التوضيح نرجع للآية الكريمة فنقول: هناك عدة آراء في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وفي معنى الإكراه الوارد فيها، نذكر منها:

الرأي الأوّل : أنّها في أهل الكتاب خاصة

أي في اليهود والنصارىٰ. والمراد هنا: أنّ لهؤلاء حرية البقاء على عقائدهم ودينهم الذي يدينون به، ولهم ألّا يجبروا على الدخول في الإسلام. ومن هذا ما كان من أمر بعض العرب وغيرهم من أنّهم يفضلون المقلات (وهي التي لا يعيش لها ولد[1] أبداً، أو التي تحمل مرة واحدة فقط[2]). يقول الشاعر:

بُغَاثُ الطَّيرِ أكثَرُهَا فِرَاخاً وأُمُّ الصَّقرِ مَقلَاتٌ نَزُورُ[3]

فالذي يريده الشاعر هنا أن الطيور العادية تبيض كثيراً؛ فتكون فراخها كثيرة لكنها لا فائدة فيها، أما الصقر فتبيض أُنثاه بيضة واحدة لكنه سيّد الفضاء[4]، ثم يشبه الأم الولود بعادي الطيور، والمقلات بأُم الصقر تمييزاً لها عن غيرها، وأن ابنها مليء بالعنفوان والرجولة. وكان من عاداتهم أنّ المقلات كما مرّ تنذر أنها إن جاءها ولد فإما أن تجعله يهودياً أو نصرانيّاً. وكان اليهود يقطنون المدينة كما هو معروف، وقد انعكست آراؤهم على التفسير والفقه والأخلاق. ولا زلنا إلى الآن نعاني من رواسبهم، هذه ولم نستطع التخلّص منها.

وكان الأوس والخزرج على هذه العقيدة أيضاً؛ فلذا كان لهم الكثير من أولادهم عند يهود المدينة، فلما أمر الرسول ﷺ بإجلائهم (يهود المدينة) عنها، وكان فيهم أبناء الأنصار، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم،

---

(١) الكنز اللغوي: ٩١، الصحاح ١: ٢٦١ ـ قلت، وهي هنا بخصوص المرأة.

(٢) الصحاح ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢ ـ قَلَت، وهي هنا بخصوص النياق.

(٣) اختلف في قائله. شرح نهج البلاغة ٦: ١٥٥، ١٣: ٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ١٤٩، ٥٠: ٨٤، ٨٥.

(٤) يقول الشاعر:

وفي الزرازير جبن وهي طائرة وفي البزاة شموخ وهي تحتضرُ

لنذهبن معهم ولندينن بدينهم. فمنعهم أهلهم وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام، ثم جاؤوا إليه ﷺ وقالوا له: يا رسول الله، أبناؤنا وإخواننا. فنزلت الآية، فقال ﷺ: «**خيّروا أصحابكم؛ فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فأجلوهم**»[1].

فمن يملك عقيدة سماوية وديناً إلهياً لا يشكّل أي خطر على الإسلام أو على البنية الاجتماعية لأي شعب.

الرأي الثاني: أنها في الناس عامّة

فقوله تعالىٰ: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ على هذا الرأي لا تختصّ بطائفة من الناس دون طائفة؛ حيث إن الشريعة الإسلامية كانت تدعو الناس عامّة للإسلام بالحسنىٰ ولا تجبرهم عليه أو تكرههم على اعتناقه، بل حتىٰ المشرك كان مشمولاً بهذه الآية الكريمة حيث إنّه يُبقىٰ على عقيدته. واستمرّ العمل بهذا الحكم إلى أن نسخت[2] هذه الآية الكريمة بقوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[3]. فالتعامل السلمي والصلح مع هؤلاء كان على أساس أن يتعرفوا على محاسن الإسلام ومواطن الرحمة والحب فيه؛ ليدخلوا في الإسلام عن قناعة ورغبة، بعد أن أُتحيت لهم الفرصة لمعرفة الحقّ من الباطل، ومنحوا الوقت الكافي للتعرّف على الجوانب الأخلاقية في الإسلام. وهذا الأمر كان دافعاً كافياً لطالب الحق أن يدخل في الإسلام ويعتنقه دون إجبار أو إكراه، فإنّه إن عرض عليه الإسلام وأبىٰ قوتل. إذن

---

(١) مجمع البيان ٢: ١٦٣ – ١٦٢، أسباب نزول الآيات: ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢: ٤٩٤ – ٤٩٥ / ٢٦١٦، نواسخ القرآن: ٩٤، فتح القدير ١: ٢٧٥.

(٣) التوبة: ٧٣.

فالآية نزلت في خصوص فسح المجال أمام المشركين لدراسة محاسن الإسلام.

الرأي الثالث: أنها فيمن يسلم بعد قتال

فقد كان الكثير من المشركين وغيرهم ممن هم ليسوا على دين الإسلام يدخلون الإسلام بعد انتهاء المعركة بينهم وبين المسلمين بهزيمتهم وانتصار المسلمين كما حصل في فتح مكة وغيره، لكن بعض المسلمين كان يتعامل معهم بصورة توحي بأنهم ليسوا مسلمين فعلاً، وأنهم إنما دخلوا الإسلام بعد أن ذاقوا حرّ النار والحديد، وكانوا يسمعونهم ذلك. وللحقيقة نذكر أنّ هذا اللون من الإسلام قد حصل من بعض كأبي سفيان وأمثاله، لكن ليس معنى هذا أن نستقبل كل مسلم بمثل هذا التصرّف وهذا الكلام حملاً له على أمثال أبي سفيان، إذ ربما كان قد أسلم حقّاً، وهو إنّما يطلب الإسلام ويرجو اللّه في ذلك. وعليه فلا يصح استقباله بهذا، وأن نقول له: إنك إنّما اسلمت بعد المعركة، وإن اسلامك إنما كان بالإكراه والإجبار.

وهؤلاء قد فُرّق بينهم وبين باقي المسلمين حتى في العطاء، فعمر بن الخطاب كان يسميهم «مسلمة الفتح»، وكان يعطيهم دون ما يعطي غيرهم من المسلمين. وهذه المسألة كانت من ضمن جملة من المسائل التي اختلف فيها معه جماعة ممّن عاصروه أو جاؤوا بعده.

فالآية الكريمة نزلت لهذا السبب، ولتقول للمسلمين: لا تجرحوا مشاعر هؤلاء؛ فإنهم قد دخلوا حضيرة الإسلام، فعليكم أن ترحّبوا بهم وتشجّعوهم.

هذا على صعيد الإسلام، أمّا على مستوى المذاهب الإسلاميّة، فإنّ التطبيق خلاف هذا، وهو خلاف واضح واختلاف بيّن؛ فلو أنّ أحداً من المسلمين ممّن يوصف بالغيرة تساءَل: لماذا المسلمون ممزّقون؟ ولماذا لا نسعىٰ لامتصاص هذه

الفرقة ونجمع شمل المسلمين مادامت الأُصول واحدة وهي مدعاة للوحدة والتوحّد لا للفرقة والتفرّق؟ فإنّه سيرمىٰ بأنّ كلامه غير صحيح لأنّه لم يقصد هذا فعلاً وإنّما تفوّه به تقيّة، وكل قلم شريف يحاول أن يعالج مسألة من مسائل المسلمين ومشكلة من مشاكلهم فإنّه يرمى بهذه التهمة، وكأن التقيّة ليس لها أي مدرك شرعي. إنّ هذا الشعور البغيض تجاه هؤلاء هو الذي يولّد الفرقة بين أبناء الدين الإسلامي ويسبب التنافر والتناحر بينهم.

إنّ هناك الكثير من الشعوب ممّن توحّدهم المصلحة المادية وليس غير، في حين أنّ المسلمين توحّدهم اللغة والدين والعقيدة والكتاب والأرض وغير ذلك، لكنهم مع ذلك متنافرون متباغضون متفرّقون، فلم هذا؟ إننا نأسىٰ ونأسف على المسلمين أن يصلوا إلى هذا الأمر وأن يصل بهم الحال إلى هذه الفرقة البشعة.

فالآية الكريمة تلزمنا بألّا نصف هؤلاء بأنهم مكرهون على اعتناق الإسلام لأنّ بوسعهم إضمار شيء وإظهار خلافه، فعندما يعلن فرد إسلامه دون إكراه وإجبار مباشرين من أحد فعلى المسلمين ألّا يجرحوا مشاعره. ثم إن الدين الذي يأتي بالإكراه لا يسمى ديناً، والعقيدة التي تأتي عن طريق الإملاء والإجبار لا تسمى عقيدة أبداً، لأنّهما أشبه شيء بأن يكونا عقداً من العقود، والعقود يلزم فيها القبول وإلّا كان العقد باطلاً: ﴿**إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ**﴾[1]، فالقرآن يفرض في التجارة أن تكون نابعة عن الرضا النفسي. وهكذا نجد أن البيع على بساطته يشترط الشرع فيه الرضا، فكيف بأُمور العقيدة والدين والآخرة؟ وهل من الممكن أن تقع وتصحّ من دون رضا؟ ومن هذا يذهب المحقّقون إلى أنّ الدين إن

(١) النساء: ٢٩.

كان بالإكراه فهو ليس بدين ولا العقيدة عقيدة.

القيادة العسكرية وخطّة المعركة

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: فضيلة البكور إلى الصلاة

إنّ البعض من الآيات الكريمة تفيد معنىً إضافياً زيادة على مضامينها الأساسيّة، وهذا ما توحي به بعض المفردات التي تستعملها. فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ مثال على هذا، والغدوّ: الصباح المبكر (٢). والاستيقاظ مبكراً مندوب إليه في الأخبار (٣). والمسلم لا يحتاج إلى دليل خارجي لهذا، بل أن دليله وجداني بالنسبة له؛ إذ أن من المفروض به أن ينهض صباحاً عند الفجر لأداء صلاة الصبح: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٤)، وقرآن الفجر: صلاة الصبح؛ لأنّها تشتمل على القراءة. والإنسان حينما يستيقظ صباحاً إلى الصلاة في وقتها ثم يقوم إلى المحراب ومنه، فإنّه يقوم روحاً وعقلاً وليس جسداً وغرائز، بلحاظ أن الإنسان مركب عجيب من الغرائز التي تدفعه إلى المعصية.

وهكذا يتطهّر الإنسان روحيّاً كل صباح حتى يواجه الحياة بذهنية المسلم؛ فهو يقول في صلاته ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٥) أي في الدنيا والآخرة، فهو يريد الطريق الصحيح، وهو أن يعيش مع عباد اللّه بصورة مرضية ونظيفة،

---

(١) آل عمران: ١٢١. (٢) العين ٣: ١٣٥ ـ سحر، ٥: ٣٦٥ ـ بكر.

(٣) انظر وسائل الشيعة ٤: ٢١٢ ـ ٢١٤ / ب٢٨.

(٤) الإسراء: ٧٨. (٥) الفاتحة: ٦.

ويستوحي السماء معانيَ للخير، وكل ما له أثر في تربيته وإعداده. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم ويؤكّد عليه [١].

وهكذا يستطيع الانسان أن يعمر الحياة، ويزرع الخير والسلام في أرجائها، فعليه أن ينتج ويعمل ولو كان ثريّاً موسراً؛ لأن وظيفته في الحياة ورسالته التي كلّفه اللّه تعالىٰ بأدائها ـ وهي استثمار طاقاته التي أودعه عنده، واستثمار نعم اللّه التي أغدقها عليه وأودعها له في أرضه ـ لابد من أن يؤدّيها على أكمل وجه وأتّمه؛ ولذا فإنّه تعالى عوّضه عن هذا ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**﴾ [٢]، والرواية الشريفة تخاطبه فتقول: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**» [٣].

فالإنسان مكلّف بأن يعمر الحياة؛ لأنّ عنده بيتاً وعائلة ومجتمعاً يتفاعل معه ويعيش فيه، كما أن عنده بلداً ومهمة يتوقف عليها إطالة عمره.

إنّ في الأنظمة الوضعية أنّ الإنسان إذا بلغ الخمسين من عمره أو الستّين فإنه يلج سنّ التقاعد ويحال عليه، وهنا تحدث الصدمة والنكسة لهذا الإنسان ـ إن كان واعياً ـ لأنّه يرى حينئذٍ أن دوره في الحياة قد انتهىٰ، وأنّه في طريقه إلى الموت. وهذا ينعكس سلباً على عطائه وروحه؛ فينتكس، ويشعر بالوحدة والوحشة والغربة، أما إذا عرف أن مهمته في الحياة مستمرّة فإنّه حينها لن ينتابه ذلك الإحساس، فيستمرّ في نشاطه وعطائه وإبداعه. وهذا هو السبب الذي لأجله لا يشترط الفقهاء في أبواب الإجارة والعمل من كتب الفقه أن يكون للإنسان عمر

---

(١) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت: ٤٥. (٢) النبأ: ١٠ ـ ١١.

(٣) عن الإمام الكاظم عليه السلام. الفقيه ٣: ١٥٦، ونسب للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بلفظ: «احرث لدنياك...». النهاية في غريب الحديث ١: ٣٤٦ ـ حرث.

محدّد؛ فكل من له طاقة على العطاء والبذل له أن يعمل وسوف لن يمنعه أحد ولو كان في أُخريات حياته.

واقع الأُسرة المسلمة الآن

إننا الآن نعيش أزمة حقيقية؛ حيث إنّ الكثير من الأُسر الإسلامية لا تتّسم بسمات الأُسرة الإسلامية الحقيقية؛ فالأُسرة الإسلامية هي التي تبتدئ يومها عند رفع كلمة «**لا إله إلّا اللّه**» فجراً بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء إلى اللّه، أمّا واقعنا نحن فغير ذلك؛ فالأُسرة ـ بفضل القنوات الفضائية وأجهزة البث الأُخرى ـ تسهر ليلها تراقب التلفزيون حتى إذا حان موعد صلاة الفجر أو دنا تخلد إلى النوم، فتترك واجباتها الملقاة على عاتقها وقت الصباح وتظل تغطّ في غفلتها؛ يبسط عليها النوم غطاءه الرخو فلا تعمر حياتها ولا تقوم بمستلزماتها. وهذا ما يلفت إليه القرآن الكريم أنظارنا وينبّهنا إليه: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ**﴾.

وقد كان العرب يتمدّحون ببكور الغراب، فيمدحون فلاناً لأنّه يبكّر إلى الحياة كبكور الغراب[1].

المبحث الثاني: مناسبة نزول الآية الكريمة

اختلف المفسرون في الغزوة التي نزل فيها قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾، فبعض قال: إنّها نزلت في واقعة الخندق، وقال آخرون: إنّها نزلت في واقعة بدر، وقالت طائفة ثالثة: إنّها نزلت في معركة أُحد. فالمناسبة مردّدة بين هذه المعارك الثلاث[2].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «البكرة رباح»، أو «نجاح». السير الكبير (الشيباني) ١: ٦٥.
وقيل لبزرجمهر: بم أدركت ما أدركت من العلم؟ قال: ببكور كبكور الغراب. شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٣٠، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٢٥٥.

(٢) انظر: مجمع البيان ٢: ٣٧٦، زاد المسير ٢: ٢٣، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٤، تفسير

الاستدلال بهذه الآية على رضا النبي ﷺ عن عائشة

ويصرّ أحد المفسرين على أن هذه الآية كانت في موقعة أُحد، وأنّ النبي ﷺ كان في بيت زوجه عائشة، ثم يستدلّ بها على أن زوجته من أهله، ومعنى هذا أنها منسجمة معه تمام الانسجام، وأنّه راضٍ عنها بدليل أن الله تعالى يخاطب نبيّه نوحاً عليه السلام بقوله: ﴿**قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ**﴾[1] بعد أن خاطب عليه السلام الله جل وعلا بقوله: ﴿**وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ**﴾[2]. فالله تعالى قد أخرج ابن النبي نوح عليه السلام من أهله مع أنه من صلبه، وهنا يعدّ عائشة من أهله؛ فدلّ بهذا على أنها في موضع رضا عنده ﷺ.

ونجيب على هذا بالقول: إننا ليس من شأننا ولا من خلقنا أن نسلب إحدىٰ نساء النبي الكريم ﷺ مكانتها التي هي عليها، أو ننكر منزلة هي لها أو أنزلها اللّه إياها؛ فإنّ نساءه ﷺ موضع احترامنا، لكننا في الوقت نفسه نضعهن أمام المسووليّة؛ فالقرآن الكريم نفسه مدحهن في بعض المواقف[3] وحمّلهن المسؤولية في أعمال أُخرىٰ[4]. ثم إنه لا ضير في أنّ إحدىٰ نساء النبي ﷺ

☚ القرآن العظيم ١: ٤١٠، تفسير الثعالبي ٢: ٩٩.

(١) هود: ٤٦. (٢) هود: ٤٥.

(٣) فقال تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الأحزاب: ٦.

(٤) فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ الأحزاب: ٣ ـ ٦.

كانت عزيزة عنده ويحبها، فهذا شيء طبيعي، لكن لنا أن نسأل: ما المقصود من الأهل في قول النبي نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾؛ هل هم الأقارب، أم الزوجة فقط؟ إنّ البعض يقول: إنّ الأهل هم كلّ من يحرم الزواج منهم، ويقول غيره: أهلك هم أقرب الناس إليك، كابن الخال وابن العم. فالأهل هم الذين تربطهم بك رابطة الدم.

والقرآن الكريم له اصطلاح آخر، فبالإضافة إلى رابطة الدم نجده يؤكّد على رابطة الروح؛ بدليل خطابه تعالى لنبيه نوح عليه السلام المارّ، مع أن ابنه هذا ابن صلبي له؛ فزوجة النبي نوح عليه السلام لا ترمى بالزنا: «ما زنت امرأة نبيّ قط» [١]. فأعراض الأنبياء عليهم السلام محفوظة، أمّا الخيانة التي يذكرها القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [٢]، أي امرأة لوط ونوح عليهما السلام، فهي ليست خيانة العرض وإنّما هي خيانة الدعوة؛ حيث كانتا منافقتين [٣]؛ فامرأة لوط عليه السلام ترشد قومها إلى أضيافه، وامرأة نوح عليه السلام قاتلت وصيّه عليه السلام. وهذا هو المقصود بالخيانة، وإلّا فإنّ اللّه تعالى لا يبتلي الأنبياء عليهم السلام بأعراضهم.

فقوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ على سبيل نفيه لارتكابه عملاً أخرجه من حدود الأهليّة؛ أي أنّ الذي يرتكب عملاً لا يرتضيه النبي عليه السلام لا يمكن أن يكون من أهله حتى ولو كان ابنه.

من مفارقات المفسرين

فإذا كان القرآن ينفي أهلية ابن نوح عليه السلام فلارتكابه ما يوجب ذلك، وهو

---

(١) التبيان ٥: ٤٩٥، أحكام القرآن ٣: ٦٢٥، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) التحريم: ١٠.

(٣) التبيان ٥: ٤٩٥، أحكام القرآن ٣: ٦٢٥.

تأسيس على إثبات النبي نوح عليه السلام كونه من أهله[1]، وهو ابن صلبي له، وهذا يعني أنّ الابن الصلبي من الأهل ما لم يرتكب ما يوجب طرده عن حضيرة الأهل، فلماذا يُبعد علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام عن حضيرة ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[2]؟ يقول بعض المفسّرين: إنّ المقصود به: نساؤه[3]، فلماذا يخرج الولد الصلبي عن كونه أهلاً ـ والولد الصلبي هو فاطمة والحسنان[4] ـ وتلحق المرأة التي تعيش معه بالأهل؟ إنّ فكرنا وتفسيرنا بهذا الشكل يكونان بعيدين عن التفكير العلمي والموضوعي.

وفي واقع الأمر أنّ الأهلية التي أثبتها النبي صلى الله عليه وآله كانت لمجموعة محدّدة من أهله حيث إنه صلى الله عليه وآله قال: «**اللهم إن هؤلاء أهلي**»، ثم رمق السماء بطرفه الشريف وقال: «**أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً**». ثلاث مرات[5].

وبهذا الأمر تعرّضت الدكتورة بنت الشاطئ لهجوم عنيف شنّه عليها أحد الكتّاب الصحفيّين؛ فقد حمل عليها لأنها قالت: إن هذه الآية نزلت في حقّ هؤلاء

---

(١) فنفي القرآن كون ابن نوح عليه السلام أهلاً له لا من حيث نفي كون الولد أهلاً على نحو الحقيقة، بل إنه على سبيل نفي الصفة؛ بسبب تهوّره وعدم رجوعه إلى الحقّ والرشد.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) أحكام القرآن ٣: ٢١٤، تفسير الثعلبي ٨: ٣٦.

(٤) أمّا كون الزهراء عليها السلام ولداً له صلى الله عليه وآله، فهذا ما لا نقاش فيه، وأما الحسنان عليهما السلام انظر الكلام فيهما في محاضرة (البناء الأُسري في الإسلام) في ج ٤ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٥) شواهد التنزيل ٢: ١١٥ - ١١٠ / ٧٤١، فقد روى أن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله أجلس الحسنين عليهما السلام في حجره وأجلس أمير المؤمنين عليه السلام على يمينه وفاطمة عليها السلام على يساره، ثم اجتذب من تحت أُم سلمة ـ راوية الحديث الشريف ـ كساءً خيبريّاً، فلفّه صلى الله عليه وآله عليهم جميعاً، وأخذ بشماله بطرفي الكساء، وألوى بيده اليمنى إلى ربّه وقال: «اللهم إن هؤلاء أهلي». تقول أُم سلمة: فقلت: يا رسول الله، ألست من أهلك؟ قال: «بلى». فأدخلني في الكساء بعدما قضى دعاءه لابن عمّه وابنيه وابنته فاطمة عليهم السلام.

الخمسة ﴿عليهم السلام﴾، ورماها بالتخريف[١]، مع أنّ هذا ليس من اختصاصه.

رجـع

فآية المقام مردّدة بين ثلاث وقائع، ومن يقل بأنّه ﷺ خرج من بيت عائشة فتحسّ منه بأنّه يخصّها بواقعة أُحد ويسحبها إليها، غير أنّ القرطبي حينما يتناول هذه الآية الكريمة يروي أنّ رجلاً[٢] قد قتل حامل لواء المشركين في هذه المعركة، ثم يذكر اسمه وهو غير حامل اللواء الذي قتل في أُحد[٣]، وهذا يدلّ على أن هذه الواقعة غير واقعة أُحد.

فالآية الكريمة تقول: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾، وهناك من كتب عن نبينا الأكرم ﷺ مستغرباً من قدرته على إبداع مجتمع ودولة وهو يعيش في الصحراء بين مجتمع متخلّف. ومن هؤلاء مايكل هارث الذي يذكر شهادة عظيمة في حقّ الرسول الأكرم ﷺ، وهي شهادة تحتوي على أربع نقاط فيقول: «كيف استطاع هذا الرجل أن يجمع هذه الأُمور؛ بأن بنىٰ أُمّة، وقاد جيوشاً، وأصلح مجتمعاً، وغيّر حضارة؟ لابدّ أنّ له طاقات غير محدودة».

فهذا كاتب موضوعي، والنبي ﷺ يحمل ذهنية القائد المنظّر المفكّر، وكانت خططه الحربية غاية في الإبداع، وقد كتب البعض عنه ﷺ بأنّه كان يقوم بأعمال لا تصدر إلّا من إنسان متمرّس. فهو ﷺ يوزع المؤمنين عند القتال كلّاً في موقعه

(١) انظر هذا المطلب في محاضرتي (العقل عند الإمامية) ج ٤، و(دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) ج ٦ من موسوعة محاضرات الوائلي، وذكرنا هناك مصادره التي تثبت كون هذه الآية في هؤلاء الخمسة ﴿عليهم السلام﴾، وهي مصادر معتبرة عند أهل السنة.

(٢) لم يذكر القرطبي اسم أمير المؤمنين ﴿عليه السلام﴾ مع أن التحقيق يثبت أنه هو ﴿عليه السلام﴾، كما سينبّه إليه المحاضر فيما سيأتي من حديث.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٥.

الذي يناسبه، ويكون انتقاء مقاعد القتال وفق خطّة مدروسة محكمة؛ بحيث إنّه صلى الله عليه وآله يربح المعركة(١) وإن كانت جيوش أعدائه أكبر من جيشه(٢). فكان صلى الله عليه وآله يمتلك ذهنية حربيّة وقتاليّة فذّة لا تضاهيها ذهنيّة أبداً.

وهو صلى الله عليه وآله إضافة إلى أنه كان يتولّىٰ قيادة المجتمع، كان يقوم بدور الرائد فيه، حيث إنّه صلى الله عليه وآله كان ينزل قبلهم ويقاتل، غير أنّ أصحابه (رضوان اللّه عليهم) كانوا يمنعونه من هذا ويقولون له: يارسول اللّه، نحن نكفيك ذلك.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد تلمذ لرسول اللّه صلى الله عليه وآله، ولذا كان مكانه في صدر الكتيبة(٣)، وهو يرتجز ويقول:

دبّوا دبيب النمل لا تفوتوا ... وأصبحوا في حربكم وبيتوا
حتى تنالوا الثأر أو تموتوا ... أو لا فإني طالما عُصيتُ
قد قلتُمُ لو جئتنا فجيتُ ... ليس لكم ما شئتُمُ وشيتُ (٤)

رواية تأبير النخل

وهو صلى الله عليه وآله إضافة إلى أنه كان ينزل إلى الساحة ويتولّىٰ قضايا الحرب بنفسه، وأنه ذو دور هامّ وكبير في شحذ الهمم، فالجيش الذي يرىٰ قائده أمامه في لهوات الحرب يستميت ويقاتل إلى آخر قطرة من دمه. وهكذا تشير الآية الكريمة إلى مواطن الإبداع والحكمة في سيرته صلى الله عليه وآله، فهو صلى الله عليه وآله كلّه إبداع وحكمة، نجده يلج الحياة فيعلّم أصحابه كيف يتعاملون مع أُسرهم وأبنائهم في بيوتهم، وما هي

---

(١) وقد لاحظنا في موقعة أُحد كيف خسر المسلمون المعركة؛ لمخالفتهم أوامره بعدم ملازمتهم لمقاعد القتال التي بوّأهم إيّاها.
(٢) كما هو الحال مع جيش القوّتين العظميين آنذاك: الروم والفرس.
(٣) سئل عليه السلام: إذا اشتدّ الوطيس أين نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «عند مشتبك الرماح».
(٤) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٢، وقعة صفّين: ٤٠٣، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٨.

الكيفية التي يجب أن تكون عليها أخلاقهم معهم، بل ويضع منهجاً كاملاً واضحاً لتعامل الرجل مع زوجته في مضجعه[١]. ومع كل هذا يروي عنه المحدّثون رواية غريبة في بابها، هي أنّ المسلمين دخلوا عليه ﷺ وقالوا له: يارسول اللّه، نريد أن نؤبّر نخلنا. فقال ﷺ: «**لو لم تفعلوا لصلح**». فخرج شيصاً، فمرّ بهم فقال: «**ما لنخلكم؟**». فقالوا: قلت كذا وكذا، فقال ﷺ: «**أنتم أعلم بأُمور دنياكم**»[٢].

أفعال الجبلّة

ويلاحظ أنّ من المستحيل قبول هذه الرواية؛ لأنّ النبي ﷺ مسدّد من السماء، فيجب الاقتداء به في كلّ أقواله وأفعاله عدا ما يسمى بـ«أفعال الجبلّة»، وهي الأشياء الطبيعيّة التي منها الأكل والشرب وغيرهما، فليس من الضروري الاقتداء به ﷺ فيها؛ لأنها ترجع إلى البشر أنفسهم وإلى جبلّتهم. وهذا التصرّف ليس من أفعال الجبلّة؛ فرسول اللّه ﷺ ليس من جبلّته أن يقول لأصحابه: لا تلقّحوا نخيلكم. ولأجل هذا نجد أنّ المحققّين يغلقون باب الاجتهاد عليه ﷺ ويصرّحون بأنّه (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلى آله) لا يقول إلّا بما تأمره به السماء؛ فلن يبتعد عن الحقّ والحقيقة، فكان ﷺ يتدخّل في أُمور الزراعة والصناعة والاقتصاد، فيوجّه أصحابه إلى الصواب في أعمالهم. وهذا يدلّ على أنّ السماء أرادت أن تصوغه ﷺ في منتهى الكمال، قال حسّان بن ثابت:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء

---

(١) انظر مكارم الأخلاق: ٢٠٨ ـ ٢١٨.

(٢) الانتصار (العاملي) ٤: ٤٧، صحيح مسلم بشرح النووي ١٥: ١١٦، الإحكام في أُصول الأحكام (ابن حزم) ٥: ٧٠٤. وفي حديث آخر: «إنما ظننت ظناً؛ فلا تؤاخذوني بالظن». وفي غيره: «إنما أنا بشر؛ فما حدّثتكم عن الله فهو حقّ، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أُخطئ وأُصيب».

خـلقت مـبرأ مـن كـل عـيب كأنك قد خلقت كـما تشـاء [(١)]

وهكذا كان رسول اللّه ﷺ يبوّئ المؤمنين مقاعدهم للقتال ليؤدّي كل واحـد منهم دوره الذي رسمه له ﷺ.

المبحث الثالث: رؤيا الرسول الأكرم في أُحد وإرهاصات المعركة

يقول المؤرخون: إنّ رسول اللّه ﷺ قبل معركة أُحد أخبر أصحابه برؤيا رآها، قال ﷺ: «**رأيت البارحة في منامي خيراً: رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذبابة سيفي ثلماً، فكرهته؛ وهما مصيبتان، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، وأني مردف كبشاً**». فقالوا: يا رسول الله، وما أوّلتها؟ قال ﷺ: «**فأما البقر فناس مـن أصحابي يقتلون، وأمّا الثلم الذي رأيت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي ـ وفي رواية :ـ «من عترتي يقتل»**. وفي رواية: «**رأيت أن سيفي ذا الفقار فُلّ، فأوّلته فلاّ فيكم. وأما الدرع الحصينة فالمدينة، وأمـا الكـبش فـإني أقـتل كـبش القـوم**». وقال ﷺ لأصحابه: «**إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حـيث نـزلوا؛ فـإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها**». وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن. وقد حصل في حدّ سيفه ﷺ كسور، وحصل انفصام ظُبته وذهابها، فكان ذلك علامة على حصول كلّ ذلك [(٢)].

إثارات حول مناسبة النزول

ولنا هنا ثلاث إثارات حول هذا الأمر:

الأُولىٰ: مشورة المسلمين على الرسول ﷺ بالخروج من المدينة

كان رسول اللّه ﷺ قد جمع المسلمين وناقش أمر المعركة معهم، فأشاروا عليه

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٢٩، ٢: ٢٩.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٣: ٣٠٣، السيرة الحلبية ٢: ٤٩٠.

بألّا يبقى في المدينة؛ لأنّ في بقائه فيها خطراً عليه. فدخل ولبس لامة حربه ودرعه، فندم المسلمون على مشورتهم تلك على الرسول صلى الله عليه وآله، وقرّروا بأن يذهبوا إليه صلى الله عليه وآله؛ ليسحبوها، فأجابهم الرسول صلى الله عليه وآله بقوله: «**لا ينبغي لنبي يلبس لامة حربه أن ينزعها**»[1].

ولا شكّ أنّ المدينة المنوّرة كانت الدرع الحصين، وهكذا قتل في هذه المعركة سبعون صحابياً وقتل الحمزة بن عبد المطّلب.

الحمزة رضي الله عنه أسد اللّه ورسوله

لقد كان الحمزة رضي الله عنه سيفاً للّه تعالىٰ يقاتل دون رسوله صلى الله عليه وآله، يقول المؤرّخون: إن أبا جهل تعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله وآذاه بالكلام، وألقى السلى على ظهره وهو يصلّي، فاجتمع بنو هاشم، وأقبل حمزة من الصيد، فنظر إلى اجتماعهم فقال: ما هذا؟ فقالت له امرأة من بعض السطوح: إن عمرو بن هشام تعرّض لمحمد وآذاه. فغضب حمزة ومرّ نحو أبي جهل وأخذ قوسه فضرب بها رأسه، ثم احتمله فجلد به الأرض، فاجتمع الناس، وكاد يقع بينهم شرّ، فقالوا له: يا أبا يعلى، صبوت إلى دين ابن أخيك؟ فقال: نعم، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول اللّه. ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: أيرضيك هذا فقال صلى الله عليه وآله: «**نعم يرضيني ياعمّ**»[2].

وقد كان له مواقف عديدة، وقد عبّر عنه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بأنه «**أسد اللّه وأسد رسوله**»[3].

---

(١) تذكرة الفقهاء ٢: ٥٦٦ (حجري)، بحار الأنوار ١٦: ٣٨٧، المجموع شرح المهذّب ١٦: ١٤٢، كشاف القناع ٥: ٢٥.
(٢) إعلام الورى ١: ١٢٣ (قريب منه).
(٣) الكافي ١: ٢٢٤ / ٢، المستدرك على الصحيحين ٢: ١١٩، ٣: ١٩٤. وفيهما أنه صلى الله عليه وآله قال: «على قائمة العرش مكتوب: حمزة أسد الله وأسد رسوله».

الثانية: الأحلام بين العلم والدين، ورؤيا الأنبياء عليهم السلام

ويرد هنا سؤال هو: هل للرؤيا نصيب من الحقّ والواقع؟ وهل للرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وآله مضمون ومؤدّى؟

إنّ الأحلام عادة تأخذ حيّزاً من التفكير العلمي والديني والشعبي، فالدين مثلاً يعتبر بعض الأحلام جزءاً من النبوّة[1]؛ أمّا العلم فينقسم إزاءها إلى رأيين:

الرأي الأوّل: أنها معادل موضوعي

وتمثل هذا الرأي المدرسة التحليلية التي يرأسها فرويد وغيره وتذهب إلى أنّ الأحلام عبارة عن عملية تعويضٍ عما يراه الإنسان في عالم الواقع، فهي وسيلة توجد عنده حالة من التنفيس عن الكبت الذي يلاقيه في عالم الواقع وتعويضٍ عن الحرمان. وكذلك النظرية التي ترىٰ أنّ الأحلام هي عبارة عن انعكاس الواقع على صفحة الذهن، فما يبصره الإنسان نهاراً يره ليلاً عبر عملية لاشعورية تحدث في ذهنه.

الرأي الثاني: أنها وهم

ووفق هذا الرأي فإن الأحلام مجرّد أضغاث لا حقيقة لها ولا أثر على حياة الإنسان، وأنها لا تعدو أن تكون مجرد خيالات وأوهام.

غير أن هذه الرواية المارّة تدلّ على أن الرؤيا أحياناً تكون من صميم الواقع، وهي تعطي موقفاً إسلامياً واضحاً من الرؤيا والأحلام، وتقرّر أنّ وجهة نظر الإسلام حيال الأحلام ترى أن ليس كلّ المنامات أضغاث أحلام. وكون بعض

(١) الأمالي (الصدوق): ١٢١، مسند أحمد ٢: ١٨، ٥٠، ١١٩، ١٢٢، ١٣٧، ٣٦٩، ٣٦٩، ٤٣٨، وغيرها كثير.

الأحلام غير صحيحة لا يعني أن غيرها ليس له مصداقيّة، بل لابدّ من أن يحلّل تحليلاً سليماً وعقلانياً. لكن المصيبة تبقى في انتهاز الدجالين الفرص لاستدراج عوامّ الناس إلى حبائلهم، فيفسّروا لهم أحلامهم على هواهم؛ ليبتزّوا منهم أموالهم، وتكون النتيجة أن الخرافات تنتشر، وينتشر معها الجهل والظلام.

ولذا فإنّ الإسلام الحنيف عالج هذه المسألة معالجة حاسمة، فبيّن أنّ أي حكم شرعي يأتي عن طريق المنام فهو باطل، وكذلك أي أمر مخالف للواقع. لكن مما يؤسف له أنّ بعض المذاهب الإسلامية تعتمد الأحلام في إثبات حكم شرعي[1]، في حين أنّ الأحكام الشرعية كلها جاءتنا عن طريق اليقظة؛ فالحلم لا يمكن أن يكون مدركاً لحكم شرعي حتى لو كان المشاهد في المنام هو النبي صلى الله عليه وآله.

يروىٰ أن الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله ـ وكان في الكوفة ـ جاءه جماعة وقالوا له: إنّ المكان الكذائي قد رفع عليه صاحبه علماً، وهو يدّعي أنّه مغتسل الزاهراء عليها السلام. فقال رحمه الله: إن الزهراء عليها السلام توفيت في المدينة ودفنت فيها، فكيف جاء مغتسلها إلى هنا؟ فقالوا له: إن صاحب هذا المكان يأخذ النذورات والهدايا من الناس على هذا. فقال: جيئوني به.

فلما جاؤوا به سأله الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله: من أين لك هذا الادعاء؟ وما دليلك عليه؟ قال: رأيت في عالم الرؤيا أنّ الزهراء عليها السلام مرّت بي فقالت لي: هذا مكان مغتسلي. فقال له الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله: إنّ كلامك لا قيمة له وأنت يقظ صاحٍ، فكيف بك وأنت نائم؟

فالمسألة أننا لا نتخذ من المنام مصدراً من مصادر التشريع؛ لأنّ الحلم لا يمكن الركون إليه في مثل هذه المسائل الحساسة الخطرة والخطيرة.

---

(١) كمسألة الأذان، انظر مسند أحمد ٤: ٤٣، وغيره.

الرمزية في المنامات

لكن إذا نظرنا إلى الأحلام بعيداً عن هذا الجانب، وتأملناها بعين الناقد لوجدنا أنّها تشكّل رموزاً لمعاني واقعية؛ لأنّ النفوس تتّصل ببعض القوى الغيبية، فتتلّقى عنها وتستلهم منها.

الثالثة: الأُمويون وقضيّة تدوين التاريخ

وحول هذه الواقعة لنا وقفة ثالثة أيضاً تتعلّق بتدوين التاريخ التي صاحبها محاولات عديدة لطمس وجه الحقّ والحقيقة سيما فيما يتعلّق بأهل البيت عليهم السلام والأنصار، إنّ ابن الشهاب يعدّ مصدراً من مصادر كتابة التاريخ عند المسلمين، وقد كتبه تحت عيون الأُمويين ورقابتهم؛ لأنّهم هم الذين أناطوا أمر كتابته به، ولما شرع بكتابته واجهته مشكلة في صميم عمله، وهي قضيّة الروايات التي تمدح أمير المؤمنين عليه السلام، فكان أن نهوه عن تدوينها. وكذلك نجد مثلاً أحد كتّاب الوالي الأُمويّ خالد بن عبد اللّه القسريّ علىٰ الكوفة ـ وهو ممّن كتبوا التاريخ الإسلامي ـ يسأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المؤمنين عليه السلام؛ فهل يذكرها، أم لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم.

ومن هذا القبيل ما يروىٰ أن الرشيد ـ وهو ابن عم علي عليه السلام ـ أرسل خلف أحد العلماء، لأنه أفتى وفق رأي أمير المؤمنين عليه السلام في مسألة التكبيرات في الصلاة على الجنازة، وقال له: ألم تعلم أنّا قد نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع ذلك منك مرّة أُخرى.

وهكذا كان الحكام الطغاة يهدّدون كل من يكتب منقبة أو يذكر فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام[1]، فهُدّد ابن الشهاب بأنّ مصيره معروف لديه إن هو كتب فضيلة

(١) إن الأمر لم يقتصر على الحكام الطغاة فقط، بل تعدّاهم إلى الشعوب الإمّعة كما حدث

تروىٰ عن الإمام علي عليه السلام.

ثم يأتي القرطبي ليلج هذا الميدان، فيقول: كان حامل لواء المسلمين في معركة أُحد رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد بن عثمان اللخمي: هل لك في المبارزة؟ قال: نعم. فبدره ذلك الرجل فضربه بالسيف على رأسه حتى وقع السيف في لحييه فقتله، فكان قتل صاحب لواء المشركين تصديقاً لرؤيا رسول اللّه صلى الله عليه وآله[1].

مع أنّ الذي قتل في أُحد هو طلحة بن أبي طلحة العبدري (من بيت عبد الدار) ومعه ثمانية منهم أولاده وخادمه، وقد قتلهم أمير المؤمنين عليه السلام. ولما قتل صاحب لواء المشركين وسقط لواؤهم، رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية، ونزلت المعركة إلى أن توسّطتها وأصبحت في قلبها، وفي ذلك يقول حسان:

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب[2]

فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام قاتل أصحاب الألوية، لكن القرطبي لم يصرّح

☚ مع النسائي حينما ألّف (مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) فقد اجتمع عليه المحدّثون والقرّاء وغيرهم في دمشق ـ وقيل: في فلسطين، وكان قد خرج من مصر وافداً على دمشق ـ في بعض مجالسه، فسأله بعضهم: أيهما أفضل علي أم معاوية؟ فقال على الفور: أما رضي معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضّل؟ وقال: والله لا أعرف له فضيلة إلّا قول النبي صلى الله عليه وآله: « لا أشبع الله بطنك ». فداسوه بأرجلهم وأخرجوه من الشام مضروراً، فتوجّه نحو مكّة المكرّمة وتوفّي بها متأثّراً بإصابته. وفيات الأعيان ١: ٧٧، النصائح الكافية: ١٩٩.

ونقل عنه أنه قال: « دخلت الشام، والمنحرف عن علي عليه السلام بها كثير، فصنّفت كتاب (الخصائص) رجوت بذلك أن يهديهم الله ». شذرات الذهب (ابن العماد الحنبلي) ٢: ٢٤٠.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٣٥.

باسمه هنا ولم يذكره، فهل تحجب مثل هذه المحاولات الحقائق من تاريخ هذا الرجل العظيم، أم إنّه يبقىٰ على حاله متألّقاً يضيء نوره جبهة التاريخ؟

سيدي يا أبا تراب يطيب الـ ـغرس فيه وتشرئبّ الجذورُ
أنا فيما ينمىٰ إليك وما تر ويه عن وجهك الرؤىٰ المأسورُ
هزني أنني المهوّم في دنـ ياك حتى يفيق مني الشعورُ
وتصلّي مشاعري عند محرا ب به تُدمن الصلاة العصورُ

فكل نفس مسلمة مذعنة له، وحسب عليّ عليه السلام ما قدّمه في سبيل خدمة المسلمين؛ ولذا نجد الأرواح تتهاوىٰ على ترابه، وتسجد على رملته السمراء:

على البعد يا وادي السلامِ تحيةً لوادٍ ثوت فيه الوجوهُ النواضرُ
تكوّر فيه كلّ جيلٍ بحفرةٍ فلخّصت الأجيالَ تلك الحفائرُ
بها يستوي من مات من عهد آدم ومن مات من أمسِ فكل دواثرُ
ركائب أجيال تيمّمن ماجداً يؤمّل جدواه مقيم وحاضرُ
ومثل عليّ وهو من عزّ مثلُه سريّ يرجي رفدَه من يجاورُ

فأمير المؤمنين عليه السلام وقف كل ذرّة من كيانه في خدمة الإسلام، غير أنّ الطغاة والجناة على التاريخ لم يهدأ لهم بال دون أن يحاولوا تشويه صورته، لكن هيهات ذلك. يصعد عبيد اللّه بن زياد على منبر الكوفة ويقول: الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين وحزبه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب وشيعته. فقام له عبد الله بن عفيف الأزدي وقال: يابن مرجانة، إن الكذّاب أنت وأبوك والذي ولّاك، أتقتلون أولاد النبيّين: وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟ فأمر به ابن زياد، فمنعه الأزد وانتزعوه من أيدي الجلاوزة، فقال ابن زياد: اذهبوا إليه فائتوني به.

فلما بلغ الأزد اجتمعوا وقبائل اليمن معهم، فبلغ ذلك ابن زياد، فجمع قبائل

مضر وضمّهم إلى ابن الأشعث وأمره بالقتال، فاقتتلوا وقتل بينهم جماعة ووصل أصحاب عبيد الله إلى دار عبد الله بن عفيف،فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: اتاك القوم من حيث تحذر.فقال: لا عليك، ناوليني سيفي. فناولته، فجعل يذبّ عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر   عفيف شيخي وابن أُم عامرِ
كم دارع من جمعكم وحاسرِ [1]

أمير المؤمنين عليه السلام سيرةً وموقفاً

بشر أقلّ صفاته إن عاينوا   منهن ما ظنّوا به المعبودا
ضلّت قريش كم تقيس بسابق الـ   ـحلبات ملطوم الجبين مذودا
يا صاحب المجد الذي لجلاله   عنت السرايا منصفاً وعنيداً
لك غرّ أفعال إذا استقرأتها   أخذت عليّ مفاوزاً ونجودا
وصفات فضل أشكلت معنى فلا   إطلاقَ يكشفها ولا تقييدا
ومراتب قُلّدتها بمناقب   كالعقد تُلبسه الحسان الخودا [2]

المباحث العامّة للموضوع

وقفات في حياته عليه السلام؟

حينما يريد البعض أن يترجم لشخصيّة ما فإنّه يلجأ إلى طريقة إحصائية لبيان أبعاد المعرفة عنده، فيسلّط الأضواء على بعض الأُمور الهامّة في حياته. ونحن سوف نستخدم هذه الطريقة في دراستنا لبعض ملامح أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف

(١) مثير الأحزان: ٧٢ – ٧٣.   (٢) ديوان الحاج هاشم الكعبي: ٣٩.

نسجّل ذلك في وقفات عدّة ،وسنخصّص كل وقفة بمبحث إن شاء الله :

المبحث الأوّل: قضية العمر عنده‌عليه‌السلام وإشكالية إسلامه

إنّ أوّل ما يمكن أن يحصى لأمير المؤمنين‌عليه‌السلام هو عمره، وهو وإن كان قصيراً بالمدىٰ لكنه طويل بعطائه وإنجازاته وخدماته للإسلام ورسول الإسلام‌صلى‌الله‌عليه‌وآله وللمسلمين. وعمر الإمام‌عليه‌السلام بالنسبة للأعمار الطويلة يعتبر قصيراً جداً، فهو لم يتجاوز العام الثالث والستين من عمره الشريف إذا عرفنا أنّه‌عليه‌السلام ولد عام (١٠) قبل المبعث الشريف (بعد عام الفيل بثلاثين عاماً). وعلى هذا فإنّ عمره الشريف كان عشر سنوات حينما نزلت أوّل سورة من القرآن الكريم وسمعها ووعاها. وهذا المعنى حاول بعض المؤرّخين أن يرميه بسهام الشكوك، من جهة أنه لا يمكن أن يعتبر الإنسان في هذا العمر إنساناً كاملاً، ولا تعدّ مداركه مدارك ناضجة. وعليه فيكون إسلامه‌عليه‌السلام غير صحيح في مثل هذا السنّ، ولا يعدو إسلامه أن يكون تقليداً؛ لأنّه صبي غير ناضج لم يعتنق الإسلام عن وعي وإدراك[١].

مناقشة دعوى أنّه‌عليه‌السلام لم يسلم عن إدراك

وهذه الدعوىٰ مردودة من عدّة وجوه، منها :

الأوّل: أنه‌عليه‌السلام نشأ مسلماً

إنّ هذا الكلام يمكن أن يوجّه إلى شخص لم يكن مسلماً ثم أسلم، أمّا مع أمير المؤمنين‌عليه‌السلام الذي ربي في بيت التوحيد والنبوة، فالأمر مختلف؛ لأنه‌عليه‌السلام كان يعيش الوحدانية في ذاته ومشاعره؛ فلم يسجد لصنم قط. وهذه الذهنية اللامعة إذا لم تكن تسجد لصنم أبداً فلمن كانت عبادتها تتوجّه إذن؟

---

(١) وهذا ما أثبته المأمون في مناظرته مع علماء السنّة. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

الثاني: اصطحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله إياه إلى غار حراء

إننا نعرف ـ كما يثبت التاريخ ـ أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان يصطحب أمير المؤمنين عليه السلام خلال هذه السنوات العشر معه إلى غار حراء حيث يتعبّد، فكان عليه السلام يفتح عينيه على الدنيا من خلال عبادة اللّه وتوحيده. وكان يعيش هناك في حجر النبي صلى الله عليه وآله يسمع تهجّده ويحفظ أذكاره ويحاكي تعبّده. وهكذا يكون على مثل منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ويكون الاعتراض بأن إسلامه غير ناضج لا اعتبار له، وفي غير محلّه.

ثم إننا لو راجعنا التاريخ المعاصر لوجدنا فيه عباقرة وهم في سن دون السن التي كان عليها أمير المؤمنين عليه السلام، ففي العام (١٤١٥) مثلاً منح شخص شهادة البكالوريوس وكان عمره (١٢) سنة. ونحن لا نريد أن نبرهن على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان على رأس النوابغ؛ فهو عليه السلام أكبر من هذا.

المبحث الثاني: الإمام عليه السلام ينذر حياته دفاعاً عن الإسلام وصاحبه صلى الله عليه وآله

لقد كان عليه السلام منذ أن بعث اللّه تعالى نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله برسالته وحتى هجرته الشريفة واضعاً يده على قائم سيفه، ينافح ويكافح من أجل رسول اللّه صلى الله عليه وآله ومن أجل هذه الدعوة المباركة الجديدة. وكان عليه السلام بهذا يعرّض نفسه للحجارة والآلام والمخاطر في سبيل هذا الهدف الشريف، وكان نصيبه من الاضطهاد كبيراً؛ حيث إنّه عليه السلام كان يلاقي كل ما كان يلاقيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ لأنّه كان يلازمه كظلّه، ويدافع عنه دفاع المستميت.

دوره عليه السلام في حفظ الإسلام

وعندما هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والمسلمون إلى المدينة كان عمر الإمام علي عليه السلام ثلاثاً وعشرين سنة، وفي السنة الأُولىٰ من الهجرة تزوّج من سيدتنا

فاطمة الزهراء عليها السلام. وكانت السنوات العشر الأُولىٰ التي قضاها في المدينة المنوّرة مع رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله تعدّ مركز الثقل في حياته عليه السلام من نواحٍ متعددة؛ لأنّ الإسلام بني خلال هذه السنوات العشر، وفيها تأسّس المجتمع المدني. وقد كان لأمير المؤمنين عليه السلام الإسهام الأكبر في بناء هذا الدين والمجتمع على الأصعدة المدنية والحربية، وكل ذلك خدمةً للنبي صلى الله عليه وآله ورسالته، خدمة خالصةً لوجه اللّٰه تعالىٰ.

وبعد وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وارتحاله إلى الرفيق الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ وكان عمره الشريف آنذاك ثلاثاً وثلاثين سنة ـ عاش خمساً وعشرين سنة مع الخلفاء إبان فترة حكمهم، حيث بلغ من العمر ثمانياً وخمسين سنة. ولم يكن عليه السلام خلال فترة حكم الخلفاء الثلاثة مجمّداً أو يمتنع عن أن يكون له دوره الفاعل في حياة المجتمع والدولة، بل كان يشارك في كل الفعاليات بكل ما يمكنه المشاركة به، فكان عنصراً ذا وجود واضح على الساحة الإسلامية في المدينة، يتدخّل ليبدي رأيه في كثير من أمور الدولة والناس ومشاكلها ومشاكلهم[1].

(١) لعلّ في تدخّله عليه السلام في كثير من أحكام القضاء التي قضىٰ بها الخلفاء الثلاثة، انظر: الإرشاد ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨.

وفي مشورته على الخلفاء في أُمور الدولة؛ كقضية التاريخ، انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، البداية والنهاية ٧: ٨٥، الكامل في التاريخ ١: ١١.

ومنعه الخليفة الثاني من الذهاب بنفسه إلى المعركة حيث قال له: «نَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَه، وَنَاصِرٌ جُنْدَه. وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ؛ فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ، وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا

وبعد استلامه عليه السلام دفّة الخلافة سنة (٣٦) هـ بقي في المدينة المنوّرة، لكنه عليه السلام ارتحل عنها إلى الكوفة بعد واقعة الجمل سنة (٣٧) هـ، وبقي فيها حتىٰ استشهاده عليه السلام عن عمر يبلغ الثالثة والستين عاماً. وكانت فترة حكمه أربع سنوات وثمانية أشهر. يقول أحد الشعراء:

ستّون عاماً فخاماً في حصائلها وإن تبدّىٰ قليلاً عندها العدد

لقد كان عمره الشريف كما قلنا (٦٣) سنة، لكن هل هذا هو العمر الحقيقي له (سلام اللّه عليه)؟ كلّا؛ إنّه لازال في صميم الحياة، فالعمر يقدّر بالعطاء، وعمره الشريف (سلام اللّه عليه) متدفّق بالعطاء، مفعم بالإخلاص والتفاني في خدمة دين اللّه تعالىٰ. وهكذا كان عليه السلام منذ دخوله الدنيا وحتى خروجه منها، ويظل عطاؤه يتوالد؛ فنظرياته تمسح كل أبعاد المعرفة:

ستلقاه حيّاً في الروائع كلها وفي كل سفر من روائعه فكرُ

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا أهذا الكيان الضخم يجمعه قبرُ

ولكنه باب إلى معطياته يمدّ غناه من بساحته فقرُ

فما يزال علي حيّاً بنظرياته وفكره وأخلاقياته وقيمه، وسيبقىٰ حيّاً وعطاءً بعد عطاء إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها. وهذه هي حصيلة عمر علي بن أبي طالب عليه السلام الإحصائية.

☚ بَيْنَ يَدَيْكَ. إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ، فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.
فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ». انظر: نهج البلاغة / الخطبة: ١٤٦. أكبر دليل على ذلك.

المبحث الثالث: زواجه عليه السلام وأسباب تعدد الزوجات أول الإسلام

لم يتزوّج أمير المؤمنين من غير فاطمة عليها السلام حال حياتها، ولم يعدّد إلّا بعد وفاتها عليها السلام. وهذه نقطة تستحق الوقوف عندها، فعند الرجوع إلى تاريخ الصحابة في الفترة التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام من النادر أن نجد صحابياً لا يملك عدد الأزواج نفسه الذي يملكه أمير المؤمنين عليه السلام. فقد كان الصحابة يكثرون الأزواج لأسباب متعدّدة، منها:

الأوّل: تمتين الوشائج بين القبائل

فقد كان البعض من الصحابة يعمد إلى الزواج من قبائل أُخرىٰ، حتى تبقىٰ الوشائج قوية بين قبيلته هو كمسلم وقبيلة زوجته، وهكذا تستمر المصاهرة بهذا اللون حتى يأتي الوقت الذي تمّحي فيه الآثار القبلية. وهذا مردّه إلى أنّ الإسلام كان ضعيفاً في بادئ أمره، فاحتاج إلى أنّ يتجذّر في القبائل.

الثاني: تكثير المقاتلين

فالإسلام في أوّل أمره حوصر من جهات عدّة، فقد تكالب عليه العرب والأُمم الأُخرىٰ، وكان المسلمون معرّضين للقتل والذبح والإبادة في أية لحظة؛ فلذا كان لابدّ لهم من أن يهيّئوا وقوداً لمعركتهم ضد أُولئك، وهذا الوقود لا يجيء إلّا عن طريق الإكثار من الزوجات.

الثالث: عامل القربى والتربية

إنّ المتتبّع لبعض الزيجات وبالأخص عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعند أمير المؤمنين عليه السلام يجد أنّ عامل الرغبة منتفٍ جداً وبشكل واضح وكبير فيها. والعامل الوحيد المأخوذ بنظر الاعتبار هنا هو مراعاة أواصر القربىٰ بينهم وبين من يتزوّجون منهن أو من أزواجهن المتوفَّين عنهن، ومراعاة تربية أبنائهن تربية

سليمة، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام في زواجه من أسماء بنت عـميس. وإلّا فـما الذي يجبر أمير المؤمنين عليه السلام على الزواج منها وقد كانت تحت تحت جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد أولدها، ثم تحت أبي بكر الذي أولدها محمداً (الابـن النـجيب والمطيع لأمير المؤمنين عليه السلام)؟ أليس هو عامل مراعاة القرابة وتربية هؤلاء الصغار تربية صحيحة سليمة؟ فمعظم نساء أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النوع.

إذن فقد كان أمير المؤمنين مكثراً من الزوجات، وكانت فـاطمة الزهـراء عليها السلام سكنه الأوّل وروحه من الدنيا، وكان عليه السلام يوليها رعاية وعناية لا حدود لهما ولا نظير. ثم تزوج بعدها أمامة بنت أبي العاص (ابنة اخت الزهراء عليها السلام)، وكان عليه السلام قد تزوّجها بوصيّة منها عليها السلام حيث قالت له عليه السلام: **«في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها»**. قال عليه السلام: **«بلىٰ، عزّ واللّه عليَّ فراقك يا بنت رسول اللّه»**. قالت: **«يا أبا الحسن، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة؛ فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يـوماً وليلة»**[1].

ثم تزوّج فاطمة بنت حزام أُم البنين (رضي اللّه عنها)[2]. ومن أزواجه خولة الحنفيّة (أُمّ محمد بن الحنفية رضي الله عنه)، والمحيّاة بنت امرئ القيس الكلبيّة، وأُم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي، بالإضافة إلى عدد من الجواري.

وكان عدد نسائه ثمانياً على أصحّ الأقوال، ومعظم زيـجاته عليه السلام مـنهن كـان

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) ومن باب أنّ الشيء بالشيء يذكر أنّ من أسباب تعدّد الزوجـات هـو مـن أجـل إعـداد المقاتلين للمعركة، نذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام كان قد طلب من أخيه عقيل أن يبحث له عن امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب ليتزوّجها فتلد له غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعـضداً لولده الحسين عليه السلام بطف كربلاء. انظر: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

يتجلّىٰ فيها الجانب الاجتماعي؛ حيث إنّه عليه السلام يصاهر عروة بن مسعود الذي يقول فيه القرآن الكريم على لسان المشركين: ﴿**وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ**﴾[1]. فكان زواجه من هذا البيت لهدف اجتماعي يصب في خدمة الإسلام. وأمّا جواريه فلم يكنّ لغير هدف اجتماعي كان عليه السلام يرتئيه.

وأمّا عدد أبنائه وبناته فثلاثة وثلاثون ولداً؛ قتل منهم عشرة يوم الطف الذي لم يحضره آخرون لمرض أو لعذر آخر. والتاريخ لا يسعفنا بمعلومات كافية وافية حول امتناع من امتنع عن الطف، ولا يمدّنا بما نستطيع أن نخرج منه بنتيجة صائبة لا تقبل الردّ والنقاش، مع أنّ في هذه الواقعة تقرير مصير الدين والأُسرة والحق. وإلّا فلماذا يتخلّف أخ للإمام الحسين عليه السلام عن الخروج معه في حين أنّه عليه السلام حضر معه من لا يمتّون إليه بصلة دموية؟ لابدّ أن يكون هناك سبب ما يستحق أن تسلّط الأضواء عليه.

المبحث الرابع: عطاءاته عليه السلام

العطاء الأوّل: رصيده عليه السلام من الهجرة

لقد كان له عليه السلام هجرتان:

الأُولىٰ: هجرة الطائف

فقد كان عليه السلام يخرج خلف رسول اللّه صلى الله عليه وآله حينما كان يذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام والإيمان بعد رفض قريش دعوته، فكان أهل مكة يدفعون جهّالهم وأطفالهم ليرموه بالحجارة التي كانت تأخذه يميناً وشمالاً حتى تدمىٰ قدماه الشريفتان. وعندها اضطرّ صلى الله عليه وآله للخروج إلى الطائف، ولم يكن موقف أهل

---

(١) الأنعام: ٨.

الطائف بأحسن من موقف أهل مكّة، فكانوا يسلطون عليه أطفالهم بالحجارة يرمونه بها؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج معه ليدفع عنه شرّهم وآذاهم.

مغالطات المؤرّخين فيما يخصّ أمير المؤمنين عليه السلام

والغريب من بعض المؤرّخين أنهم حينما يمرّون بمنقبة له عليه السلام أو فضيلة يحاولون نسبتها إلى غيره أو سحبها لذلك الغير [1]. ومن هذه الموارد:

١ ـ هجرته عليه السلام إلى الطائف

فبعض المؤرّخين يقولون: إنّ الذي كان يخرج مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله هو أُسامة ابن زيد [2]، وليس أمير المؤمنين عليه السلام الذي ذكر ابن أبي الحديد أنه عليه السلام كان معه [3].

٢ ـ توكّؤ رسول اللّه صلى الله عليه وآله على كتفه

وكذلك نحن نروي أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله خرج في مرضه من بيت إحدىٰ

(١) من قبيل ادّعاء ابن تيمية أن آية التطهير وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣ لم تنزل فى أمير المؤمنين عليه السلام، يقول: اتّفق أهل العلم على أن هذا كذب. منهاج السنة ٤: ٢٥٩.
وكذلك من قبيل ادّعائه أن سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلى الإنْسان﴾ لم تنزل فيه وفي فاطمة الزهراء وابنيهما عليهم السلام. مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩.
وادّعائه أنه ليس في الصحيح من أخبار مدح أمير المؤمنين عليه السلام ما يدل على إمامته ولا على فضيلته على أبي بكر وعمر، بل وليست من خصائصه وإنما هي فضائل شاركه فيها غيره بخلاف ما ثبت من فضائل أبي بكر وعمر فإن كثيراً منها خصائص لهما لا سيما فضائل أبي بكر فإن عامّتها خصائص لم يشركه فيها غيره. منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥.
انظر كل هذا مفصّلاً مع ردّ ابن الجوزي عليه في ج٣ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) انظر: بحار الأنوار ١٩: ٢٢ عن الكازروني، الاستيعاب ١: ٤٠، الطبقات الكبرى ١: ٢١١، أُسد الغابة ١: ٢٠.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤: ١٢٧.

نسائه ،وكان ﷺ متوكّئاً بيد على منكب الفضل بن العباس ، وبيده الشريفة الاُخرىٰ علىٰ منكب أمير المؤمنين عليه‌السلام. أمّا الطرف الآخر فيروي أنّه ﷺ كان يتوكّأ علـى منكب الفضل بن العبّاس بيد وبالأُخرى على منكب رجل آخر. فهم لا يـطيقون حتى ذكر اسمه عليه‌السلام.

٣ ـ حامل لواء المسلمين في اُحد

وفي هذا المضمار يروي ابن شهاب فيقول: وحمل لواء المسلمين يوم اُحـد رجل منهم، فلا يطيق ذكر اسم علي عليه‌السلام حامل اللواء يومها.

فالتشنّج الذي يحمله البعض إزاء أمـير المـؤمنين عليه‌السلام، ويـجعلهم لا يـطيقون ذكر اسمه من الطبيعي أن يحملهم على رفـض فكـرة أنـه صـاحب الهـجرة إلى الطائف مع رسول اللّه ﷺ درعاً له وحماية، بعد أن اضطرته حجارة قريش إلى أن يخرج إليها. وهناك وقف له أهل الطائف ثلاث فرق، وقال له أحد رؤسائهم: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟ فأغضى النبي ﷺ عنه؛ فالسكوت أحياناً يكون أبـلغ جواب. وقال له الآخر: أنت يتيم أبي طالب، وتريد أن تسود العرب؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان اللّه بعثك؟ ولم يجبه النبي ﷺ أيضاً. والتفت له الثالث فقال: أنت بين أمرين: إما أن تكون نبيّاً، وإما أن تكون كذّاباً، فإن كنت نبيّاً فأنت أكبر من أن اُكلّمك، وإن كنت كذّاباً فأنا أكبر من أن اُكلّمك.

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كلّ جانب ومكان حتى أدمـته، فرفع ﷺ رأسه إلى السماء وقال: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلني؟ إلى عبد يتجهّمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا اُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك،**

أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»[١].

وهذه هي الهجرة الأُولى.

الثانية: هجرته عليه السلام إلى المدينة

وهذه الهجرة تشكّل رقماً يلوي الأعناق، ويشدّ العيون إليه شدّاً، لأنّه تحدّى كبرياء قريش وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وخرج بالفواطم (فاطمة الزهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب) إلى المدينة قائداً لظعينة رسول اللّه صلى الله عليه وآله. وكان قد تحدّاهم في وضح النهار قائلاً: «**هذه ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا خارج بها، ومن أحبّ منكم أن يتبعني فليفعل**».

وخرج لظعينته يحميها وهو ماشٍ علىٰ قدميه، فقد ذكر المؤرّخون أن قدميه قد تشقّقتا؛ إذ لم يرضَ عليه السلام أن يركب على راحلة؛ طلباً لمرضاة اللّه تعالى ومرضاة رسوله، إلى أن أخذت الأرض من قدميه مأخذها، وحتىٰ تشقّقتا، وظهرت فيهما القروح، فتلّقاه رسول اللّه صلى الله عليه وآله يبارك قدمين سعتا في سبيل اللّه، ويداً ذادت عن عيال رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فاحتضنه ومسح علىٰ رجليه واعتنقه وأبىٰ أن يدخل إلىٰ دار هجرته إلّا وساعده بساعد علي عليه السلام[٢].

العطاء الثاني: رصيده من الوقائع والحروب

وخاض (سلام اللّه عليه) ثلاثاً وثمانين غزوة وسرية كان لواء المؤمنين فيها بيده، وكان فيها البطل الأوّل المدافع والمنافح عن الإسلام وعن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله، وكان الجسد الذي يتلّقى الطعنات درءاً للخطر عن أن يصيب جسد

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١. (٢) شجرة طوبىٰ ١: ٦٤ ـ ٦٦.

المسلمين، وكان السيف الذي غرّد به جبرئيل بين السماء والأرض: «**لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علي**»[(١)].

إنّه السيف الذي لم يسلّ قط للبغي أو للتجبّر والظلم، بل إنّه سلّ ضدّ هذا.. كان سيفاً ينال الشجاع ويترفّع عن قتل الجبان، سيفاً أبىٰ أن يوضع على عنق عمر بن العاص الذي لم يستقبله ببطولة الرجال الشجعان، بل استقبله بانخذال الجبناء.. سيفاً ترفّع عن قتل بسر بن أرطاة وعمرو بن العاص[(٢)]، بل إنّه ترفّع حتى عن قاتله. إنّه سيف سُلّ تركيزاً لكلمة «**لا إله إلّا اللّه**» وللدفاع عن دماء المسلمين وأعراضهم، فأبلىٰ في اللّه أحسن البلاء.

وها هو عليه السلام يعطينا صورة واضحة عن هذه المسيرة الطويلة المفعمة بالعطاء والجراح، والمليئة بالآلام في خدمة الإسلام؛ فيلج الحرب تلو الحرب. يقول عليه السلام: «**وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً وأقدم فيها مقاماً منّي؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين**»[(٣)].

أي أنّه عليه السلام أمضىٰ من عمره ثلاثاً وأربعين سنة لم يخرج فيها من لهوات

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٩٧، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٣: ٩٤، ٤: ٧٠٧، كنز العمّال ٥: ٧٢٣ / ١٤٢٤٣.

(٢) حيث استقبلاه بعورتيهما، وقد نظم بعض الشعراء ذلك شعراً، فقال أبو فراس الحمداني:

ولا خير في دفع الردىٰ بمذلّة ... كما ردّه يوماً بسوءته عمرو

ديوان أبي فراس: ١٥٧. وقال آخر:

أفي كلِّ يومٍ فارسٌ تندبونَه ... له عورة وسطَ العجاجةِ باديهْ
يكفُّ بها عنه علي سلاحَهُ ... ويضحكُ منها بالخَلاء مُعاويهْ
بدت أمسِ من عمرٍو فقنّع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيهْ
فقولا لعمرٍو وابن أرطاة أبصرا ... سبيليكما لا تلقيا الليث ثانيهْ

الفصول المهمّة: ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.

(٣) نهج البلاغة / الخطبة: ٢٧.

الحرب. وقد أعطته هذه الفترة رصيداً ضخماً من الجراح، فقد حُمل في واقعة أُحد مثلاً وفي جسده أربع وستون طعنة رمح وضربة سيف كما يروي المؤرّخون. وكانوا قد وضعوه على حصير أحضرته الزهراءعليها السلام وهو قطعة واحدة من الدم، فراحتعليها السلام تمسح الدماء عنه وتضمّد جروحه، فنبذ إليها السيف وهو يقول:

«أفاطم هاك السيف غير ذميمِ فلست برعديد ولا بمليمِ

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمدٍ وطاعة ربّ بالعباد رحيمِ» [1]

وجاءه رسول اللّهصلى الله عليه وآله يعوده ويواسي جراحه، فأخذ يمرّ بآنامله الشريفة وكفّه الكريمة فتتهاوى الجراح فتبرؤ. وكانعليه السلام طالما يقول: «**إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على فراش**»[2].

إنّ كل جرح من هذه الجراح هو وسام من أوسمة البطولة؛ لأنّه كان يبتغي بها وجه اللّه تعالى وليس الانتقام لنفسه[3]، فلذا كان كل واحد منها يغرّد بفضله وبطولته، فهوعليه السلام عندما ينزل إلى ساحة المعركة تتحاشاه الرجال والأبطال، فيخط صفحة من صفحات المجد والخلود، وهو يحمل ذلك السيف الفارق بين الحقّ والباطل، أولسنا نسمع رسول اللّهصلى الله عليه وآله يخاطبه بقوله: «**ويلٌ لمن سلّ سيفَه عليك،**

(١) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

(٣) وأكبر دليل على أنّه لا يروم الانتقام لنفسه موقفه مع عمرو بن ودّ العامري. انظر تاريخ الطبري ٢: ١٩٤.

وسللت **سيفَك عليه** »[(١)]؟ فهو سيف لم يسلّ إلّا لينصر الحقّ ويخذل الباطل ويدحضه، وليقف بوجه البغي.

العطاء الثالث: رصيده من المؤلّفات

له عليه السلام من المؤلّفات عشرة:

١ ـ تفسير القرآن الكريم. لقد كان عليه السلام ما إن تنزل آية حتى يسأل عنها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وعن معناها ونزولها، فيجيبه الرسول صلى الله عليه وآله. وكان يكتب كل ذلك في ذيل كل آية يسأل عنها، حتى جمع القرآن كله على هذه الشاكلة على ترتيب النزول؛ المكي ثم المدني. وهذا القرآن هو الذي يعبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات**»، و«**ما فيه من قرآنكم شيء**»[(٢)]، أي أنّه تفسير فقط.

فرى على الشيعة حول مصحف أمير المؤمنين عليه السلام

فهذا هو مصحف علي عليه السلام، لكن هنا بدأت الأقلام المأجورة والمزيّفة، والأيدي والأفواه غير الشريفة بالتطاول والتقوّل على الشيعة حول هذا المصحف، فيقولون: إنّ للشيعة قرآناً غير قرآن المسلمين، ويزعمون أنّ المهدي حينما يخرج فإنّه يخرج به.

وهذا تخريف، فنحن ليس عندنا سوى هذا القرآن الذي يقرؤه مسلمو الأرض، وكل من يدعي غير ذلك فعليه أن يأتي بالبرهان ولا يكتفي بالتحكّم وإطلاق الدعاوىٰ والفرىٰ بغير دليل. ومن يقلْ بوجود رواية عند الكليني بهذا الخصوص،

(١) المزار (الشهيد الأول): ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦، وفيهما: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلّ سيفه عليك وسللت عليه سيفك يا أمير المؤمنين من المشركين والمنافقين إلى يوم الدين».

(٢) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.

فنحن مستعدّون لأن نعطيه عشرات الروايات في كتب الحديث والصحاح، تقول بوقوع التحريف في القرآن[١]. غير أنّ المسلمين لا يأخذون بهذه الروايات ولا يعتدّون بها.

إنّ هناك روايات تُنسب إلى الخليفة الثاني يصرّح فيها بأنّ هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم[٢]، وينسب إلى عائشة حذف آيات الرضاعة بنسخ التلاوة[٣]، وينسب إلى بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله أيضاً أنّ بعض الآيات قد أكلها الداجن[٤]، غير أنّ المسلمين كما ذكرنا لا يرتّبون على هذا أثراً. والكليني رحمه الله نفسه يشترط لصحة الأحاديث شروطاً في مقدّمة (الكافي)، حيث يقول: «فاعلم يا أخي (أرشدك اللّه) أنه لا يسع أحداً تمييز شيء ممّا اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلّا على ما أطلقه العالم عليه السلام بقوله: «**اعرضوها على كتاب اللّه؛ فما وافق كتاب اللّه عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب اللّه فردّوه**»...»[٥].

---

(١) انظر هذا البحث في محاضرة (تحريف القرآن) ج ٤ من موسوعة محاضرات الوائلي، وانظر الهوامش التالية.

(٢) وهي: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله تعالى). انظر: الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، المنخول في علم الأُصول (الغزالي): ٣٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٣: ٢٣٠.

(٤) حول هذا الموضوع انظر: مسند أحمد ١: ٢٣، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٥٠، ٥: ١٢٩، ١٣٢، ٦: ٢٦٩، صحيح مسلم ٢: ١٠٥٠ / ٧٢٦، ١٠٧٥ / ١٤٥٢، سنن الدارمي ٢: ٢١٧٩، السنن الكبرى ٨: ٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤٥٦: ٣، المصنف (الصنعاني) ٧: ٤٦٧، ١١: ٤٧٠، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٩، ٣٦٠، الكشاف ٣: ٥١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١١٣، ٢٠: ٢٥١، مناهل العرفان ١: ٢٧، ٢٥٧، ٢: ١١١، روح المعاني ١: ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، الإتقان ١: ٢٤٢، ٣: ٨٢، ٨٤، ٢٠٦، الدر المنثور ٦: ٥٥٩ ـ ٥٦٠، وغيرها كثير.

(٥) الكافي ١: ٨.

وليس هناك مسلم يشهد الشهادتين يؤمن بوجود زيادة ونقيصة في القرآن الكريم؛ لأنّه حينذاك سوف لن تسلم له عبادة ولن يتمّ له حكم شرعي؛ إذ من الممكن أن تكون هذه الزيادة أو النقيصة قد تطرّقت لعباداته ومعاملاته وتكاليفه، فتكون ناقصة أو فيها أشياء ليست من اللّه ولا من رسوله صلى الله عليه وآله.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يسلّي فاطمة الزهراء عليها السلام عن فقد رسول اللّه صلى الله عليه وآله بقراءة شروح الآيات لها وما فيها من معانٍ وأحكام؛ فقد كانت عليها السلام تعيش الألم والحزن لفقد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فكان الإمام عليه السلام يسليها بذكر اللّه ومدارسة آيات كتابه العزيز.

٢ ـ كتاب علوم القرآن: وهو كتاب جمع عليه السلام فيه أحكام علم التجويد والنحو المرتبط بالقرآن، وعلمي الفقه وأُصوله، والآيات التاريخية وغير ذلك.

٣ ـ قضايا علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو مصنّف جمع فيه القضايا والأحكام القضائية التي استلّها من القرآن، وذلك حينما يترافع عنده اثنان فإنّه يحكم بينهما بالقرآن. وقد جمعت هذه المسائل في كتب مستقلّة.

٤ ـ كتاب الجفر. يقول أبو العلاء المعري:

لقد عجبوا لأهلِ البيتِ لمّا ... أتاهم علمُهم في مَسكِ جَفْرِ

ومرآةُ المنجّمِ وهي صغرىٰ ... أرته كلَّ عامرةٍ وقفْرِ[(١)]

٥ ـ الجامعة.

٦ ـ كتاب في الزكاة.

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٥٠ / ٤٠٨، والجفر: ولد المعز، وهو ما بلغ أربعة أشهر. الصحاح ٢: ٦١٥ ـ جفر.

والمسك: الجلد، ومنه قولهم: أنا في مسكك إن لم أفعل كذا وكذا، الصحاح ٤: ١٦٠٨ ـ مسك.

٧ ـ كتاب في الفرائض والمواريث.

٨ ـ كتاب في أبواب الفقه العامّة.

٩ ـ كتاب في الفقه، لكن لم يحدّد المؤرّخون موضوعه.

١٠ ـ نهج البلاغة. وهو كتاب غني عن التعريف.

ومن المختصّين من يجعل مؤلّفاته أحد عشر مصنّفاً بجعل عهده عليه السلام إلى مالك الأشتر كتاباً مستقلّاً، أمّا من يعدّه ضمن (نهج البلاغة) فيجعلها عشرة مصنّفات.

محاولات التشكيك في نسبة (نهج البلاغة)

إنّ كتاب (نهج البلاغة) هو أهمّ مؤلّفات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد استأثر باهتمام عامة الناس وخاصّتهم من علماء وأُدباء وغيرهم؛ شرحاً وإثباتاً ونفياً، فلم تترك الأقلام المشبوهة هذا الكتاب وشأنه، بل نجد أنّه بين فترة وأُخرىٰ يطلّ علينا كاتب يدّعي أنّه ليس لأمير المؤمنين عليه السلام، بل إنّه من وضع غيره ثم نُسب إليه. وهذا مردود بأنّ أي أديب متمرّس يعرف بمجرّد قراءته أنه لأمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه من كلامه؛ فكلامه عليه السلام واضح بيّن لا يستطيع أحد أن يجاريه فصاحة وبلاغة [1].

---

(١) قد مرّ هذا المبحث والردّ عليه في محاضرة (تحريف القرآن) ج ٤ من موسوعة محاضرات الوائلي.

قال ابن أبي الحديد: «وأمّا الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء وسيّد البلغاء... وكلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة؛ قال عبد الحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت. وقال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة، حفظت مئة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب عليه السلام. ولما قال محفن بن أبي محفن لمعاوية: جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس؟ فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره». انظر: شرح نهج البلاغة ١: ٢٤ – ٢٥،طبقات الحنابلة ٢: ١٢٠.

ويبقى (نهج البلاغة) يصدح باسم أمير المؤمنين عليه السلام مهما سلطت عليه وضدّه الشبهات، وتظل هذه الشبهات تنحسر عنه بمجرّد أن ترتطم به. ثم إنّ من نسبوا إليه كتابته ـ وهو الشريف الرضي رحمه الله ـ أجلّ وأشرف من أن يفتري ويكذب وينسب لعلي عليه السلام ما ليس له. يقول أحد الأُدباء:

غير أن النفسَ اللئيمةَ تهوى أن يغطّي الحقائقَ التضليلُ

زعموه نهجَ الرضي ومهلاً أين من هادر الفحول الفصيلُ

كلُّ فصلٍ أبو ترابٍ به يبـ ـدو فتهتزّ بالهدير الفصولُ

فكل مقطع من هذا الكتاب يُستشفّ منه نفس عليّ عليه السلام، وترىٰ بصماته واضحة عليه؛ فخبرته عليه السلام وأداؤه متميّزان لا يتمكن أحد من أن يضاهيهما أو يحاكيهما.

المبحث الخامس: علي عليه السلام في القرآن

لقد مدحه القرآن الكريم في ثلاثمئة آية، وإن كان محلّ اتفاق المفسرين سبعين آية، وهذه الآيات التي تناولته إمّا بصورة مباشرة لوحده، أو بصورة ضمنيّة مع آخرين. وهذا المجموع من الآيات يعدّ رصيداً ضخماً لم يبلغه أحد غيره.

فمن الآيات التي ذكرته ضمناً آية التطهير[1] حيث ذكرته مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله وفاطمة والحسنين عليهم السلام. ومن الآيات التي اختصّت به واختصّ بها آية النجوى: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[2]. وقوله تعالىٰ: **﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً**

---

(١) هي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣؛ ففي كتب الصحاح الأسانيد وغيرها بعدّة طرق أن النبي صلى الله عليه وآله كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى الفجر، فيقول: «الصلاة يا أهل البيت»، ثم يتلو هذه الآية الشريفة. انظر: مسند أحمد ٣: ٢٥٨ ـ ٢٥٩، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، تهذيب الكمال ٥٣: ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣.

(٢) المجادلة: ١٢.

وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[2]. وهكذا نجد أنّ ذكره عليه السلام مبيّناً في صفحات القرآن الكريم، واحتلّ مساحة كبيرة من مجال صدحه وذكره.

محاولات طمس فضائله عليه السلام

لكنه عليه السلام لم يسلم من أقلام السوء المأجورة وهي تحاول أن تغطّي ذلك النور المنبثق من القرآن الكريم بحقّه، وكل ذلك تحت رعاية ونظر الأُمويّين والعباسيّين الذين حاولوا طمس هذا الواقع وتحريفه عبر شراء ذوي الأقلام الرخيصة والحناجر المبتذلة من وعّاظ السلاطين. لكن كل ذلك لم يفلح، ولم تنتج هذه المحاولات، ولم تستطع أن تهزّ ذرّة واحدة من كيانه عليه السلام، يقول أحد الأُدباء:

سلوا النفس قد طافت عليها عوالم أهل وجدت للجوهر الفرد ثانيا

وهل متناهي اللفظ يتبعه الثنا ليحمل معنى منك لا متناهيا

---

(١) الحاقة: ١٢، حيث إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله أمرني أن أُدنيَك ولا أُقصيَك، وأن أُعلّمك وأن تعي، وحقّ على الله أن تعي». فنزلت هذه الآية الشريفة. وفي رواية أنه صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية الشريفة، ثم التفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: «سألت الله أن يجعلها أُذنك». قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وآله فنسيته». انظر: جامع البيان ٢٩: ٦٩ / ٢٦٩٥٤، تخريج الأحاديث والآثار ٤: ٨٤، كنز العمال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٥، شواهد التنزيل ٢: ٣٦٥ / ١٠١١، ٣٦٨ / ١٠١٣، ٣٦٨ ـ ٣٦٩ / ١٠١٥، ٣٧١ – ٣٧٢ / ١٠١٩، ٣٧٤ – ٣٧٥ / ١٠٢٣ – ١٠٢٤، المواقف ٣: ٦٢٧.

(٢) الرعد: ٧، حيث إنه لمّا نزلت هذه الآية الشريفة وضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده الشريفة على صدره وقال: «أنا المنذر ولكلّ قوم هاد». ثم أومأ بها إلى منكب أمير المؤمنين عليه السلام وقال «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي». جامع البيان ١٣: ١٤٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٩ – ١٣٠، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، تفسير ابن أبي حاتم ٧: ٢٢٢٥ / ١٢١٥٢، شواهد التنزيل ١: ٣٨٣ / ٣٩٩، ٣٨٤ ـ ٣٨٧ / ٤٠٠، ٣٨٨ / ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٢: ٥٢٠، الدر المنثور ٤: ٤٥.

ولكـنها الألفـاظ مـهما تـناسقت إذا لم تـزفّ المـدح عـادت هـجائيا

إلى أن يقول:

وما مـدحتي تـوليك فـخراً وإنّـما أردّ بـإطرائـي عـليك الطـواريـا

إذا المـلأ الأعـلى تـحدّد بـالثنا عـليك فـما شأنـي وشأن ثـنائيا

فإذا كان القرآن الكريم يغرّد بذكر عليّ عليه السلام ليلَ نهارَ، فما شأن مدحة مادح من أهل الأرض؟ إنّ هذا السيّد العظيم قد احتلّ مساحة واسعة من مدح القرآن الكريم، فلا يمكن أن يمدحه أحد آخر بمدح فوق مدحه، ولا يكون مدحه حينئذٍ شيئاً حيال مدح القرآن الكريم. ومما يروى في هذا المجال أن معاوية كتب كتاباً لعمرو بن العاص في واقعة صفّين يستدعيه، وقال له فيه: أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك... وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أُذاكرك أُموراً لا تعدم صلاح مغبّتها.

فلمّا جاءه قال له: ما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: حكمك. فقال: مصر طعمة. فتلكأ عليه معاوية وقال له: يا أبا عبد الله، إني أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. فقال عمرو: دعني عنك.

ثم لمّا أخذ معاوية منه مصر وأعطاها لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، كتب إليه قصيدته الجلجليّة المشهورة:

مـعاويةُ الفـضلَ لا تـنسَ لـي وعـن مـوطن الحـقّ لا تـعدلِ

نسـيتَ مـحاورةَ الأشـعري ونـحنُ عـلىٰ دومـةِ الجـندلِ

ولولاي كـنت كـمثل النسـاء تـخاف الخـروج مـن المـنزلِ

تبعناك من جهلنا يابن هند على البطلِ الأعظمِ الأفضلِ
وحيث تركناك أعلى النفوس نــزلنا إلى أسـفلِ الأرجـلِ
وإن كــان بـينكما نسـبةٌ فأيـن الحُسـامُ مـن المـنجلِ
وأيــن الثـريا وأيـن الثرىٰ وأيــن مـعاوية مــن عــلي

إلى أن يقول:

وأعطيت مصر لعبد العزيز وأعـطيتني زِنـة الخـردلِ[1]

وموضع الشاهد هنا أن ما أُوتي هذا الرجل العظيم من مناقب ومفاخر وفضائل مما طوّقه به القرآن الكريم والسنة النبوية المشرّفة، ومما يصدح به واقعه المشرّف على ألسنة أعدائه يلوي الأعناق إليه وإن تغافل عنه المتغافلون، وسيبقى ألقاً ونوراً ومشكاة تضيء وجه الدنيا وصفحة العالم؛ سواء رمقته العيون أم لم ترمقه.

المبحث السادس: زهده عليه السلام في الدنيا

لقد كان كل رصيده من الدنيا التي كانت تتكدّس بين يديه حين وفاته عليه السلام سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله؛ لتعينهم على أُمور الطحن وأعمال البيت، فعاجلته الشهادة[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٦١ - ٦٦. قال ابن أبي الحديد: «قال شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله: قول عمرو له: «دعني عنك»، كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دع هذا الكلام لا أصل له؛ فإن اعتقاد الآخرة أنها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات. وقال رحمه الله: وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردّد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار».

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر عليه السلام بردّه إلى بيت المال بعد وفاته كما في الفتوح ٤: ١٤٦.

فلم تصرعه البيضاء والصفراء، وكان ينظر إليها نظرةَ من يعافها ويزدريها، وكل ما كان يشغله فم جائع يحسّه قريباً منه وإن كان يسير على البعد منه، فهو يحسّه يخاطبه بقوله: إنك مسؤول عن جوعي. لقد سمعناه يصغي لأنّات المظلومين في شرق الأرض وغربها، ويقول: «**اللهم اشهد على علي بن أبي طالب فقد أدّى إلى عبادك حقوقهم**». وكان يتمثّل دائماً بقوله:

هذا جناي وخياره فيه إذ كل جانٍ يده إلى فيه[(1)]

فكانعليه السلام يذود عنه الذهب والفضة، ويتحاشاهما:

ما سرّه أن يرى الدنيا له ذهباً وفي البلاد قلوب شقّها السغبُ[(2)]

وكانعليه السلام يقول: «**يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم علىٰ المظلوم**»[(3)] وكانعليه السلام يأكل العجوة والخل ويلبس لباس المساكين، فكان رصيده من الدنيا أن سجدت هي على أبوابه وأعتابه:

إن بيتاً أضلاعُه من جريد النـ ـخل والسقفُ والفراشُ حصيرُ

سجد النجم فوق رملته السمـ ـراءِ واستشرفت مداه العصورُ

المبحث السابع: جزاؤهعليه السلام في الدنيا

فحسبك أبا تراب أنك أخذت قلوباً من الناس فسكنتها، وحللت بمشاعرهم، وما يقدم الذهب والفضة وما يؤخران؛ سواء كانا لك أم لغيرك؟

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٥٧ / ٤٤٠، الفائق في غريب الحديث ٣: ١٧٥.

(٢) البيت للشيخ عبد المهدي مطر. من مواليد النجف الأشرف سنة (١٩٠٠)م، وكان عضواً عاملاً في جمعية منتدى النشر في النجف منذ إنشائها. تولّى تدريس النحو في كلّيّة الفقه. أعيان الشيعة ١: ٥٥٨، مستدركات أعيان الشيعة ١: ١١٢ - ١١٣.

(٣) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٤١.

لقد كان رصيده من العواطف لا حدود له، فقد امتلك قلوب المؤمنين كما ذكرنا، وهذا ما يشهد له قول النبي صلى الله عليه وآله: «**لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق**»[1]، وقوله صلى الله عليه وآله له كذلك: «**إن الله عزّ وجلّ رسّخ حبي في قلوب المؤمنين وكذلك رسّخ حبّك يا علي في قلوب المؤمنين، ورسّخ بغضي وبغضك في قلوب المنافقين؛ فلا يحبّك إلّا مؤمن تقي، ولا يبغضك إلّا منافق كافر**»[2].

فيامن سكنت إليك قلوب المؤمنين، إنّ القلوب لتتقرّح عليك أسىً وهي تحسّ بأنك في مثل هذه الليلة قد اشتدّت بك العلّة، وسرى السم في بدنك، وعلت الصفرة وجهك الشريف، وهدأ الصوت الهادر، وخلا المحراب من فارسه المصلّي ليله ونهاره، وإن العيون لتدمع لعينيك وقد غارتا، تلكما العينان اللتان كانتا تبكيان من خشية اللّه تعالى وتقرّحتا وسهرتا في سبيله حتى ذبلتا. يقول سويد بن غفلة: دخلت ومعي نفر من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ومنهم الأصبغ إلىٰ داره بعد إصابته، فسمعنا البكاء والنحيب من داخل الدار، فما استطعنا أن نسكت، وعلا نحيبنا، فخرج الإمام الحسن عليه السلام إلينا وقال: «**إن أمير المؤمنين يقول لكم: انصرفوا وارجعوا**».

يقول الأصبغ: فرجع الناس إلّا أنا لم تطاوعني قدماي، فرجع الإمام الحسن عليه السلام وقال: «**ألم أقل لكم: ارجعوا؟**». فقلت: سيدي، واللّه لا تطاوعني قدماي. قال: «**ادخل**». فدخلت، ولمّا وقع بصري علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء، واللّه ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فبكيت عند ذلك فالتفت إليَّ أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «**يا أصبغ لا تبكِ، إنها واللّه**

---

(١) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨.

(٢) الخصال: ٥٧٧.

الجنّة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنّة ولكني أبكي لفراقك. ثم دخل عمرو بن الحمق الخزاعي فقال له: إن هذه الضربة مخدشة، وليست أعظم من ضربة عمرو بن ودّ العامري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إني مفارقكم وراحل إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله**». عند ذلك سمعت النساء، وعلت أصواتهن بالبكاء واشتدّ ضجيجهن [(١)].

نشاطات الإمام السجاد عليه السلام قبل واقعة الطف

واستمرّ الحال هذا إلى أن لحق الإمام الحسن عليه السلام بالرفيق الأعلى، وكانت الأحداث بين رحيله عليه السلام وواقعة الطف متتالية حافلة بالكثير من الممارسات والأعمال غير المشروعة على الرغم من أنّها كانت عشر سنين فقط. لقد كانت فترة مشحونة، غير أني أودّ أن أُشير إلى نقطة هامّة هي أن كل من كتب وألّف حول الإمام السّجاد عليه السلام لم يسلّط الأضواء كافية على الفترة التي عاشها قبل واقعة الطف، والتي تبلغ اثنين وعشرين عاماً. وهنا أُمور عدّة حول نشاطاته عليه السلام، أرغب في أن أُشير إليها في هذ المجال؛ حيث إنّه عليه السلام بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره أُنيطت به مهامّ عدّة في أداء رسالته، وهذه المهام تتوزّع بين عدّة أعمال:

الأوّل: النشاط العلمي

فبعد أن ترعرع الإمام عليه السلام عقد له مجلساً في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فكان يجلس هناك للفتوىٰ. ويلاحظ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على فترة ما قبل الطف، بل إن هذا النشاط استمرّ مع الإمام عليه السلام حتى انتقاله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر. فالذي نريد إثباته هنا أنّ بدايته كانت في تلك السنّ المبكّرة، وهذا الدور الذي

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

أُنيط به عليه السلام لم يتوقف عند هذه الفترة، بل استمرّ معه حتى بعد أن ازدحمت الأحداث عليه سيّما إبّان فترة إمامته، فلم ينقطع عن مجلسه في مسجد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولا عن نقاشاته العلمية ومحاجّاته وإفتاءاته.

نماذج من محاجّاته عليه السلام

وسأنقل هنا بعض احتجاجاته على من اعترض عليه في أمور كثيرة، ومنها:

الأوّل: **حول قول أمير المؤمنين عليه السلام**: «**إخواننا بغوا علينا**»

دخل رجل على زين العابدين عليه السلام فقال: هل تستطيع أن تخبرني كيف قتل أبوك المؤمنين الذين هم إخوانه في الله؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه وقال: «**ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟**». قال: لما سألوه عن أهل الجمل: هل نقول عنهم إنهم كفرة؟ فقال: «**معاذ الله إنهم قوم يصلّون**». فقيل: فماذا نقول؟ قال: «**إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم**». فهو نفسه يعترف بأنهم إخوانه، فكيف قاتلهم؟

وهنا يجد الإمام عليه السلام نفسه أمام واقع منحرف يجب تصحيحه، وأمام مغرّر به ينبغي أن يصحّح له فكره هذا؛ لأن البعض يتعامل مع الأُمور بشكل حرفي، فيأخذ جانباً واحداً من جوانب المسألة فقط دون أن يستوعبها كاملة، فقال عليه السلام له: «**ويلك أما تقرأ القرآن؟**». قال: بلى. قال: «**فقد قال اللّه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟**». أي أنه عليه السلام يريد أن يقول له: إن أهل مدين كفرة وشعيباً نبيٌّ، وكذلك ثمود، فكيف عبّر عنهم بأنهم إخوة مع ما هم عليه من ضلال؟ فقال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال عليه السلام: «**فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم**».

وأُلفت نظرك إلى أن القرآن الكريم يعبّر دائماً عن الأنبياء عليهم السلام بأنـهم إخـوان قومهم. فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرجّ اللّه عنك [1].

الثاني: حول زواج النبي صلى الله عليه وآله من زينب ابنة جحش

وكمثال آخر على نشاطاته العلميّة سأله أحد المسلمين قائلاً: لماذا أقدم جدّك رسول اللّه صلى الله عليه وآله على الزواج من زينب بنت جحش؟ هل كان يعشقها، وكان يخفي ذلك في نفسه؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «**إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلّقها. فلمّا جاء زيد وقال له: أُريد أن أُطلّق زينب. قال له صلى الله عليه وآله: أمسك عليك زوجك. فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾: حاجة بحيث ملّها ولم يبقَ له فيها حاجة وطلّقها، وانقضت عدّتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾**» [2].

فهو عليه السلام يقول له: إن هذه ابنة عمّته وهو يعرفها، ولو أراد أن يتزوّجها لفعل، ولكن الرسول أراد أن يكسر بها عرفاً جاهليّاً وهو مسألة التبنّي، إذ كان العرب إذا تبنّىٰ أحدهم أحداً فإنه يورّثه، وهذا المتبنّىٰ لو تزوّج فإن متبنّيه لا يتزوّج من زوجته فيما لو توفّي.

إنّ زينب ابنة عمة رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وكانت تعيش معه في البيت، ولو أنّ هناك أمراً خلاف ما أراده القرآن كان قد حصل لما زوّجها رسول اللّه من متبنّاه زيد. وهذا المعنىٰ هو الذي حاول المستشرقون أن يصوروا عبره قصة غرام بين رسول اللّه صلى الله عليه وآله وزينب ابنة جحش، وهؤلاء طبعاً لهم هدف واضح وسيّئ هو الطعن

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣. (٢) التفسير الصافي ٤: ١٩١.

بالرسالة والنبوّة وبشخص النبيّ ﷺ نفسه، وإخضاعه إلى مستوى الناس العاديّين. في حين أنّ حقيقة الأمر غير ذلك، فالعرب كانوا لا يرون الزواج من زوجة الربيب أو المتبنّىٰ ويأنفون منه؛ فكانوا إذا أعتق أحدهم عبداً فإن الولاء عندهم يبقىٰ للمعتِق؛ ولذا فهم يأنفون من زواج المعتِق من مطلقة المعتَق أو أرملته، ويعدّونه عاراً.

خطأ نظرية عدم الزواج من زوجة الربيب

وهذا العرف الجاهلي كان سائداً وهو تصوّر مخطوء من وجهين:

الأوّل: أن من الممكن أن تبقىٰ هذه المرأة معطّلة، وربما انحرفت سيّما إن كانت لا تزال شابة.

الثاني: أنه يشمّ منه رائحة التمييز. فالمعتِق يظل على نظرته إلى هذا الربيب على أنه رقّ ليس بمستواه، وأن زوجته مثله، أو أن الزواج من زوجته ولو كانت حرّة يهبط به عن مستواه إلى مستوى الربيب، وهذا ما لا ينبغي أن يكون من حرّ على رأيهم ووجهة نظرهم.

إنّ هذا المولىٰ لم يخلقه اللّه تعالى كذلك، بل إنّه أصبح كذلك لظرف طارئ مرّ به، وقد انتهىٰ هذا الظرف وعاد إلى حريته، فما معنى هذا اللون من التميّز، وهذا التصرّف؟ إن المفروض أننا مجتمع القرآن وأننا نتبع أخلاق القرآن وتعاليمه، وهو يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[1] فهذا هو الشعار الذي رفعه القرآن، والذي يجب أن يكون شعار المجتمع القرآني.

---

(١) الحجرات: ١٣.

فرسول اللّه ﷺ أراد أن يكسر هذا العرف الجاهلي، وإلّا فإنّه ﷺ كان بإمكانه ومقدوره أن يتزوّج منها قبل أن يزوّجها من زيد. ثـم إنّ المـطلّقة ليست دائـماً مخدوشة، فقد تطلّق المرأة لأنّها لم تنسجم مع زوجها في حياتها الزوجية، وليس بالضرورة أن تكون سيئة أو مخدوشة، ومجرّد عدم التناغم والانسجام في بـيت الزوجية لا يخرجها عن كونها امرأة ذات أدب أو عفّة، وهذا ما يجعل الزواج منها ثانية أمراً ممكناً لا عيب فيه. بل ربما يكون الزوج نفسه سيّئ الأخلاق والسيرة، أو أنه لا ينفق عليها؛ مما يلجئ الزوجة إلى طلب الطلاق منه.

ورسول اللّه ﷺ كان بوسعه أن يتزوّج من أي فتاة من أشراف العرب يشـاء، ويخطب إلى أي بيت من بيوتاتهم، لكن جلّ نسائه ﷺ كنّ إما أرامل أو مطلّقات، ولذا فهو ﷺ لجأ إلى مثل هذا اللون من الزواج لأنّه ﷺ يـريد أن يـضرب هـذه القاعدة الجاهلية، ويكسر هذا العرف الجاهلي الذي كان من ضـمن مـوروثات جاهلية تنخر في جسد المجتمع، وأن يقضي عليها. إنّه ﷺ إنما جاء ليرفع مستوى الأخلاق عند الناس، وليس من الخلق أن تترك المرأة تتعذب لمجرد وجود مثل هذا الوهم الجاهلي الذي يعشعش في أذهان الناس، وهذا الوهم هو أنّها مطلقة، مع أنها ربما طلقت لسبب معقول ووجيه كما ذكرنا. ومن كانت قد طلقت لمثل هذا السبب هل من الخلق الإسلامي أن تبقىٰ رهينة البيت وسجينة ضمن نطاق العادات والتقاليد الجاهلية، والتمثّلات الجمعيّة؟

فالإمام السجاد عليه السلام أجابهم بأن هدف الرسول ﷺ هو كسر هذا العرف المقيت الذي ليس له أي موجب أبداً؛ ولذا فإنه أقدم على الزواج من زينب ابنة جحش.

الثالث: حول مسألة الجمع بين الصلاتين

وهي من المسائل المعاصرة أيضاً؛ إذ أنّ زمانها يـمتد مـع امـتداد وجـودها

ووجوبها. دخل عليه رجل يوماً فسأله: لماذا تأمر الصبيان بأن يجمعوا بين صلاتي: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء؟ فقال عليه السلام: «**ما داموا على وضوء قبل أن يشتغلوا**». ويقول عليه السلام: «**هو خير من أن يناموا عنها**»[1].

فهذه رخصة، واللّه تعالى يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه، والرسول صلى الله عليه وآله كان يجمع بين الصلاتين من غير عذر وفي غير السفر والمطر. ومن أحب أن يرى ذلك فليرجع إلى (المنتخب) لابن تيمية، و(المبسوط)[2] للسرخسي وكتب أُخرى[3] في هذا المجال[4] مؤلّفة خصّيصاً لهذا الغرض (الجمع بين الصلاتين). فالإمام عليه السلام حينما أصّل الجمع؛ فلأنّه عليه السلام كان يرىٰ أن يخفّف عن المسلمين ويهوّن الأمر عليهم[5] ويقربهم إلى الطاعة أكثر، فالإنسان قد يصيبه الفتور أيام المطر أو الحرّ أو غير ذلك عن التوجّه إلى المسجد خمس مرّات في اليوم. إضافة إلى ذلك أن هذا الجمع كما قلنا ليس ببدعة وإنّما هو رخصة من الله الذي أباح لنا ذلك. وقد صرّح القرآن الكريم بذلك حينما قال: ﴿**أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾[6].

فالقرآن الكريم في هذه الآية ينصّ على ثلاثة أوقات، وكذلك السنة النبويّة المطهّرة، وقد جمع النبي صلى الله عليه وآله كذلك، وهذه سنّة عملية. ومع كل هذا نجد الآن من

---

(١) الكافي ٣: ٤٠٩ / ٢، قرب الأسناد: ٢٣ / ٧٧، المصنّف (ابن أبي شيبة) ١: ٣٠٣ / ١٤، أحكام القرآن ٣: ٤٣٠.
(٢) المبسوط ١: ١٤٩ - ١٥٠.
(٣) المغني ٢: ١٢٠ ـ ١٢١.
(٤) قد مرّ كل ذلك في ج٥ ص ١٩٩ / المبحث الثالث من موسوعة محاضرات الوائلي.
(٥) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «جئتكم بالشريعة السهلة السمحاء». الانتصار ٩: ٤٠٧، ذخيرة المعاد ١: ٩٧ (حجري).
(٦) الإسراء: ٧٨.

ينبز بقوله: لماذا يجمع هؤلاء؟ وأحياناً يتعدّىٰ الأمرُ النبز إلى الألفاظ الجارحة. وهذا التصرّف لا يعدّ مزاجاً فقهياً أو نمطاً علميّاً، بل هو نمط بعيد عنهما ومـزاج مجافٍ لهما تماماً؛ لأنّه يحمل روح التـحامل والمكـابرة أمـام الدليـل. يـقول السرخسي في (المبسوط): إنّ أحمد بن حنبل نفسه كان يـجمع، وكـذلك حـال جماعة من الفقهاء على مرّ العصور، وغاية ما في الأمر أن التفريق أفضل. ونحن ليس عندنا جمع حقيقي وإنما هو جمع صوري، بمعنى أنّ هناك فترة فاصلة بين الصلاتين تتخلّلهما، تفرّق بين فرض وآخر، وهذه الفترة يقع فيها الدعاء والتسبيح والذكر، ثم بعد ذلك يقوم المصلّي إلى فرضه الثاني.

فكان الإمام عليه السلام بجلوسه في مسجد جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يتصدّى لغـرس العلم في نفوس الناس.

الثاني: النشاط الأخلاقي

لقد دأب الإمام عليه السلام أن يعلّمنا كيف يكون الانتصار على النفس، فمثلاً أُسامة بن زيد كان ممّن تخلّف عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وسرّ تخلّفه عنه عليه السلام أنه حدثت معه حادثة عنّفه رسول اللّه صلى الله عليه وآله على أثرها، فقال: سوف لن أشهر سيفي على مسلم. وهذه الحادثة هي أن المسلمين وجدوا يوماً وهم في سرية ومعهم أُسامة بن زيد رجلاً على رأس جبل ومعه غنماته، فلما رآهم نزل وقال: «**أشهد ألّا إله إلّا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه**».

وفرح بالمسلمين، فقال له أُسامة بن زيد: إنك لم تسلم، إنما رأيتنا فخفت منا، واستعذت بهذه الكلمة. ثم جرد سيفه وقتله. فلما رجعوا وأخبروا النبي صلى الله عليه وآله حزن حزناً شديداً، فقال أُسامة: إنـه اسـتعاذ، وأراد أن يـتستّر بـالإسلام، ولم يسـلم صادقاً. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**هلا شققت عن قلبه**»[1].

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧، ومثله في مسند أحمد ٤: ١٣٩، غير أنه لم

على خلفية شتم الصحابة

فماذا يراد من الإنسان إذا أسلم؟ إنّه ليس أكثر من إشهاره نطقه بالشهادتين، وعدم إنكاره ضرورة من ضرورات الدين. وهنا لابدّ من أن أشير إلى أنّ البعض يعتبر شتم الصحابة كفراً وفاعله كافراً؛ لأن عدم المسّ بصحابة النبي الأكرم ﷺ يعدّ ضرورة من ضرورات الدين، وشتم الصحابي إنكار لهذه الضرورة.

من مظاهر الخلاف بين الصحابة

ونقول: لا شكّ في أن إنكار ضرورة من ضرورات الدين يعدّ كفراً، لكن من قال: إنّ من أخطأ وشتم أحد الصحابة فقد أنكر إحدى هذه الضرورات؟ أليس الصحابة أنفسهم كانوا يشتم بعضهم بعضاً؟ ألم تقل أُم المؤمنين عائشة: اقتلوا نعثلاً؛ فقد كفر [١]. تعني عثمان بن عفّان؟ ألم تقع مشادّات كثيرة بين الصحابة [٢]؟ فما هو

....

☚ يسمّ أُسامة.

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

(٢) لإثبات المقام نذكر أن عمر بن الخطّاب رفع الدرة مرّة على أبي هريرة وضربه بها علىٰ رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

وحينما وقع نزاع بين الخليفة الثالث وأُم المؤمنين عائشة وحفصة أيّام بوادر الثورة؛ حيث دخلتا عليه تطالبانه بميراث النبي ﷺ. ومنعهما ذلك بقوله: والنبي ﷺ يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي ﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته. الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

كما أن علي بن أبي طالب عليه السلام شُتم (٨٠) سنة علىٰ المنابر، بل حتى في الصلاة. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

ونقل عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت أنه قال: الجبت حيي بن أخطب،

☚ والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.

وفوق كل هذا أن رسولنا الأكرمﷺ يخبرنا عن نكوص بعض الصحابة، وذلك في روايات لعلّ أبرزها وضوحاً في هذا المقام هو قولهﷺ مخبراً أن جماعة من أصحابه يحشرون يوم القيامة يختلجون دونه ـ يعني تأخذهم الملائكة ـ فيقول: «أصحابي». فيقال لهﷺ: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك». انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٤ / ٣٢١٥.

وحينما وقعت غزوة تبوك بين المسلمين والروم، ندب النبيﷺ المسلمين إلىٰ قتالهم فتثاقلوا؛ فنزل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ التوبة: ٣٨. انظر: مجمع البيان ٥: ٦٥ جامع البيان، المجلّد: ٦ ج١٠: ١٧٣ / ١٢٩٩١.

وكذا في قوله تعالىٰ: ﴿ألا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ﴾ الذي يعني مجموعة من المعاصرين للنبيﷺ. فهؤلاء صحابة لكن الله تعالى ذمّهم.

كما أن عثمان أمر بضرب عمار، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه. الإمامة والسياسة ١: ٣٥.

ويروي عبد الله بن عباس رواية يبيّن لنا كيف أن الخليفة الثاني كان يعيب على بعض الصحابة أخلاقهم ويذكرهم بسوء فيسترسل حتى يقول: فقلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من طلحة بن عبيد الله؟ قال: الأكتع؟ ما كان الله ليعطيها إياه، ما زلت أعرف فيه بأواً مذ أُصيبت يده، مع هَناة كانت له على عهد رسول اللهﷺ. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من الزبير؟ قال: وعقة لقس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عثمان؟ قال: أوّه، ووضع يده على رأسه وقال: والله لئن وليها ليحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس. تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩، وليس فيها: مع هَناة كانت له على عهد رسول اللهﷺ.

والهَناة هي الذنب، والذنب الذي أشار إليه عمر بن الخطاب هو أنه لمّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أمر الرسول الأكرمﷺ نساءه ألّا يكلّمن الناس إلّا من

الدليل على كفر من يشتم أحدهم؟ إنّ الإنسان تارة يشتم معاندةً للدليل ووقوفاً بوجه القرآن، وهذا كفر صريح، لكن من يخطئ فهل يجوز تكفيره؟.

يزيد بن معاوية ودعوى عدم جواز لعنه

وهنا أودّ أن اطرح سؤالاً، وهو: إنّ يزيد بن معاوية قتل سبعمئة صحابي من حملة القرآن في واقعة الحرّة، وعشرات الآلاف من الناس غيرهم فيها، وأباح المدينة ثلاثة أيام حتىٰ أُبيحت أعراض المسلمين [1]، وأحرق الكعبة بالمنجنيقات [2]، وسلّط البلاء على المسلمين في كل مكان، فهل يصحّ أن يقال عنه: إنّه مسلم؟ يقول الغزالي: أنا لا أستطيع أن أشتم يزيد؛ لأنّه مسلم [3].

☚ وراء حجاب، فقال طلحة هذا: أيحجبنا محمد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده. الدرّ المنثور ٥: ٢١٤، فتح القدير ٤: ٢٩٩.

وتناجى عمر بن الخطاب وعثمان بن حنيف في المسجد، فأغضب عثمان عمر، فقبض عمر من حصى المسجد قبضة فحصب بها وجه عثمان فشجه بالحصى في وجهه وترك بها آثاراً من شجاج. فلما رأى عمر كثرة تسرّب الدم على لحيته، قال: أمسك عنك الدم. تاريخ المدينة ٢: ٦٩١.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ – ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ /٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦. وأليس هو المتمثّل:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزلْ

انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(٣) مع أنه نفسه يكفّر من يسبّ أحد المسلمين، لكنه يعود فيتغاضى عن أن يزيد نفسه كان يعلن السبّ والشتم لأمير المؤمنين عليه السلام. انظر: إحياء علوم الدين ١: ١٩٣، حياة الحيوان

يالله! يزيد ما زال يعدّ مسلماً وإلى الآن، ومن يشتمه كافر، وأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام شُتم ثمانين سنة على المنابر، وسبّ عليه السلام في صلاتهم. ومع ذلك يعدّ هو ومن كان على شاكلته مسلمين بنظر البعض[١]! وهذا البعض الذي يرى إسلام من سبّ خليفة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وابن عمه على المنابر، يرىٰ كفر من أخطأ نتيجة ردّ فعل تحدث عنده، وشتم من يشتم أمير المؤمنين عليه السلام، أليس هذا تهافتاً؟ فهل يراد للمجتمع الإسلامي أن يتحوّل إلى أنعام سائمة لا تعقل ولا تعي ما يدور حولها؟

على أية حال فبعد أن قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله لأُسامة: «**هلّا شققت عن قلبه**»، حزن وقال: سوف لن أُشهر سيفي بوجه مسلم. ولمّا تولى أميرالمؤمنين عليه السلام الأمر، وقاتل القاسطين والمارقين بأمر رسول اللّه صلى الله عليه وآله[٢] رفض مبايعته والقتال معه، وكان يقول له: أعطنا سيفاً يفرق بين الحقّ والباطل حتى نبايعك[٣]. ويقول له: أنا لا أُبايعك؛ لأنك تقتل المسلمين والكافرين على حدّ سواء[٤]. ولما سئل عن السبب قال: أخشىٰ أن أقتل مسلماً. سبحان اللّه! من يخرج مع «**إمام المتقين**»، ومع رجل يقول فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله ـ كما عن أُم سلمة (رضي الله عنها) وقد رئيت باكية وهي تذكر الإمام علياً عليه السلام ـ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**علي مع**

☚ ٢: ١٧٦

(١) كما عن ابن العربي. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. وكابن تيمية الذي يرى أن يزيد لم يقتل الإمام الحسين عليه السلام، انظر: اجتماع الجيوش الإسلاميّة ١: ١٠٥، منهاج السنّة ٤: ٥٥٩، مجموع الفتاوى ٣: ٤١٠ ـ ٤١١، ٤: ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٢٧: ٤٧٠، ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٤٩٣.

(٢) فقد قال عليه السلام: «أمرني رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن أُقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين». المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلىٰ ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٣) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه.

الحق والحق مع علي، ولن يتفرّقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة»[١].

ويقول صلى الله عليه وآله له: «**ويلٌ لمن سل سيفَه عليك، وسللت سيفَك عليه**» [٢].

موقفه عليه السلام من محمّد بن أُسامة بن زيد

على أية حال إن أُسامة بن زيد هذا ترك ولداً له هو محمد، ولم يكن يختلف عن منهج أبيه في شيء، وحينما حضرته الوفاة قال الإمام السجاد عليه السلام لأصحابه: «**قوموا بنا لعيادة محمد**». فلمّا دخل عليه سمعه يقول: وا غمّاه. قال: «**ما غمّك؟**». قال: دَيني. قال: «**كم هو؟**». قال: ستون ألفاً. قال الإمام عليه السلام: «**هي عليَّ**». وكان عليه السلام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[٣].

فانظر إلى هذا اللون من النبل من رجل لرجل عاش ومات على بغضه وبغض آبائه.. عاش منحرفاً عن خطّه الذي هو خطّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله. فالإمام عليه السلام بهذا اللون من التعامل مع الآخرين يريد أن يعلمنا كيف ننتصر على نفوسنا، وأن يعطينا درساً في تغليب خلق الإسلام على رغبات النفس وشهواتها ومطالبها، وعلى الهوى الذي يسيطر على تلك النفوس. إنّ هذا العطاء أكبر عند اللّه من أن يكون صاحبه خاضعاً لذاك اللون من التأثر بالنفس وأهوائها ضدّ الآخر وإن آذاه.

وهذا الخلق ليس أمراً جديداً ولا طارئاً أو عارضاً عند الإمام السجاد عليه السلام، بل

---

(١) الخصال: ٤٩٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ٤٤٩، الإمامة والسياسة ١: ٧٣، وقال صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». الجامع الصغير ٢: ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٢) ورد في الزيارة الشريفة: «فعلى أبي العادية لعنة الله ولعنة ملائكته ورسله أجمعين، وعلى من سلّ سيفه عليك وسللت عليه سيفك يا أمير المؤمنين». المزار (المشهدي): ٢٧٨، المزار (الشهيد الأوّل): ٨٣، بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وفيهما أنها جرت بين الإمام الحسين عليه السلام، وبين أُسامة أبيه.

هو خلق ورثه من جديه رسول اللّه ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يمرّ على قتلى معركة الجمل ممّن خرجوا لقتاله، وهي الواقعة التي خلّفت الآلاف من القتلىٰ، وكانت الدماء تسيل والأشلاء متناثرة، إلىٰ أن وصل إلىٰ طلحة ـ وكان قد قتله مروان بسهم ـ فقال: «**من هذا؟**». قالوا: طلحة هذا. فأقعدوه فقال: «**أبا محمد، اعزز علي**»، أي ليس من السهل أن أراك قتيلاً، فهذا نبل أيمّتنا عليهم السلام. وهو شعور في غاية النبل يعجز أي شعور أن يرقى إلى مستواه نبلاً ومودّة وعطفاً ورقّة:

أ أَبـا الحُسـينِ وتِـلكَ أروعُ كـنيةٍ ... وكِـلاكُـما بـالرَّائـعات قَـمِينُ

لكَ فـي خَـيال الدَّهـرِ أيُّ مَـلامحٍ ... تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِـمُ النَّسـرينُ

في الصبح أنت المُستَحِمُّ منَ اللَّظىٰ ... واللَّـيل فـي المحرابِ أنتَ أنـينُ

تكسـو وأنتَ قـطيفةٌ مَـرقوعةٌ ... وتَـموتُ مـن جـوعٍ وأنت بَـطينُ

مـا عـدت ألحـو عـاشقيك بـما أتَـوا ... وصـفاتُك الغَـرَّاءُ حـورٌ عـينُ

آلاؤك البـيضاءُ طـوَّقَتِ الدُّنـا ... فـلها عـلى ذِمَـمِ الزَّمـانِ ديـونُ

فـبحيثُ تَـحتَشِدُ الورودُ فَـرَاشَـةٌ ... وبـحيثُ ليـلى يـوجدُ المـجنونُ[1]

فحقّاً إنّه ذو خلق كريم ولون عجيب من الأدب السامي، وكذلك كان الإمام السجاد عليه السلام في مواقف الانتصار للحق على النفس.

الصحيفة السجّاديّة محاولة توازن وانتصار على النفس

اعتاد الناس في تلك الأيام وسيّما في الفترة التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام أن يعاملوا الموالي معاملة مزرية، قد كانوا يعدّونهم في مستوىً أدنىٰ بكثير من المستوى الذي يرونه لأنفسهم. ففي عصر السجاد عليه السلام كثرت الفتوحات وكثر معها

---

(١) ديوان المحاضر: ١٩.

احضار الموالي الذين لم يكونوا يراعونهم ويعاملونهم كما أمر اللّه تعالى، أو كما هو الخلق الإسلامي المطلوب في هذا المجال. ومن هنا نشأت الحركات الشعوبية أو بذورها على نحو الدقّة. وكان من مظاهر الفتوحات تلك أن جرت الأموال بأيدي الناس؛ مما حوّلهم إلى حياة الترف واللهو. وقد عالج الإمام عليه السلام هذه الظاهرة بالأدعية، فكانت صحيفته الشريفة محاولة لإيجاد حالة من التوازن بين الترف المادّي في جانب، وفراغ النفس وحاجتها إلى الدعاء وإغناء الروح في جانب آخر.

مواقف كريمة من الموالي وغيرهم

طلبه من غلامه أن يقتصّ منه

لقد كان عليه السلام يعامل الرقيق على أنّهم بشر لهم كامل حقوقهم كما أمر الإسلام والقرآن بذلك، ومن ذلك أنه عليه السلام غضب في يوم من الأيام على غلام له كان قد طلب منه أن يقوم على ضيعة تخصّه، إذ أنه عليه السلام دخلها يوماً فوجد فيها ضَياعاً كثيراً، ورأى أن الزرع قد فسد، فصاح به: «**لم تفعل هذا؟ إنك تأخذ جلّ وارد هذه الضيعة، فلم لا تعتني بها؟**». فسكت الغلام، فقرعه الإمام بسوط كان بيده، ثم ندم. فلما رجع إلى الدار ألقى ملابسه وأظهر موضع ضرب السوط من الغلام ثم بعث وراءه. فلما جاء ورأى الإمام بهذه الهيئة اضطرب أكثر وخاف، وظن أن الإمام يريد أن يعاقبه، فقال له الإمام: «**هوّن عليك، وخذ هذا السوط واضربني كما ضربتك**». فقال: معاذ اللّه. قال: «**بل افعل، إني أُريد هذا**». قال: معاذ اللّه، إن يدي لا تطاوعني على ذلك. فقال الإمام: «**أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك**»[1].

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ / ١١٦٦، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٧.

فهذا اللون من الخلق العالي لم يقتصر أثره على النفس فقط، وإنما يتعدّاه إلى مرحلة الإيحاء للآخرين بأن يعاملوا غلمانهم أو فتيانهم على هذا المثال الذي اختاره هو عليه السلام. فهو عليه السلام يريد أن يقول لهم: إنّ هذا الغلام إنسان كما أنّ مالكه إنسان من غير فرق، وله كرامة وعزّة كما لغيره، فإذا ما ملّك اللّه أحداً إيّاه فيجب أن يشكر اللّه تعالى على هذا التمليك الذي كان من الممكن أن يكون بالعكس، أي أن يجعل السيد خادماً والخادم سيداً.

إعتاقه غلمانه ليلة كل عيد فطر

كان الإمام السجاد عليه السلام يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد جمعهم وقال لهم: ارفعوا أيديكم و«**قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا**». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل، ويقول لمن يعطيه: «**استعن بها علىٰ دهرك، أصلح اللّه لك أمرك فيها**»[1].

فانظر إلى انتصاره (سلام اللّه عليه) على النفس، وكيف أنه بلغ القمّة في سلوكه هذا. فالإنسان حقّاً يبلغ قمة الأخلاق حينما يقهر نفسه وليستثمر طاقاتها لوجه اللّه تعالى، وفي خدمة مخلوقاته.

مواقفه من قتلة أبيه السبط الشهيد عليه السلام

وهذه القمّة في الخلق امتدّت لتشمل حتى قتلة أبيه الحسين السبط عليه السلام، فحين ثار الناس في واقعة الحرّة في المدينة عزم أهل المدينة على اجتثاث الأُمويين منها وقتلهم كلّهم، فقد كانت النفوس مشحونة ضدّهم، وهذا أحد الشعراء يخاطب الأمويين حينما أخذوا البيعة ليزيد:

(١) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

ولو جاؤوا برملة أو بهندٍ نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لوَ ان لنا ضيوفاً ولكن لا نعود كما عُلينا
إذن لضُربتُمُ حتىٰ تعودوا بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا[1]

وهكذا كانت النفوس مشحونة تلتهب، وكان هذا الشاعر يتكلّم بلسان أغلب المسلمين. على أية حال لقد عزم أهل المدينة على استئصال شأفة الأُمويين في المدينة المنوّرة، فمن الذي آواهم ودفع القتل عنهم؟ ومن الذي فكروا هم في الالتجاء إليه من شدّة خوفهم؟ إنّه زين العابدين عليه السلام الذي جند أتباعه وكل الهاشميّين ـ وكان هو عليه السلام في طليعتهم ـ لحماية عوائل بني أُمية كلها، وكانوا بالمئات. ولم يقتصر الأمر على توفير الحماية لهم، بل تعدّاه إلى إيصال الماء والطعام لهم، وقضاء كل حوائجهم حتى انتهت الثورة[2].

وهذا اللون من الخلق النبيل غريب حقّاً، ولا يمكن أن يوجد في مكان آخر أو عند شخص غيره، لأنّه من بيت تميّز بهذا الأدب السامي والخلق الرفيع.. من بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي والتنزيل.. من بيت حمل شعار القرآن: ﴿**خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ**﴾[3].

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار؛ لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

الثالث: النشاط التربوي

لقد كانت جوانب مسجد الرسول الأكرم ﷺ تردّد صدىٰ خطب الإمام السجاد عليه السلام، فلقد كان عليه السلام يخطب كل جمعة ويذكّر الناس بالآخرة والجنة والنار والحساب والعقاب. وكان عليه السلام يقول: «**من جمعة إلى جمعة فترة يحتاج الناس فيها إلى من يذكّرهم بآلاء الله تعالى وبأيّامه، ويدعوهم إلى القرب منه**». وهكذا يبدأ الإمام عليه السلام خطبته. ولا يمكن لأحد أن يتصوّر مقدار عطاء الإمام عليه السلام فهو عطاء يقصر اللسان عن وصفه والفكر عن حصره.

دور الإمام عليه السلام بعد واقعة الطف

وهكذا نجد أنّ للزمن ألسناً تردّد مِدَح هذا الإمام العظيم وتتغنىٰ بالثناء عليه، وهو عليه السلام أهل لذلك؛ إذ أنه لم يتخلّف عن أداء واجبه أبداً في الميادين التي يريدها اللّه عزّ وجلّ كافّة؛ سواء كانت ميادين علمية أو عملية. هذا قبل واقعة الطف، أما بعدها فالباحث يجد أن العبء قد اشتدّ والمسؤولية قد كبرت على الإمام السجاد عليه السلام، وازدادت بحكم تسنّمه منصب الإمامة الشرعية، وفي المقابل يجد أن ضغط الأُمويين قد اشتدّ عليه أكثر؛ لأنّهم كانوا يظنون أن الإمام عليه السلام سوف لن يسكت بعد الواقعة.

سرّ عدم اشتراكه في الحركات التي أعقبت وقعة الطف

كما أن الباحث المنصف سيجد أنه عليه السلام قد أخذ حجم الزمن وحجم مَن حوله؛ ولذلك لم يشترك بواقعة الحرّة ولا بواقعة بعدها. وهناك أسباب كثيرة منعته من القيام بأي تحرّك أو الاشتراك بتحرّك قام به غيره في عصره، ومن هذه الأسباب:

الأوّل: طبيعة الجوّ آنذاك وعداؤه لأهل البيت

أننا إذا أمعنّا النظر في الظروف التي عاشها الإمام فسنجد أن الأجواء في عصره كانت مشحونة ومعبّأة ضد أهل البيت. وأبسط مثال على هذا أنّ أصحاب أمير المؤمنين وسيما الذين استشهدوا معه تحت رايته قد حرمت السلطات أبناءهم من عطائهم ونصيبهم من بيت المال؛ بغضاً لأمير المؤمنين. فالإمام لم يجد المجال الكامل للتحرّك والذي يمكن أن يوصله إلى الهدف الذي يراد من مثل هذه التحركات.

ولذا فإنّه لجأ إلى الدعاء كمجال للتحرّك الفكري والنفسي وإعداد الأُمّة لذلك، وفي الوقت نفسه لجأ إلى مجال العلم والمعرفة. وهي مجالات لا تستلزم سلّ سيف أو قتالاً؛ لأن الإمام كان عارفاً بحجم المسؤولية من جهة وحجم من هم حوله؛ وهذا ما دعاه إلى عدم الاشتراك في هذه الحركات. وإلّا فإنّه من بيت لا يجرؤ أحد أن يصفه بالجبن أو ينعته بالتخاذل وإن كان لم يسلم من هذه التهمة البشعة، حيث إن أحد الكتاب قد وصفه بتلك التهمة بقوله: إنّه لم يثُر ولم يخرج لأنّه متأثر بأخواله، يعني الفرس.

لكن هل إنّ زين العابدين وحده متأثر بأخواله، أم إنّ هذا التأثر يشمل أبناء الخليفتين أبي بكر وعمر؟ إن كون الفرس أخوالاً لأحد لا يعدّ عيباً وليس فيه ضير على ذلك الرجل، والمذاهب الإسلامية بأجمعها مدينة للفرس بالفلاسفة والعظماء والفقهاء والمحدّثين والمناطقة والمتكلّمين والكتّاب عامّة حتى على صعيد اللغة العربية وعلومها وآدابها. فهل السجاد هو الوحيد الذي تأثّر بالفرس؟ إنّ هذا الكلام غير علمي ولا يعتدّ به.

فأهل البيت أبعد ما يكونون عن الجبن، وبيتهم أشجع البيوت وأشرفها، بل

هم أصل الشجاعة ومنبعها ومثالها، لكن في الوقت نفسه هم مثال التعقّل[1]. فللظروف حكمها أحياناً، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لأن يتّخذ خطوة الدعاء والمناجاة والتعبئة الفكرية والعلمية والدينية سلاحاً بدلاً من السيف.

الثاني: مصيبة الحسين عليه السلام

فهو عليه السلام دائم الحزن، ولم يكن بالذي ينسىٰ واقعة الطّف وما جرىٰ فيها من انتهاك حرمات اللّه وسفك دماء وتقتيل أطفال وسبي نساء، فقد كانت وقعة الطف تعيش في مشاعره وهمومه، وكان كما خاطبه الشاعر رحمه الله في صدر المحاضرة:

والصابرين على الخطوب بكربلا	**ما بين غمر مدامع ودماءِ**
عاشت بقلبك كربلاء بكلّ ما	**فيها فعشت بلوعة وبكاءِ**
حتى مضيت وأنت جرح نازف	**وأضالع تطوى على لأواءِ**

فهو يقول له: إن كربلاء عاشت في ذهنك وقلبك ومشاعرك، فقضّيت عمرك الشريف كلّه باللوعة والحزن والأسىٰ والبكاء. وهذا ما حدث فعلاً، فواللّه لم تبارح طيوف الطف ذهن الإمام عليه السلام وقلبه؛ ولذلك حينما دخل عليه أبو حمزة قال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل وأباك عليه السلام قتل، فقال: «**شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكني أذكر أشياء منها أنهم أدخلونا على يزيد ونحن موثوقون بالحبال، وكان الحبل يمتد من عنقي إلى كتف عمتي وأكتاف سائر الفاطميّات، وكنا كلما قصرنا عن المشي ضربونا. وواللّه ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء،**

(١) يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أولٌ وهي المحلّ الثاني

انظر شرح نهج البلاغة ٢٠: ٤٣.

ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين».

فالإمام عليه السلام يجيبه بأن كلامه حق، لكن أُموراً أُخرىٰ تعتمل في ذهنه وتتصارع داخله فتجعله لا يهنأ بطعام ولا شراب، ومن ذلك ما كان الجنود يعاملونهم به في رحلة السبي؛ فكانوا كلما قصروا من المشي نتيجة التعب ضربوهم بالسياط، ومنها إدخالهم على يزيد وهم مصفّدون بالأغلال، وكان الحبل يربط بين عنق السجاد عليه السلام وكتف الحوراء زينب عليها السلام وأكتاف بنات الرسالة:

عجباً لم تلن قلوب الأعادي لعليل عضّت عليه القيودُ

وله حنّت الفصيل ولكن هيّمته أُميّة لا ثمودُ

وكانت أشدّ فصول حياته حزناً فصل عتابه الفرات حيث مرّ به يوماً، فقال يخاطبه: «**إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول اللّه ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول اللّه إلى جانبك؟**».

ولم يزل يبكي أباه السبط الشهيد ليلَ نهار إلى أن حضرته الوفاة، فجلس عنده ولده الإمام الباقر عليه السلام يرثيه بلوعة وحزن، وكان قد شخص ببصره إلى السماء وقال: «**سجّوني إلى القبلة**»، فأغمض عينيه وفاضت روحه الطاهرة ولحقت ببارئها في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وضجّت المدينة بأهلها، لكن السبط الشهيد الإمام الحسين عليه السلام حينما لفظ أنفاسه الشريفة الطاهرة لم يكن بجانبه أحد، كانت زينب عليها السلام ليلة الحادي عشر من المحرم قد لفعّتها تلك الليلة بظلمائها، وكان الأطفال حولها يتصارخون وهي تجول ما بينهم:

يبويه عليّه الليل هوّدْ وآنه غريبه وما لي احّدْ

* * *

وإن يبكِ اليتيمُ أباهُ شَجواً قَرَعْنَ سِياطُهم رأسَ اليَتيمِ

في معنى الغفور الودود

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وهو الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾. وهنا صفتان أُخريان هما:

الأُولىٰ: الغفور

الغفور هو ذو النفس الكبيرة، الذي لا يعاقب مع أنّه يمتلك القابلية والقدرة والاستطاعة على إيقاع تلك العقوبة على الطرف المقابل متىٰ شاء. أي أنّه لا يستعجل بالعقوبة؛ لأنّه يستطيع إجراءها متى أراد ذلك، وعليه فإنّه لا يعاجل المسيء بها: «**إنما يعجل من يخاف الفوت**»[1]، وهو تعالى لا يخاف الفوت.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنّ الغفران خير من العقاب، فنحن نقرأ مثلاً في القرآن الكريم: ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ**﴾[2]. والمسألة لا تعدو كونها إجراءً تأديبياً؛ لأنّ العقوبة عند اللّه تعالى ليست انتقاماً، فهو تعالى يريد أن يؤدّب العبد ويردع به غيره، ولذا فإنّه لا يعاجله بالعقوبة ليعطيه فرصة للتوبة والندم والتراجع عن فعل المعصية.

بين النفس الكبيرة والنفس الصغيرة

وهذا الأمر كان ولا زال خطّاً فاصلاً بين النفوس الكبيرة والنفوس الصغيرة في هذا الميدان؛ فالنفوس الصغيرة التي تخاف أن تفوتها الفرصة التي تواتيها تُسرع لإيقاع العقاب، أمّا النفس الكبيرة فتترفع عنه. وسأروي في هذا المجال روايتين إحداهما تنم عن نفس صغيرة تخشى الفوت فتعاجل الآخرين بالعقوبة، والثانية تنمّ عن نفس كبيرة تتسامىٰ فوق الدنيا كلها وفوق كل ما هو مادي.

(١) مصباح المتهجّد: ١٩٥. (٢) النساء: ١٤٧.

مروان الحمار يعاجل عدوّه بالعقوبة

تقع أحداث الرواية الأُولىٰ في أيّام مروان الحمار آخر خلفاء بني أُميّة، وذلك أنّ أبا مسلم الخراساني ـ وكان يدعو سرّاً لبني العبّاس ـ كتب كتاباً ووجّه به إلى إبراهيم أخي أبي العبّاس السفّاح، والملقّب بالامام يذكر له فيها اشتداد شوكته وتمكّنه، وأنه في طريقه إلى الظفر، ويطلب منه الرأي والمشورة. فوقع الكتاب في يد مروان؛، فساوم الرسول على حياته مقابل أن يذهب بالكتاب إلى إبراهيم ثم يأتيه بالجواب، وأعطاه عشرة آلاف درهم مكافأة. فذهب بالكتاب إلى إبراهيم الذي كتب كتاباً لأبي مسلم الخراساني يأمره فيه بألّا يبقي أحداً بأرض خراسان ممّن يتكلّم بالعربيّة إلّا أباده.

فانطلق الرسول بالكتاب إلى مروان، فوضعه في يده، فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامله على دمشق أن اكتب إلى عامل البلقاء فليسيّر إلى كداد والحميمة، وليأخذ إبراهيم بن محمد فليشدّه وثاقاً، ثم ليبعث بـه إليك فـي خيل كثيفة، ثم وجه به إلي. فأتاه وهو جالس في مسجد القرية فأخذ وحمل إلى حران، فأُدخل على مروان فأنّبه وشتمه، بعد أن أراه رسالته، فأحسّ إبراهيم بأنه قد أُتي من مأمنه، ثم قال له مروان: أدركك الله بأعمالك الخبيثة، فإن اللـه عـزّ وجلّ لا يأخذ على أول ذنب، اذهبوا به إلى السجن.

فحبسوه أيّاماً، وكان معه اثنان من بني أُميّة هما: عبد الله بن عمر بـن عـبد العزيز والعبّاس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. يقول الثعلبي ـ وكان معهما في السجن ـ: ثم وجّه بعد شهرين قوماً فدخلوا السجن ليلاً فغموا عبد الله بن عـمر والعبّاس بن الوليد وإبراهيم، فلما أصبح الصباح وجدوهم ميّتين، ويقال: أُدخل رأس إبراهيم في جراب نورة حتى مات [1].

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٣٧، البداية والنهاية ١٠: ٣٦، ٤٣، وفيات الأعـيان ٤: ١٨٧، أخـبار

وهذا التصرّف وهذه العقوبة تنم عن أنّ صاحبها يمتلك نفساً صغيرة يخالجها خوف فوت الفرصة فيلجأ إلى معاقبة أعدائه بهذه الصورة البشعة التي ليس فيها أي جانب من جوانب الرحمة التي كتبها اللّه علينا في كل شيء حتى في ذبح الحيوان التي ينصّ الفقهاء في فتاواهم على ألّا يذبح أمام أبويه، وأن يحدّ الذابح الشفرة[1]. وللغربيّين علينا في هذا الباب مؤاخذة هي أنّ ذبح الحيوان يؤلمه، ولذا فإنّهم يصعقونه كهربائياً. وهذا أمر يثير العجب والاستغراب؛ إذ أنّ قتل الشعوب عندهم أمر عادي أمّا ذبح الحيوان فيعدّ جريمة.

على أية حال فإنّ اللّه تعالى كتب علينا الرحمة بغيرنا؛ فإذا كان هناك أعداء فيمكن للحاكم أن يخلّدهم في السجن مثلاً، أمّا أن يضع رأسه في جراب مليء بالنورة ويخنقه، أو يضع الوسائد على وجوههم حتى يموتوا خنقاً فهذا ممّا ليس فيه أدنى جنبة من الرحمة التي أوجبها اللّه علينا. وهذا الفعل كما قلنا ينمّ بشكل صارخ عن نفسية صغيرة وضعيفة.

أمير المؤمنين عليه السلام وأسرى الجمل

أما الرواية الثانية فهي أنه بعد انتهاء معركة الجمل التي تمخّضت عن مأساة كبيرة وعن جبال من الجثث والأشلاء؛ حيث راح ضحيّتها سبعة وثلاثون ألف مقاتل، وهي فتنة كانت اليد الطولى والأساسيّة فيها لعبد الله بن الزبير ومروان والوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذين هيّؤوا لها عدّتها، وأبرزوا لأجلها حليلة رسول الله صلى الله عليه وآله. وهنا نلمس مظاهر النبل عند أمير المؤمنين عليه السلام، وأي نبل هو؟ إنه

☚ الدولة العباسية: ٣٩٤ - ٣٩١.

(١) المسائل المنتخبة (السيد السيستاني): ٤٥٨، المبسوط (السرخسي) ١١: ٢٢٦ - ٢٢٧، ١٢: ٥، بدائع الصنائع ٥: ٦٠.

النبل الذي يدفع صاحبه لأن يصفح عن مثيري الفتنة وقائدة الجيش ثم يأمر بتهيئة أربعين خادمة يخدمنها. لقد كانت دماء الضحايا تسيل أنهاراً بسبب هذه الحرب ومثيريها، لكن خلق أمير المؤمنين عليه السلام ونفسه الكبيرة التي لا يتّسع لحجمها الكون كلّه دفعاه إلى أن يجيء ليتفقّد عائشة؛ لأنّها عرض النبي صلى الله عليه وآله [(١)].

والغريب أنه عليه السلام مع شدّة عنايته بهذه المرأة وشدّة صيانته حياتها وشرفها، والتفاته إلى مكانتها نجد من الألسن والأقلام المزيّفة والحاقدة وغير النظيفة من يقول: كيف نلتقي مع هؤلاء الذين يرمون أُم المؤمنين بالزنا؟ نستجير باللّه من هذا الكلام وهذه التهمة لنا ولها، وأنا لا أدري هل إن هذا الذي يطلق مثل هذا الافتراءات والأقاويل عنده ذرّة من ضمير أو ذمّة تمنعه من إطلاق مثل هذا الكلام؟ هل يعرفون تاريخنا وتاريخهم؟ لينظروا إلى تفاسيرنا مثل (مجمع البيان) [(٢)] للطوسي، و (الكاشف) [(٣)] لمغنية و (الميزان) [(٤)] للطباطبائي (قدس اللّه سرّهم) وغيرها من كتب التفسير [(٥)] أو الحديث [(٦)] مما يبلغ العشرات بل المئات،

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٢) مجمع البيان ٤: ١٥١.

(٣) الكاشف ٥: ٤٠٩.

(٤) الميزان ١٥: ٩٦.

(٥) التبيان ٧: ٤٠٨، فقه القرآن ٢: ٣٨٨.

(٦) بحار الأنوار ٢٠: ٣١٥، وإن كان ذكر بعد ذلك أن الأقرب أنها في ماريّة القبطيّة زوجة رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله.

وعلى العموم فإنه حتى من يرى من علمائنا أن آية الإفك ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ٢٢ ـ ليست في عائشة خاصّة، وأنها في نساء رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله عامّة، فإنهم يدخلون عائشة ضمن المجموع، يقول الشيخ الطوسي: «قال سعيد بن جبير: هذه الآية نزلت في عائشة. وقال الضحاك في نساء المؤمنين. وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة، فلا تقصر الآية على سببها». التبيان ٧: ٤٠٨. ويلاحظ هنا أمران، هما:

فهل فيها من هذا الادّعاء الجائر شيء؟ بل لينظروا كيف يدافعون عن عائشة دفاع المستميت حينما يتناولون حديث الإفك، ويستدلّون على طهارتها هنا بكلام أمير المؤمنين عليه السلام «**إن الله طهّر نعلك، فكيف لا يُطهّر عرضك؟**».

وبقول عبد اللّه بن عباس «ما زنت امرأة نبيّ قط»[1]. والمسألة موضع إجماع عندنا، وهناك إصرار من أئمّة فكرنا وقادتنا على تطهير ساحة بيت النبي صلى الله عليه وآله من كل دنس ورجس. فصحيح أننا لا نرضى بخروج عائشة على إمام زمانها؛ لقوله صلى الله عليه وآله: لأمير المؤمنين عليه السلام: «**حربك حربي وسلمك سلمي**»[2]، و«**من أحبّك ختم اللّه له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام**»[3]. لكننا لا نرميها بما أمر اللّه تعالى بحفظه منها. ثم إننا لسنا بدعاً بين المسلمين في مسألة إدانة من يخرج على إمام زمانه؛ فلقد أدان المسلمون أهل الردّة الذين خرجوا على أبي بكر، وأدانوا من خرجوا على غيره[4]، وهذا الشيء عين ذاك، وحكم

الأول قوله: «وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة». وهذا معناه تنزيه لكل نساء النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

الثاني قوله: «وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة»، وهو قول صريح بعدم نفيه عنها.

ومثله قول القطب الراوندي في فقه القرآن ٢: ٣٨٨.

(١) التبيان ٥: ٤٩٥، مجمع البيان ٥: ٢٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقال له بهذا المعنىٰ أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٣) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواته ثقات.

(٤) كما فعل البعض حيث خطّأ من خرج على عثمان، انظر محاضرة (الإخاء) ج ٢ من موسوعة محاضرات الوائلي، وكما خطّأ ابنُ العربي الإمام الحسين عليه السلام في خروجه على يزيد، انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وقد يقول قائل: إنها تابت وندمت. فنقول: هذا أمر حسن، لكننا لا نوصل الأمر إلى اتّهام عرض النبي ﷺ (حاشا رسول اللّه ﷺ من ذلك).

وهذه المسألة مفروغ منها عندنا، فعرض النبي ﷺ مصان، وشرفه محفوظ، ولا يمكن أن يبتلي اللّه سبحانه وتعالى نبياً من أنبيائه بمثل هذا، فكيف بخاتم الأنبياء وسيّدهم وسيّد الكائنات كلّها وسيّد البيت الطاهر وموضع عناية القرآن الكريم والسماء؟

يروون عن أحد التفاسير عندنا أنّ القائم عليه السلام إذا خرج يجلد عائشة ويقيم عليها الحدّ، لكن ما اسم هذا التفسير؟ ومن هو صاحبه؟ لا أحد يدري. إن هذا التفسير الذي يُنقل فيه أن يفسّر فيه قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾[1] بما يروى عن أبي عبد الله عليه السلام من أن أمير المؤمنين عليه السلام البعوضة وما فوقها رسول الله ﷺ نضرب به عرض الجدار وإن ثبت أنه لعلي بن إبراهيم [2]، لكن هل هو حقّاً له؟

فهذا عرض رسول اللّه ﷺ، وبيت النبوّة الذي نكنّ له في قلوبنا ومشاعرنا أسمىٰ حب واحترام ونُنزّهه عن أن تناله الألسن أو تلوكه، ونربأ بألسنتنا أن نخوض فيما نهى اللّه عن الخوض فيه. فمن يروّج لهذا الكلام (أنّ الشيعة يتّهمون أم المؤمنين عائشة بالزنا ويرمونها به) لهو مهرّج، وكلامه كلام معيب، فيجب أن تغلق أسواق هذه البضاعة الشنيعة، وينبغي عدم لوك عرض النبي ﷺ بهذا التهريج الشائن، بل إن الذي يروّج له هو من يريد أن يسيء إلى رسول اللّه ﷺ في عرضه.

---

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) تفسير القمي ١: ٣٤ – ٣٥.

رجـع

على أية حال، فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام لم يشأ أن ينام دون أن يتفقّد حـال السيدة عائشة؛ لأنه يرى أنّها عرض رسول الله صلى الله عليه وآله مع ما كان لها من مواقف معه تمزّق أعصاب الإنسان حتى إذا كان في غاية الصبر، سيّما شنّها الحرب عليه؛ لما أُريق من دماء، وأُزهق من أرواح على غير سبب سوىٰ رغبة عند البـعض فـي إهاجة الفتنة وإثارتها عليه عليه السلام.

المهم أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام حينما دخل البصرة بعد واقعة الجمل وقفت له امرأة بباب الدار وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم اللّه ولدك. ولو أننا وضعنا مكان أمير المؤمنين عليه السلام أحد خلفاء بني أُميّة أو بني العبّاس كعبد الملك بن مروان والحجّاج وأمثالهما، فماذا يمكن أن يكون ردّة فعله حينها؟ أليس الحجّاج هـو الذي خطب الناس ذات مرة حتىٰ غابت الشمس، فقام له أحدهم وهو يـخطب وقال له: أصلحك اللّه، الوقت لا ينتظرك، والربّ لا يعذرك. فقال له الحجّاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن [١].

أمّا علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد كان جوابه أن قال لها: «**لو كنت قاتل الأحـبّة لقتلت من في هذه الحجرة**» [٢]؟ وكان فيها مروان بن الحكم، وعبد اللّه بن الزبير، والوليد بن عقبة بن أبي معيط.

فهذه هي النفس الكبيرة التي تسمو على كل ما هو حـطام دنـيوي زائـل [٣].

---

(١) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأُدباء ١: ٢٣٩.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامن بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥.

(٣) وإن كان كرسي حكم ودست رئاسة، أليس هو عليه السلام القائل: «لولا حضور الحـاضر وقـيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم

كانعليه السلام يعرف أنّ العفو سيخلّده أكثر من الانتقام، وإلّا فإنّهعليه السلام كان قادراً على أن ينتقم من كل من قام بالحرب ضدّه[1]. وهكذا فإنّ التاريخ الآن حينما يمرّ بموقف من المواقف الكريمة والنبيلة لهذا الرجل السيد النبيل فإنّه ينحني له إجلالاً وإكراماً وإكباراً، وهو يفعل هذا مع كل موقف يمرّ به لأمير المؤمنينعليه السلام:

أَأَبا الحُسينِ وتِلكَ أروعُ كنيةٍ	وكِلاكُما بالرَّائعات قَمِينُ
لكَ في خَيال الدَّهرِ أيُّ مَلامحٍ	تَروي السَّنا ويُترَجِمُ النَّسرينُ
في الصبح أنت المُستَحِمُّ منَ اللَّظىٰ	واللَّيل في المحرابِ أنتَ أنينُ
تكسو وأنتَ قطيفةٌ مَرقوعةٌ	وتَموتُ من جوعٍ وأنت بَطينُ
آلاؤك البيضاءُ طوَّقتِ الدُّنَا	فَلها علىٰ ذِممِ الأَنامِ دُيونُ
وترقّ حتى قيل فيك دعابة	وتفحّ حتى يفزع التنّينُ
خلقٌ أقلُّ نعوتِه وصفاتِه	أن الجلالَ بمثلِه مقرونُ
ما عدت ألحو عاشقيك بما أتَوا	وصفاتُك الغَرَّاءُ حورٌ عينُ [2]

☚ لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز». نهج البلاغة / الخطبة: ٣ المعروفة بالشقشقية.

وقال لابن عبّاس: «والله لهما أحبّ إليّ من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً» يعني نعليه. الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣.

(١) وإلّا فلماذا ترفّع بسيفه أن ينال بسر بن أرطاة وعمرو بن العاص بعد أن كشفا عن عورتيهما خوفاً من سيفه القاضم الحاطم؟ يقول ابن الأثير وابن منظور: «كان علي بن أبي طالبعليه السلام إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ ـ قضم، لسان العرب ١٢: ٤٨٨ ـ قضم.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٩.

في تحقيق معنىٰ العرش وصفته

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**﴾، والمقصود بالعرش: مطلق القدرة، أي دائرة الأمر والنهي. فمن باب تقريب المعنىٰ إلى الحسّ سمي الشيء المعنوي باسم الشيء المادي، وإلّا فإن العرش ليس بجسم أبداً. فهو تعالى يريد أن يقرب الشيء المعنوي إلى الذهن كما قرّب نوره إلى الذهن بالشيء المعنوي، فقال عزّ من قائل: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ**﴾[1]. فالعرش ليس مكاناً يجلس عليه اللّه تعالى كما يتصوره البعض، وهؤلاء هم المجسّمة الذين يقولون: إنّ اللّه عزّ وجلّ عنده عرش ويُعطونه حجماً معيناً، بل إنه تعالىٰ منزه عن الجسمية.

فقوله تعالىٰ: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**﴾ يعني أنه تعالى ذو مكانة مجيدة. والمجيد لفظ يتضمن صفتين هما: القوي المترفّع عن الدنايا. وقد مرّ بنا سابقاً أنّ عروش الأرض ضعيفة متزلزلة سرعان ما تتهاوىٰ وتسقط لسبب من الأسباب، فكلّ

---

(١) النور: ٣٥. وقال المعري:

يروى أن أبا تمام الطائي أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يمدحه فيها، فلما بلغ إلى قوله:

في حلم أحنف في شجاعة عامرٍ ... في جود حاتم في ذكاء إياسِ

قال له الكندي وكان حاضرا: ما صنعت شيئاً. قال: وكيف؟ قال: لأن شعراء دهرنا قد تجاوزوا بالممدوح من كان قبله، ألا ترى إلي قول أبي العكوك في أبي دلف:

رجل أبرّ على شجاعة عامرٍ ... بأسا وغيّر في محيّا حاتمِ

فأطرق الطائي ثم رفع رأسه وأنشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراسِ

الأمالي (المرتضى) ١: ٢١٠ - ٢٠٩.

عرش من الممكن أن يهتز ويقتلع من جذوره خلال أقل من ساعة كما حصل للمتوكّل مع الأتراك. وهناك تجارب كثيرة في حياتنا في هذا المجال تُثبت صحة ما قلنا، وهذه التجارب تنمُّ عن أنّ هذه العروش متزلزلة لأنّها عرضة للخطر في أية لحظة، كما أنّ هذه العروش الأرضية ليست عروشاً كريمة؛ لأنّها لا تترفع عن الدنايا والآثام، فتجد عرشاً يطارد امرأة ليقتلها، فهل هذا عرش كريم؟ فحينما لاحق عبد الله بن الزبير زوجتي المختار وقتل إحداهما لأنها رفضت أن تتبرّأ من المختار مع أنها امرأة ضعيفة [1] هل من الممكن أن يكون ذا عرش كريم؟ وهل يوصف بذلك بسر بن أرطاة وهو الذي حينما مرّ ببني كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأُمهما، فلمّا انتهى بسر إليهم طلبهما، فدخل رجل من بني كنانة كان أبوهما أوصاه بهما، فأخذ السيف من بيته وخرج، فقال له بسر: ثكلتك أُمّك! والله ما كنا نريد قتلك، فلم عرّضت نفسك للقتل؟ فقال: أُقتل دون جاري أعذر لي عند

---

(١) وهما أُمّ ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاريّة وعمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّة، حيث إن مصعب بن الزبير كتب إلىٰ أخيه عبد اللّه بخبرهما، فكتب إليه: إن تبرّأتا من زوجهما، وإلّا فاقتلهما. فعرضهما مصعب علىٰ السيف فرجعت ابنة سمرة وتبرّأت منه، وقالت: لو دعوتموني إلىٰ الكفر مع السيف لأقررت. وأبت ابنة النعمان وقالت: شهادة أُرزقها، ثمّ أتركها؟ يا رب، إنها موتة ثمّ الجنّة والقدوم علىٰ رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الطاهرين. ثمّ قالت: اللهم اشهد أني متّبعة لنبيّك وابن بنت نبيّك وأهل بيته وشيعته. فأمر بها مصعب فأُخرجت إلىٰ ما بين الكوفة والحيرة، وقتلت صبراً. وفي هذا يقول عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاء حرّة عطبولِ
قتلوها ظلماً علىٰ غير جرم ... إن للّه درّها من قتيلِ
كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصنات جرّ الذيولِ

تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ ـ ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٨٩ ـ ٣١٣.

الله والناس. ثم شد على أصحاب بسر بالسيف حاسراً وهو يرتجز:

آليت لا يـمنع حـافات الدارْ ... ولا يموت مصلتاً دون الجـارْ

إلّا فتـى أروع غيـر غـدّارْ

فضارب بسيفه حتى قتل، ثم قدّم الغلامان فقتلا، فخرج نسوة من بني كنانة، فقالت امرأة منهن: هذه الرجال يقتلها، فما بال الولدان؟ والله ما كانوا يُقتلون في جاهلية ولا إسلام، والله إن سلطانا لا يشتدّ إلّا بقتل الطفل الضعيف والشيخ الكبير ورفع الرحمة، وقطع الأرحام لسلطان سوء. فقال بسر: والله لهممت ان أضع فيكن السيف. فقالت: والله، إنه لأحبّ إلي إن فعلت[1].

فالعرش هو الذي يجب أن يكون في القلوب وليس على الأخشاب؛ لأن العروش التي تقوم على الظلم والاضطهاد والإبادة ليست عروشاً، وأصحابها ليسوا بشراً وإنما هم وحوش. فالعرش المترفع عن هذه المظاهر هو الذي يتصف بكونه كلّه رحمةً وعطاء، فهذا هو العرش الذي يدوم ويبقىٰ مخلّداً في القلوب لا يزول عنها ولا يحول. وهذا ما تؤيده شواهد التاريخ؛ حيث نلاحظ أن العروش الدنيوية القائمة على الحقد والقتل والظلم كلّها قد ذهبت ولم يعُد يذكرها ذاكر. فقصرا المتوكل في سامراء: الجوسق والجعفري بما كانا عليه من فخامةٍ وعظمة بناء قد ذهبا، أما خان الصعاليك الذي كان يقابلهما، وكان يسكن فيه الإمام الهادي عليه السلام فهو يناطح السماء علوّاً وبريقاً، يقول أحد الأُدباء:

أخانَ الصعاليكِ هل مرّت الـ ... ـتعابيرُ في تربِك المقفرِ

لتـنبيك أن ديـارَ الطـغا ... ةِ من جوسقٍ ثَم أو جعفرِ

تهاوت رماداً وظلّ الخلودُ ... يـنامُ على رملِكَ الأسمرِ

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ١٤.

فالحقيقة إذن أنّ العرش المجيد هو الذي يقوم في القلوب والأنفس وتبقىٰ آثاره المادية في الدنيا تبعاً لقيامه في القلوب. فالقرآن الكريم ينعت اللّه تعالى بأنّه ذو مكانة قوية ممتنعة على الدنايا.

أبعاد وقوف الأمويين في وجه النهضة الحسينية

إن وقوف الإمام الحسين عليه السلام بوجه هذا المدّ الجاهلي المتنامي على أيدي الأُمويّين لا بد أن يعيش في فكر كل حرّ حتى مع وجود الصوارف التي حاولت إبعاد فكر الحسين ومبدئه عن عقول الناس وساحة المجتمع. وهذه الصوارف تتمثّل في أنّ الأُمويّين لم يتركوا بعداً من الأبعاد يدخل ضمن دائرة قدرتهم إلّا وجنّدوه ضد الإمام الحسين عليه السلام وفكره وامتداد خطّه؛ لإخراجه من الساحة جسداً وفكراً وروحاً. ويمكن حصر هذه الأبعاد بالتالي:

البعد الأوّل: أنّ الحسين عليه السلام ابن بنت الرسول صلى الله عليه وآله وليس ابنه

لقد استغلّ أعداء الإمام الحسين عليه السلام هذه النقطة، فأشاعوا بين الناس فكرة أنه عليه السلام ليس الابن الصلبي للنبي صلى الله عليه وآله، بل إنّه ابن ابنته، وابن الابنة لا علاقة له بجدّه لأُمّه ولا يعتبر ولداً له، بل إنّه يتبع أباه وجدّه لأبيه[1]. وقد سبق أن عالجت هذا

---

(١) ويستدلّون بقول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا بنوهن أبناءُ الرجالِ الأباعدِ

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٩، شرح نهج البلاغة ١١: ٢٨. وقد مرّ في محاضرة (البناء الأُسري في الإسلام) ج ٤ من موسوعة محاضرات الوائلي ردّ القرطبي على الاستدلال به، وعدم صحّته.

وكذلك ببيت عمران بن حفصة:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البنات وراثة الأعمامِ

الموضوع فيما مرّ من محاضرات[1]، وقلت هناك: إنّ العلماء يعتبرون ابن البنت كابن الولد من ناحية جملة من الأحكام المترتّبة عليه. ثم إن جواب الإمام الكاظم عليه السلام للرشيد يكفي في المقام[2]؛ فقد سأله عليه السلام: لمَ جوّزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقولوا لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبي صلى الله عليه وآله جدّكم من قبل أُمّكم. فقال عليه السلام له: «**لو أن النبي نشر فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيبه؟**». قال: سبحان الله! ولم لا أُجبه، بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك؟ فقال عليه السلام له: «**لكنه لا يخطب إليّ، ولا أُزوّجه**». فقال: ولم؟ فقال عليه السلام: «**لأنه ولدني**»[3]. وقد

☚ عيون أخبار الرضا ٧: ١٨٩، تاريخ بغداد ١٣: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٧: ٢٩٢.

(١) في القسم المطبوع منها انظر ما ورد في الهامش السابق.

(٢) وكذا روي عن الباقر أنه قال: «يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن والحسين عليهما السلام؟». قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول اللّه صلى الله عليه وآله. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول اللّه عزّ وجلّ في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥. قال: «فأي شيء قالوا لكم؟». قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول اللّه تعالىٰ لرسوله صلى الله عليه وآله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ آل عمران: ٦١. قال: «فأي شيء قالوا؟». قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول: أبناؤنا.
قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، لأُعطينّكها من كتاب الله عزّ وجلّ أنّهما من صلب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يردّها إلّا كافر». قلت: فأين ذلك جعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ النساء: ٢٣، فسلهم يا أبا الجارود: هل كان لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه». الكافي ٨: ٢٦٣ ـ ٢٦٤ / ٥٠١.

(٣) الاحتجاج ٢: ١٦٤، بحار الأنوار ٤٨: ١٢٨، ٩٣: ٢٤٠، ومثلها مناظرة الإمام الرضا عليه السلام

وضع النبي صلى الله عليه وآله احتياطه لهذه المسألة من أيّامه الأُولى؛ لما كان صلى الله عليه وآله يعرفه من محاولات الأُمويين وغيرهم من أعداء البيت النبوي لتشويه الحقائق وتزويرها، ودفع الثوابت لأغراضهم الشخصية. وكان صلى الله عليه وآله يعلم أيضاً أنهم سيثيرون مثل قضية أن الحسنين عليهما السلام سبطا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وليسا ولديه، فكان يكرّر أمام الملأ عنهما: «**ابناي**»[1]، ويقول صلى الله عليه وآله: «**كلّ بني أُمّ ينتمون إلىٰ عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم**»[2]. وهو صلى الله عليه وآله لم يكن بالذي يلقي الكلام جزافاً حينما أكّد على هذا المعنى وعلى هذا الجانب، بل إنّه صلى الله عليه وآله كان يعرف أنّ هذا الجانب سوف يعتّم عليه ويتعرّض إلى هزة تحاول زعزعته في النفوس. وهكذا فشلت هذه المحاولات، وظلّت الحقيقة قائمة.

البعد الثاني: استعمال مبدأي الترهيب والترغيب

وكذلك لجأ هؤلاء إلى تجنيد الأموال الطائلة والسجون الكثيرة والكبيرة لإغراء الناس وجذبهم إليهم وإبعادهم عن أهل الحقّ، ولتعذيب من يقف بوجههم

☚ والمأمون. بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ /٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

(١) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٢) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال صلى الله عليه وآله: «إن اللّه لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن اللّه جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

ويرفض أساليب الإغراء التي يحاولون استدراج الناس بها وشراء ذممهم. فسجنوا كل من كان يميل لأهل البيت عليهم السلام؛ فقد كبسوا بيت سعيد ليلاً وأرعبوا عائلته لا لسبب سوىٰ أنه يوالي علي بن أبي طالب عليه السلام.

وطورد عمرو بن الحمق الخزاعي ولوحق حتى الكهف الذي التجأ إليه حيث هجموا عليه، وأخذوه وضربوا عنقه وحملوا رأسه من الموصل إلى بلاد الشام[1]، وكذلك فُعل بحجر بن عدي الكندي حيث أُخذ هو وجماعته إلى الشام ثم ذبحوا في مرج عذراء؛ لأنّهم استنكروا شتم أميرالمؤمنين عليه السلام ورفضوا أن يسبّوه. وخلاصة الأمر أنّ كل من كان يحب أمير المؤمنين عليه السلام، وكل من كان يتّهم بحبه تعمد السلطة إليه فتسجنه وتذيقه أليم العذاب ثم تقتله، وكان المقصود من هذه الممارسات إبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن الساحة، واستهداف حركته وفكره.

البعد الثالث: تجنيد الأقلام المأجورة

لقد عمدت السلطة من ضمن ما عمدت إليه لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام وفكره إلى تجنيد جملة من حملة الأقلام المحسوبين على الإسلام، مع أننا لا نستطيع أن نعطيها شرف الانتساب إلى الإسلام. إنّ تلك المحاولات كانت محاولات يائسة غير ناهضة، غير أنّ الإصرار عليها يبعث على لفت النظر إليها؛ لأن بعض هذه الأقلام بدأت تركّز على أسباب خروج الإمام الحسين عليه السلام، وتؤكّد على أنه باغٍ خرج على إمام زمانه، فقتل. لكن لنا أن نسأل: من هو إمام زمانه؟ طبعاً يقصدون به يزيد، مع أنّ هؤلاء أنفسهم يروون أنه كان يصعد على منبر المسلمين والخمرة ترنّح أعطافه ويقول:

---

(١) الاستيعاب ٣: ١١٧٤ / ١٩٠٩، البداية والنهاية ٨: ٥٢.

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم — وداعي صبابات الهوى يترنّمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة — فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّمُ[1]

ومن أحبّ أن يطّلع على حاله أكثر فليرجع إلى كتاب (حياة الحيوان)[2] للدميري في باب (فهد)، ولينظر إلى آراء العلماء في يزيد وما الذي يقولونه فيه. وكذلك لينظر مقدمة كتاب مقتل الحسين عليه السلام) للسيد عبد الرزاق المقرّم؛ حيث عقد فيها فصلاً خاصاً ذكر فيها آراء علماء المسلمين في نهضة الإمام الحسين عليه السلام ضد يزيد، وما هي حقيقة يزيد. وكذلك لينظر مؤلفات جملة من أصحاب الأقلام الحرّة التي تناولت الإمام الحسين عليه السلام وكيف وصفت خروجه على يزيد وكيف هي الحالة التي كان عليها يزيد قبل تسنمه الحكم وبعده. إنّ هؤلاء يذكرون أنّ يزيد لم يترك حرمة للّه لم ينتهكها[3].

لكن كما قلنا يأتي البعض من أصحاب الأقلام الرخيصة وغير النزيهة فيصف

---

(١) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:
اسقني شربة تروّي فؤادي — ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زيادِ
موضع العدل والأمانة مني — ولتنفيذ مغرمي ومرادي
تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

(٢) حياة الحيوان ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) وأبرز تلك الحرمات التي انتهكها وأشدها حرق الكعبة، كما في سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ - ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.
وهتك حرمة المدينة وقتل (٧٠٠) من القرّاء كما في تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

سيد شباب أهل الجنة بأنه باغٍ[1]. وهذا عبور على الحقيقة وظلم التاريخ والخلق الإسلاميّين.

البعد الرابع: التعتيم على ذكرىٰ استشهاده

وهذا البعد قد اتّخذ عدة أشكال وأطوار، ذلك أنّ السلطات الحاكمة حينما رأت أن هذه الفرية لم تنطلِ على الناس ـ حيث إنّهم راحوا يتتبّعون سيرة الحسين عليه السلام، وأثرها في واقعهم، وعرفوا أنه خرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولتجسيد مبادئ الإسلام اتجهوا إلى أبعاد اُخرىٰ منها التمويه على ذكراه ليخرجوه من الأفكار ومن دنيا الواقع وليطردوه من أذهان الناس. وأرادوا الذكراه أن تمرّ بشكل بارد دون أن تشوبها شائبة الحركة والحرارة الثورية أو حرارة الحمية والانفعال من أجل علم من أعلام المسلمين. وقد حاولوا فعل ذلك عبر عدّة أشكال منها:

الأوّل: أنّ شعار الثورات المستوحاة منها فيه استعانة بغير اللّه

وهكذا أخذوا يشكلون عل نوع الشعارات، فشعار «ياحسين» فيه استعانة بغير اللّه تعالىٰ من وجهة نظرهم، وهو شرك.

معنى الاستعانة ومشروعيّتها

لكن لنا أن نسأل: ما معنى الاستعانة؟ وهل نحن نستعين بالحسين عليه السلام بما أنه لحم ودم؟ إننا نقف في المكان الذي أراد اللّه عزّوجلّ له أن يعظّم، ألم يأمرنا اللّه

(١) ويا ترىٰ حينما قال فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله ذلك ـ بأنه سيد شباب أهل الجنة ـ هل كان يعلم بأنه سيخرج على يزيد أم لم يكن يعلم؟ والنتيجة في كلا الحالين ممّا يجب أن ينزّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن وصفه بها.

تعالى بتعظيم الشعائر [1]؟ وألم يكن من جملة شعائر اللّه تكريم الشهيد والإشادة بدمه؟ إننا حينما نقف على ضريح الإمام الحسين عليه السلام فإنّما نقف على مربض من مرابض الشهادة المهمّة في تاريخ المسلمين، ونستوحي من اللّه رحمته، ونقول: يارب بحق هذا الدم الطاهر، وبحقّ هذا الموقف الكريم للذي ترسّم خطّ نبيّك محمد صلى الله عليه وآله واقتفىٰ خطاه الكريمة، ارحمني ولا تحرمني من رحمتك. فأين هي الاستعانة بغير اللّه تعالى؟

ثم إنّ هؤلاء قد كرّروا هذه النغمة على مدىٰ ألف وأربعمئة سنة، ونحن أجبناهم عليها بقدر أسئلتهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع، أفلا يكفي هذا؟ وأنا أعرف أنّ هذه النغمة لن تتوقف، وهذه التهمة لن تنتهي لسبب بسيط هو أنّ هناك أسواق مفتوحة لهذه البضاعة البائرة لتي تدعو إلى إثارة النعرات وبثّ التفرقة.

الثاني: ادّعاء استحباب صوم يوم عاشوراء

ومن هذه البضائع ما يروّج له من ندب صوم يوم عاشوراء، ويروون في ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله دخل المدينة فوجد أهلها يصومون يوم عاشوراء، فقال صلى الله عليه وآله: «**ما هذا من الصوم؟**». قالوا: هذا اليوم الذي نجّىٰ اللّه فيه نبيّه موسىٰ بن عمران عليه السلام، وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، فصامه موسىٰ عليه السلام شكراً. فقال صلى الله عليه وآله: «**أنا أحقّ بموسىٰ، وأحقّ بصوم هذا اليوم**» [2].

ثم قالوا بعد ذلك: إن هذا الصوم نسخ بصوم شهر رمضان [3].

وأقول: إذا كان هذا الصوم قد نسخ كما تروون، فلماذا تدعون له؟

---

(١) في قوله عزّ من قائل: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحجّ: ٣٢.
(٢) مسند أحمد ٢: ٣٥٩، باختلاف.
(٣) المجموع شرح المهذّب ٦: ٣٠١، ٣٨٣ – ٣٨٤، وقد نقل عن الماوردي عليه الإجماع.

فإن أجابوا بأنهم يدعون له لا على نحو الوجوب بل على نحو الاستحباب.

فنقول: نحن لا نقول بأنّ الصوم أكثر من أن يكون عبادة، فإذا كان الغرض الاستحباب والتقرّب إلى اللّه تعالى فكل يوم هو للّه، فلماذا الإصرار على هذا اليوم؟

فالاستحباب حينئذٍ بعد نسخ الصوم هذا بصوم شهر رمضان لا وجه لتخصيصه بهذا اليوم وإن كان قد نجّى اللّه تعالى فيه نبيّه موسى بن عمران عليه السلام. أمّا إذا كان صيامه بعنوان التشفّي من الإمام الحسين عليه السلام، أو بأي صورة تعطي هذا المعنى فهو حرام بلا كلام؛ لأنّه حينئذٍ سيؤول إلى كونه نصباً، وإذا وصل إلى كونه نصباً أصبح إنكاراً لضرورة من ضرورات الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً**﴾[1]، ومادام أمر اللّه متوجّهاً إلينا بهذه المودّة، وما دام من مظاهر مودّتهم هو الحزن لحزنهم[2] فالواجب إذن ألا يُظهر أحد التشفّي بهم، بل لا يضمره أصلاً.

في أنّ مصرع الإمام الحسين عليه السلام أبكى رسول اللّه صلى الله عليه وآله

فصوم عاشوراء إن كان بعنوان التقرّب إلى اللّه تعالىٰ فقط فهذا الاعتبار علّة لصحّته، أما إذا كان في صومه إيماءة أو إشارة تعطي لوناً من الشماتة فهو صوم

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) قال الصادق عليه السلام :«رحم الله شيعتنا؛ خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، يحزنون لحزننا ويفرحون لفرحنا». شجرة طوبى ١: ٣ - ٦.
وهو أعم من الفرح والحزن المألوفين عندنا؛ لأنهم عليهم السلام يفرحهم أن يطاع اللّه تعالى، ويحزنهم أن يعصى. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كل يوم لا يعصى اللّه فيه فهو عيد». روضة الواعظين: ٣٥٤، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٧٣. أي يوم فرح. فهو صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار عليهم السلام يفرحون إن أُطيع اللّه تعالى ويحزنون إن عصي.

محرّم؛ لأنّه هذا اليوم يوم عزاء لرسول اللّه صلى الله عليه وآله. وليس من مسلم يشكّ في أن مقتل الإمام الحسين عليه السلام قد آذىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وآلمه أشدّ إيلام وأفجعه أي فجيعة.

مشروعية البكاء على الحسين عليه السلام وإقامة المآتم عليه

ويمكن الاستدلال لهذا بالكثير من الروايات التي يرويها علماء المذاهب الأربعة في خصوص بكاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على الإمام الحسين عليه السلام أو في بكائه على غيره من أصحابه، فهذه كتب علماء أبناء المذاهب الأربعة غنية بالروايات التي تصبّ في هذا المجال، وهي متوفّرة بين أيدينا.

وهكذا فنحن حينما نقيم مآتم على الإمام الحسين عليه السلام نذكر فيها مواقفه البطولية وأهداف حركته السامية ونبكي لما أصابه، فإننا إنما نمشي مع السنّة وعلى خطّها في هذا، ولا نخالفها في شيء. ولست أدري لماذا يعبّر البعض عن إقامة مثل هذه المآتم بأنها بدعة وأنها مخالفة للسنة؛ فهناك الكثير من الروايات في هذا المضمار كما ذكرنا، ومنها ما يرويه ابن الصبّاغ المالكي في (الفصول المهمّة): عن أُمّ الفضل بنت الحارث زوجة العبّاس بن عبد المطلب، أنّها دخلت علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقالت: يارسول اللّه إنّي رأيت حلماً منكراً الليلة. قال صلى الله عليه وآله: «**وما هو؟**». قالت: إنّه شديد. قال: «**وما هو؟**». قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري. فقال صلى الله عليه وآله: «**رأيتِ خيراً، تلد فاطمة إن شاء اللّه غلاماً فيكون في حجرك**».

وفعلاً ولدت الزهراء عليها السلام الإمام الحسين وأرضعته أمّ الفضل التي تذكر ذلك فتقول: فولدت فاطمة الحسين عليهما السلام، فكان في حجري، كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله،فدخلت يوماً علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فوضعته في حجره، ثم حانت مني

التفاتة، فإذا عينا رسول اللّه ﷺ تهريقان من الدموع، فقلت: يا نبيَّ اللّه، بأبي أنت وأُمِّي، مابك؟ قال: «**أتاني جبرائيل فأخبرني أنّ أُمَّتي ستقتل ابني هذا**». فقلت: أيكون هذا؟ فقال ﷺ: «**نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء**»[١].

وهذه التربة أودعها رسول اللّه ﷺ عند أُمّ سلمة وقال لها: «**يا أُمَّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل**»[٢].

ومن أحبّ فإني أُرشده إلى عشرات المصادر عند المذاهب الأربعة في هذا المضمار، ودونه كتاب (إقناع اللائم في إقامة المآتم)[٣]، وهو مطبوع ومتوفّر، وكل مصادره من كتب المذاهب الأربعة.

بكاؤه ﷺ على شهداء مؤتة

إن على المعترض على أمثال هذه الأُمور أن يرجع إلى (الموسوعة الفقهية) في الكويت ولينظر في باب (مأتم) كيف أنه ﷺ بكى لما قُتل جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة بمؤتة، وقال: «**المرء كثير بأخيه**»[٤]. وقال ﷺ «**على مثل جعفر فلتبكِ البواكي**»[٥].

---

(١) انظر: المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٦ ـ ١٧٧. قال الحاكم: «وهذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين». وقد مرّ التنبيه في ج١ ص٣١ من موسوعة محاضرات الوائلي إلى أن صاحبة الرؤيا هي أُمّ سلمة وليست أُمّ الفضل، ويدلّ عليه أن رسول اللّه ﷺ قد أودع التربة التي أتاه جبرائيل عليه السلام بها من كربلاء عند أُمّ سلمة.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.

(٣) للسيّد محسن الأمين رحمه الله.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٢.

(٥) الاستيعاب ١: ٢٤٣، أُسد الغابة ١: ٢٨٩، وأضاف فيه: ودخل الرسول الأكرم ﷺ من

الثالثة: تحريم أكل الطعام الذي يصنع على شرف الحسين عليه السلام

ثم عمد هؤلاء إلى الدعوة إلى الامتناع عن أكل الأطعمة التي تصنع في ذكرىٰ الإمام الحسين عليه السلام، معلّلين ذلك بأنّها محرّمة، مع أنّها تجمع كل شرائط التذكية الصحيحة التي أرادها اللّه تعالى من كون الذابح مسلماً، وتوجيه الذبيحة إلى القبلة، والتسمية عليها عند الذبح، وغيرها. فهذا الذي يصنع الطعام على شرف الإمام الحسين عليه السلام إنّما يدعو الناس إلى الأكل منه ابتغاءً لوجه اللّه تعالىٰ وطلباً لرضوانه؛ لأنّه يبعث ثوابه إلى روح الإمام الحسين عليه السلام. وهو بهذا لا يعدو أن يكون عمله كباقي أنوع البرّ التي يعملها المسلمون لأمواتهم.

هذا مع أننا نعتقد بأن الإمام الحسين عليه السلام ليس بميت[1]، لكننا نريد أن نسرّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله بتقديم الطعام على مائدة ولده، وجعل ثوابه له. فما هو وجه الحرمة إذن؟ ومن أين جاءت، وليس إطعام الطعام هنا كما قلنا إلّا محاولة لإهداء ثوابه إلى الإمام الحسين عليه السلام؟

وأنا أُؤكد من على هذا المنبر أن طرح مثل هذه المسلّمات على الساحة والنقاش فيها ليس إلّا مضيعة للوقت، لأن من يطرحها ليس طالب حقيقة، بل هو طالب عناد ومجانف للحقيقة. إن المسلمين اليوم بحاجة إلى الهدوء لتصفية مشاكلهم؛ لأنهم بحاجة إلى الوئام والتكاتف والتآزر، فلدينا كمسلمين من المشاكل مع الآخرين في العالم المحيط بنا ما يكفينا ويكون حرضاً لنا وسبباً لأن نتّحد ونتكاتف في وجه هذه المشاكل التي يراد من ورائها أن يحاق بنا. وإن كان

☚ ذلك همّ شديد، حتى أتاه جبريل فأخبره أن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرّجين بالدم، يطير بهما مع الملائكة.

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران: ١٦٩.

لابدّ من مناقشة مثل هذه الأُمور، فالعالم مليء بالمنكرات التي ترتكب كلّ يوم علانية فلتحارَب تلك المنكرات بعيداً عن الأُمور التي تشحن الأجواء، وتؤجّج المشاكل والصراعات،وتشغل المسلمين عما يدور حولهم مما يراد بهم.

فمن يرد وجه اللّه تعالى فلينكر ذلك المنكَر ولا يظلّ يدور حول هذه الدائرة التي ليس لها مخرج وليس منها مفرّ، أمّا أن يشيع أنّ اللّه تعالىٰ سيعاقب من يصنع هذا الطعام على شرف سيد الشهداء عليه السلام طلباً لمغفرته ولرضوانه وسيعاقب آكله الذي سيذكر مصيبة ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله ويستعبر لها، فلا أظنه مقتنعاً بما يشيع ويقول، وإنما هو العناد والعزّة بالإثمّ.

إننا نعرف طريقنا الذي نسير عليه[1] وواثقون منه، ونحن على هدْي الذين قال فيهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»[2]، وعلى هداهم وحبّهم ومودّتهم (نسأل اللّه تعالىٰ أن يجعلنا دائماً من المتمسّكين بكتابه ونبيه صلى الله عليه وآله وأهل بيته عترته عليهم السلام)، وإن شاء اللّه سوف لن نضل ما دمنا على هذا الطريق أبداً، فلا يعنينا أنّ هناك من يوزّع الكفر والإيمان اعتباطاً[3]، ولا يعنينا أنّ هناك من جعل كل رسالته وهدفه في الحياة

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف: ١٠٨.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(٣) فالمتوكّل عندهم محيي السنة، ومميت البدعة كما في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩، مع أنهم يروون أن لحمه وقع في كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان الغانيات، ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠.

تمزيق وحدة المسلمين وشقّ صفوفهم بما يصدر عنهم من فتاوى[1] وتكفير لمذاهب إسلامية أُخرى[2].

فاللّه اللّه على وحدة الإسلام والمسلمين، ولتكن أعمالنا نابعة من هدي القرآن الكريم ووحيه، ومن إرشاد السنة النبوية المطهّرة (على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام وأتم التحية والإكرام).

أسباب اصطحابه عليه السلام بنات الرسالة

ولهذا الأمر مبرّرات عدّة ووجيهة على الرغم من اعتراضات البعض على هذا الإجراء، وأنه أدّىٰ إلى سبي العائلة وهتك حرمتها والتسبّب في جلب الأذىٰ لها. لكن كما قلنا: إنّ هذا الإجراء مبرّر بما هو أهم من سبي العائلة وأوجه من تعرّضها للأذىٰ، وبما هو موازٍ لذلك الأذىٰ فيما لو خلفهم في المدينة المنوّرة، ومن هذه الأسباب:

---

(١) فقد أفتىٰ الشيخ نوح الحنفي في حلب مثلاً بإباحة دماء الشيعة، وباستحلال فروج نسائهم، ونهب أموالهم. خاتمة مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١٥٩، الكنى والألقاب ٢: ٣٣١.

(٢) مع أن الأشعري يقول: «أنا لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة؛ فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ لأن الكلّ يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات». السنن الكبرى ١٠: ٢٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٨، ثم قال الذهبي: وبنحو هذا أدين. وحول هذا انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ١٥ / ٦٢٦٨.

وهذه الظاهرة امتدّت إلى المذاهب كافّة، فمثلاً يقول الحافظ أبو حاتم بن خاموش: كلّ من لم يكن حنبليّاً فليس بمسلم. انظر: تذكرة الحفّاظ ٣: ١١٨٦، سير أعلام النبلاء ١٧: ٦٢٥، ١٨: ٥٠٨. ويقول: عبد الله بن محمد بن عقيل الباوردي ـ وكان من بقايا الصحابة على رأي الذهبي ـ: من لم يكن معتزليّا فليس بمسلم. ميزان الاعتدال ٢: ٤٩٨ / ٤٥٨٣، لسان الميزان ٣: ٣٥٣ / ١٤٣٠.

الأوّل: أنّ الأُمويين سيعتقلونهم ولو لم يخرجوا

إنّ أوّل الأسباب التي حدت بالإمام الحسين عليه السلام أن يخرج عائلته معه هو علمه المسبق ومعرفته بأنّ الأُمويين سيعتقلون عائلته حتى ولو لم يخرجهم معه. والأُمويون هذا شأنهم، فقد كبسوا على عائلة عمرو بن الحمق الخزاعي بيتهم، وكذلك دار سعد بن أبي سرح، فكيف سيكون الأمر مع عائلة من خرج ثائراً على دولتهم وسلطانهم؟ فهو عليه السلام يعرف أنه لو ترك عائلته في مدينة جدّه لكان مصيرها الاعتقال والسبي، فالأمر سيان؛ خرجوا معه أو بقوا في المدينة.

الثاني: إبراز دور المرأة في معركة الطفّ

ثم إنّ سيد الشهداء عليه السلام كان ينظر إلى أمر هو أبعد من مرمىٰ نظر القاعدين غيره ممّن يعترضون على إبراز بنات الرسالة معه إلى المعركة، فهو عليه السلام يريد أن يبرهن على أن المرأة التي يربيها الإسلام لا تقل خطراً وصلاحية عن الرجل فيما يمكن أن يضطلع به ويقوم بتنفيذه. فهذه المرأة المسلمة إذا وضعت في الأجواء التي يريدها الإسلام فإنها ستُلفىٰ طاقة تتفجّر. وهكذا كانت الحوراء زينب (سلام اللّه عليها)، فقد كانت طاقة متفجّرة لا حدود لها، ولا تخشىٰ الظالمين ولا تخاف من قرع سياطهم، وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أخرجها معه لمعرفته بما يمكن أن تقوم به من دور بعد استشهاده.

ثم إنه عليه السلام يريد أن يبرهن خطأ ما في أذهان البعض من الناس من وهم أن المرأة لا تستطيع أن تقوم بالأعمال التي يقوم بها الرجل. وهذا ما قامت به زينب عليها السلام وأخواتها، حيث قمن بأداء هذه الأدوار على أتم وجه وأكمل صورة.

الثالث: أن تكون الواجهة الإعلامية لمرحلة ما بعد الثورة

وكذلك من دواعي إخراج الإمام عليه السلام عائلته معه وزينب بالذات أن يكنّ اللسان المعبّر لنهضته عليه السلام بعد الثورة. وهذا أمر ضروري جداً، لأنّ الإعلام الأُموي إبّان

الثورة الحسينية المباركة وبعدها كان في أوج قوّته ونشاطه وشدّته. وفعلاً انخدع المغفّلون بما وصفوهم به من أنهم خوارج بغاة على إمام زمانهم.. أُدخلت العائلة الهاشمية في أسوأ حال إلى مجلس يزيد وهم ينعتونهم بالخوارج، وكان عنده رسول قيصر، وكان من أشراف الروم وعظمائهم، فلمّا أُتي برأس الحسين عليه السلام سأله قائلاً: هذا رأس من؟ فقال له يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. فقال الرومي: ومن أُمّه؟ فقال: فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال النصراني: أُفّ لك ولدينك، لي دين أحسن من دينكم.

ثم قال ليزيد: هل سمعت حديث كنيسة الحافر؟ فقال له: قل حتى أسمع. فقال: هي كنيسة في محرابها حقّة ذهب معلّق فيها حافر يقولون: إن هذا حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وقد زيّنوا ما حول الحقّة بالديباج، ويقصدها في كل عام عالم من النصارى ويطوفون حولها ويقبّلونها، ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى عندها، هذا شأنهم ورأيهم بحافر حمار يزعمون أنه حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم؟ فلا بارك الله تعالى فيكم ولا في دينكم. فقال يزيد: اقتلوا هذا النصراني لئلّا يفضحني في بلاده. فقُتل [1].

فهذا الرسول يريد أن يبيّن له أن بيت النبي صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يفرز خوارج.

إذن كان مراد الإمام عليه السلام من زينب أن تكون الصوت المعبّر لأهداف الثورة

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٠ - ١١٢، ينابيع المودّة ٣: ٢٩، وكان قد قال له من ضمن ما قال: إن أبي من حوافد داود عليه السلام، وبيني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظّمونني ويأخذون من تراب قدمي تبرّكا بأني من حوافد داود عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم، وما بينه وبين نبيّكم إلّا أُم واحدة؟ فأي دين دينكم؟ ثم إنه بعد أن أمر به فقتل، قال له: اعلم أني رأيت البارحة نبيّكم في المنام يقول لي: يا نصراني، أنت من أهل الجنّة. فتعجّبت من كلامه، وإني أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله. ثم وثب إلى رأس الإمام الحسين عليه السلام فضمّه إلى صدره وجعل يقبّله ويبكي حتى قتل.

وعنها؛ لأنّها أهل لذلك، ولأنّها الامتداد الطبيعي لموقف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولأنها صوت الإسلام كلّه، ولأنّه لا سبيل إلى بلوغ ذلك ـ نشر أهداف الثورة ـ إلّا باللسان المعبّر الذي لا يحصر ولا يعتريه العيّ.. لسان أمير المؤمنين عليه السلام الهادر كالسيل حتىٰ وإن كان مصير ذلك هو القتل، وحتىٰ لو ترتب على أداء هذا الدور وهذه الرسالة السبي والضرب؛ لأنّ الحسين عليه السلام ينتمي لموكب الشهداء.. إلى الألسن المعبّرة عن رسالة الإسلام، وكذلك أهله.

وآباء الإمام الحسين عليهم السلام لم يمت منهم أحد على فراشه[1]؛ فأبوه عليه السلام قد قتل، وأعمامه قتلوا وإخوانه وأبناء أعمامه وأبناؤهم كلهم قتلوا في ساحات الشرف والدفاع عن الإسلام ورسالته. يروى أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان كثير البكاء، وكلما ذكر واقعة الطف اشتدّ حزنه وزداد بكاؤه، فدخل عليه أبو حمزة وقال: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل وأباك عليه السلام قتل، فقال له: «**شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، ولكن واللّه ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خباء، ومن خيمة إلى خيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين**».

وفعلاً كانت مواكب الشهداء تزدهر بنجوم أهل بيت النبوّة، وكانت قوافلهم متوّجة بشهدائهم وأبطالهم، فأناروا للإنسانية طريقها، وصنعوا لواءً يرفرف للأحرار في كل مكان وزمان:

فدمٌ أَرَقتَ كأنه من جِدَّةٍ ... لِلآن يعبِقُ بالثَّرىٰ ويُخَضِّبُ

وتَركتَ للأجيالِ حِينَ يَلُزُّهَا ... عَنَتُ السُّرىٰ ويَضَيقُ عَنها المَهرَبُ

---

(١) يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أكرم الموت القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليَّ من ميتة على فراش». نهج البلاغة / الكلام: ١٢٣.

جُـثَثَ الضَّـحَايَا مـن بَـنيكَ تُـريهُمُ　　أنَّ الحُـــقُوقَ بِـــمثلِ ذلكَ تُـطلَبُ

فقافلة شهداء البيت الهاشمي وموكب شهداء البيت النبوي المطهّر وضعت دماءها على أكفّها وبين يدي اللّه لتريقها في سبيله، وهي قافلة اختطّت التضحية من أجل إبلاغ رسالة الإسلام:

أترعتني دنياك حتى إذا جئـ　　ـت أُناجيك أجفلت ألواحي

وتهاوى شعري أمام خطيب　　عبقري أقمته من جراحي

لم تفجّر لظاك يهدر بالحـ　　ـقّ لتروي قرائح المدّاحِ

رُدّنا إننا ظِماء إلى طـ　　ـفّ جديد يعيدنا للكفاحِ [1]

غريب طوس عليه السلام

سيدي يا أبا الجواد ويا بن الـ　　ـحبر موسى ويا مناط الرجاءِ

يا مقيماً بقلب كل محبّ　　ولوَ ان المدى بعيدٌ ناءِ

يا بن أصلاب من أعزّ رجال　　وابن أرحام من أعفّ نساءِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: في ولادته الكريمة ونشأته

ولد الإمام الرضا عليه السلام سنة مئة وثمانية وأربعين للهجرة، ومجموع عمره الشريف خمس وخمسون سنة؛ لأنّه توفي عام مئتين وثلاثة للهجرة، وهو بمقدار عمر أبيه الإمام الكاظم عليه السلام. وكانت ولادته في المدينة المنوّرة في دارهم المعروفة بالعريض، وأُمّه أُمّ ولد نوبية يقال لها أروىٰ، وتلقّب بشقراء، يقول هشام بن أشقر:

(١) ديوان المحاضر ٢: ١٨.

قال لي أبو الحسن الأول عليه السلام: «**هل علمت أحدا من أهل المغرب قدم؟**». قلت: لا. قال: «بلى، قد قدم رجل من أهل المغرب المدينة، فانطلق بنا». فركب وركبت معه حتى انتهينا إلى الرجل، فإذا رجل من أهل المغرب معه رقيق، فقلت له: اعرض علينا. فعرض علينا سبع جوارٍ، كل ذلك يقول أبو الحسن عليه السلام: «**لا حاجة لي فيها**».

ثم قال: «**اعرض علينا**». فقال: ليس عندي إلا جارية مريضة. فقال له: «**ما عليك أن تعرضها؟**». فأبى عليه، فانصرف ثم أرسلني من الغد، فقال لي: «**قل له: كم كان غايتك فيها؟ فإذا قال لك: كذا و كذا، فقل: قد أخذتها**». فأتيته فقال: ما كنت أُريد أن أُنقصها من كذا وكذا. فقلت: قد أخذتها. قال: هي لك، ولكن أخبرني من الرجل الذي كان معك بالأمس؟ قلت: رجل من بني هاشم. قال: من أي بني هاشم؟ فقلت: ما عندي أكثر من هذا. فقال: أُخبرك أنـي اشتريتها من أقصى المغرب، فلقيتني امرأة من أهل الكتاب، فقالت: ما هذه الوصيفة معك؟ قلت: اشتريتها لنفسي. فقالت: ما ينبغي أن تكون هذه عند مثلك، إن هذه الجارية ينبغي أن تكون عند خير أهل الأرض، فلا تلبث عنده إلا قليلاً حتى تلد غلاماً لم يولد بشرق الأرض و لا غربها مثله. قال فأتيته بها، فلم تلبث عنده إلّا قليلاً حتى ولدت الرضا عليه السلام[1].

لماذا الزواج من الجواري والسراري

إذن كان الإمام الرضا عليه السلام ابن جارية، وهذه الظاهرة ليست غريبة، ولا فريدة في تاريخ أهل البيت عليهم السلام، والزواج من الجواري من الأُمور التي دعا إليها الإسلام وحثّ على فعلها. وهناك عدّة أهداف يرمي إليها الإسلام من وراء تزوّج الجواري

(١) الإرشاد ٢: ٢٥٤ ـ ٢٥٥، مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٦٣.

والسراري، وهذا هو الذي يفسر لنا سرّ إقبال أهل البيت عليهم السلام على الزواج من الجواري، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأوّل: كسر نظرة التعالي عند العرب لغيرهم من الشعوب

وإنّما قلنا: إنها ظاهرة ليست غريبة في حياتهم عليهم السلام؛ لأن غيرهم سيستغربها حقّاً، فالعرب كانوا يحتقرون ابن الجارية ويعتبرونه هجيناً، وهي نظرة جاهلية لا تنسجم مع العقل ولا مع الشرائع السماوية، وإنما تنسجم مع التقاليد. فالعقل يقول غير ذلك؛ لأن هذه الجارية ربما كانت تتحدّر من حضارة أضخم من حضارة العرب آنذاك. هذا من ناحية العقل، أما من ناحية الإسلام فإنّه دين سماوي عالمي ورسالة عامّة، ويريد أن يجعل الشعوب مندمجة مع بعضها بلا فرق بين هذا الشعب وذاك بالعرق والقومية أو اللون أو المنطقة الجغرافية. وهذا أوّل أهداف الإسلام.

الهدف الثاني: تخفيف وطأة الفتح على أبناء البلاد المفتوحة

فالإسلام يريد بهذا أيضاً أن يخفّف من وقع الفتح ووطأته على نفوس أبناء البلاد المفتوحة التي لم يسلم الإسلام من بقايا عقد ضدّه ظلت راسخة في نفوس أهلها؛ كونه فتح بلادهم وغيّر نظام الحكم والسلطة والقوانين وأثّر في حضاراتهم. وهذا الشيء بطبيعة الحال ليس سهلاً عليهم أبداً.

ولو رجعنا إلى الحروب الحديثة في تاريخنا المعاصر كالحرب العالمية الثانية لوجدنا أن الدول أو المدن التي احتلّها الحلفاء لم تستقر إلى أن رجع المحتلّ عنها، كألمانيا على سبيل المثال، فليس سهلاً أن يأتي المحتلّ إلى بلد فينظر له الناس فيه نظرة طبيعية، إنّ الشعوب تنظر إلى المحتل نظرة متشنجة. وهذا ما دفع الإسلام إلى وضع مجموعة نظم في التعامل مع هذه الشعوب تهدف إلى امتصاص هذه النظرة

المتشنجة إن لم نقل: اجتثاثها.

ومن هذه الطرق فتح باب الزواج من الجواري والسراري على مصراعيه، وهو نظام دفع المسلمين إلى الزواج من أكبر قدر من نساء هذه البلاد المفتوحة بوجه شرعي وسليم، ممّا أدّى إلى اختلاط الدماء والتدرّج في القضاء على نظرة التعالي التي كان العرب ينظرون بها إلى أبناء الشعوب الأُخرى. وبهذا أصبحنا نرىٰ الكثير من أشراف القوم وأُمهاتهم غير عربيات، فهذا أُمّه روميّة وذاك صقلّية والثالث فارسية، فالتقت الشعوب مع بعضها واندمجت بالمصاهرة، وأصبح الاتّصال قائماً بين الأُمم على مختلف أجناسها وألوانها وأعراقها؛ مما أدّىٰ إلى امتصاص النقمة.

الهدف الثالث: إيجاد حالة من التلاقح الفكري

والهدف الآخر الذي يسعى إليه الإسلام الحنيف من وراء حث المسلمين على الزواج من الجواري هو تسهيل عملية التبادل والتواصل الفكريين بين الشعوب المتصاهرة؛ لأن امتزاج الدماء يسهّل عملية التبادل بالأفكار بين الطرفين، ويقرب ما بينها؛ إذ أنه سيكون بينهما تزاور وتبادل علاقات، وبالتالي تحصل عملية نقل الأفكار والحضارات من شعب إلى شعب[1].

إذن عملية التزاوج تلعب دوراً مهمّاً في إحداث حالة من الانسجام والتبادل الفكري وكسر حاجز الترفّع بين الشعوب المتصاهرة، وهذا ما حصل فعلاً؛ وهو الذي دفع بالاسلام كما قلنا إلى وضع هذا التشريع.

بيع الرقيق

ويبقىٰ هنا سؤال لابدّ من إثارته وطرحه ثم مناقشته لتتّضح وجهة نظر الإسلام

(١) انظر هذا المطلب كاملاً في محاضرة (قبسات من حياة السجاد عليه السلام) في ج ٤ من موسوعة محاضرات الوائلي.

حيال مسألة الرق. هذا السؤال يطرحه البعض من المثقفين وربما الكثير منهم بصورة متشنّجة، وهو: هل إنّ الإنسان حيوان حتى يباع ويشترىٰ في الأسواق؟ وإن كان أرفع من الحيوان، فلماذا تباع الجواري إذن، مع أنها إنسان، والإنسان له كرامة يجب أن تُحفظ وتصان؟

والجواب عن هذا التساؤل أن نقول: إن الإسلام لم يستهدف إذلال الآدمي، بل إنّه استهدف رفع منزلة الشعوب وتعظيم كرامتهم بدعوته إياهم إلى الدخول فيه. ثم إنّه لم يقاتل هذه الشعوب مباشرة، بل إنّه كان يخيّرها قبل القتال بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينها مع دفع الجزية؛ لأنّه يريد أن يبسط حمايته عليهم. ومعنى هذا أنه وسّع دائرة الاختيار لهذه الشعوب قبل أن تختار القتال، فإذا دخلت هذه الشعوب في الإسلام فقد حلّت المسألة ولم يبقَ هناك أي مجال للسبي واقتياد الجواري وغير ذلك، وأصبح هذا البلد إسلامياً له ما لجميع البلاد الإسلامية من حقوق وعليه ما عليها من واجبات. ومع رفض هذا البلد الإسلامَ واختيارهم البقاء على دينهم، فإنهم يسمح لهم بذلك لكن بشرط المواطنة الصالحة؛ وهي أن يذعنوا لقانون الإسلام، ويدفعوا الجزية التي هي مبلغ رمزي كي يأخذ مقابلها كل الحقوق التي يأخذها المسلم.

الإسلام يسهّل باب العتق

إذن المراد بهذه العملية هو ترويض من يرفض أن يدخل في الإسلام أو يرفض أن يكون مواطناً مسلماً صالحاً. ولذا فإنّ الإسلام عمد إلى كسر هذه الحالة من التمرّد الأهوج، ثم بعد ذلك فتح باب تحرير هؤلاء وعتقهم على أوسع مجالاته. ويكون هذا العتق بعدة أُمور منها:

أوّلاً: الحث على عتقهم لوجه اللّه

فهناك الكثير من الحث على عتق هؤلاء طلباً لثواب اللّه تعالىٰ واكتساباً

لمرضاته[1].

ثانياً: انعتاق أمّ الولد

فهؤلاء الجواري حينما يحملن من مالكهين فإنهن ينعتقن تلقائياً بمجرد موت المالك؛ حيث إنهن يحتسبن حينها من نصيب أبنائهن. ومعنى هذا أن ملكيتهن تصبح متزلزلة بمجرد أن يبين حملهن، وتسمى حينئذٍ أم ولد.

المبحث الثاني: ألقاب الإمام الرضا عليه السلام

وبعد أن وضعت أروىٰ (رضي اللّه عنها) مولودها الكريم المبارك، أسماه الإمام الكاظم عليه السلام بأحبّ اسم، وهو اسم عليّ الذي كان أهل البيت عليهم السلام يحرصون على التسمّي به؛ لأنّه اكتسب مكانة ممّن سمي به، وهو أمير المؤمنين عليه السلام. ولقب عليه السلام بألقاب عدة منها الوفي والصابر والسلطان والرضا، وهو أشهرها:

---

(١) فعن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل: فتاتي وغلامي».مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣١٦، مسند أبي يعلى ١١: ٤٠٥ / ٦٥٢٩.

وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يجمع غلمانه في ليلة العيد فيعتقهم، ثم يطلب منهم ليدعوا له، ويقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا». الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

وعن ابن مسعود قال: كنت أضرب عبدي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي، وإذا هو رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «اعلم أبا مسعود، أن اللّه أقدر عليك منك علىٰ هذا الغلام». فقلت: يا رسول اللّه، هو حرّ لوجه اللّه. فقال صلى الله عليه وآله: «أما لو لم تفعل للفحتك النار». مسند أحمد ٥: ٢٧٣ ـ ٢٧٤، صحيح مسلم ٥: ٩١ ـ ٩٢، مسند أبي داود٢: ٥٠١ / ٥١٥٩.

وقال صلى الله عليه وآله: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه». سنن أبي داود ٤: ١٧٦ / ٤٥١٥، سنن الدارمي ٢: ١٩١، الجامع الصحيح «سنن الترمذي» ٤: ٢٦ / ١٤١٤.

ومن ذلك سن تشريع المكاتب والمدبّر، وجعل كفّارة الكثير من الجرائر عتق رقبة مؤمنة، كل ذلك للقضاء على آفة الرقّ.

الصابر

ولقب الصابر جاء من صبره في مواقف صعبة جداً يصعب معها الصبر على من هو غيره، وكما سيمرّ بنا إن شاء اللّه تعالى خلال الأبحاث القادمة. فالإمام عليه السلام كان مثال التصبّر والتجلّد، ولم يُبدِ تأثّراً أو تألّماً مطلقاً.

الوفي

وهو لقب استحقّه بجدارة وأهلية تامة، لأنّه عليه السلام كان بحق وفيّاً لرسالته المناط به أداؤها، ولدوره الذي تحمّل عبء القيام به كما هو شأن آبائه وأبنائه الطاهرين المنتجبين عليهم السلام.

الرضا

ويراد به رضا اللّه في أرضه ورضا الناس عنه في الدنيا؛ لأنّه عليه السلام نادراً ما واجه معارضة في ولاية العهد التي قبلها. وكان الأعمّ الأغلب يرىٰ أنّ هذا المنصب هو دون منصب الإمامة، وهو كذلك فعلاً وبكثير.

السلطان

وهو أبرز الألقاب بعد لقب الرضا، وقد ورد في الزيارة الشريفة خاصّته: «**السلام عليك أيها السلطان علي بن موسى الرضا**». ونجد هناك إصراراً من البعض على هذا اللقب مع أنه لا يعني شيئاً له عليه السلام، فمروان بن الحكم صار سلطاناً، وكذلك يزيد صار سلطاناً، وكذلك أمثالهما. فالإمام عليه السلام لا يزيده شيئاً كونه سلطاناً؛ فيكفي أن يقال عنه: الرضا، الوفي، الصابر، وغيرها من الألقاب الدينية الشريفة، ومثل هذا اللقب لا يقدم شيئاً للإمام عليه السلام ولا يؤخّر عنه شيئاً.

المزايا المجعولة والمنجعلة

إن العلماء يقسمون المزايا إلى قسمين: مجعولة ومنجعلة، وهذا اللقب داخل

ضمن المزايا المجعولة. وسنجمل هذه المزايا بالآتي:

المزايا المجعولة

وهي المزايا التي تأتي من خلع أحد على أحد آخر لقباً من قبيل وزير أو قائد أو عقيد، أو غير ذلك من ألقاب السلطة. وهذه الألقاب (المزايا) مرتبطة عادة بالمهنة، فإذا أُبعد الملقّب بها عن منصبه فقد ذلك اللقب وذهب عنه، وإن كان البعض يستمرّ معه لقبه، لكن تجوّزاً وليس حقيقة؛ لأنّه لقب مجعول ينفك عن صاحبه بمجرد تركه داعيه أو السبب له وهو المنصب أو المهنة.

المزايا المنجعلة

أما المزايا المنجعلة، فهي المزايا التي تعدّ من الملكات الروحية التي لا تنفك عن صاحبها ولا تفارقه، ولا يمكن أن يسلبه أحد إيّاها. وذلك مثل لقب عالم أو إمام حقّ، فلا يمكن أن يقول أحد أنّ فلاناً بعد موته لا يمكن أن يسمىٰ عالماً أو الإمام كذلك، يقول الشاعر:

إن الأمير هو الذي ... يُمسي أميراً يوم فَصلهْ
إن زالَ سُلطانُ الولا ... يةِ لم يَزُل سُلطانُ فضلهْ

إذن الفضل والعلم من الصفات الملازمة للإنسان ولا يمكن أن ينفكّا عنه.

وهذا ما ينطبق على الإمام الرضا عليه السلام؛ فليس شيئاً ذا شأن أن يقال عنه: سلطان ـ كما مرّ ـ وهو لقب مجعول. فصفاته الشريفة الأُخرى وألقابه الكريمة المنجعلة أحقّ أن يوصف بها وأن ينعت ويلقّب؛ لأنّها مشتقّة من ذاته الشريفة المباركة، أمّا لقب السلطان فهو لقب يمقته الإمام عليه السلام؛ لأن الظروف السياسية وضعته أمام الأمر الواقع، وأدّت به إلى قبول هذا اللقب، وليس عن رضا نفس أو قناعة به. فهو لقب ـ كما مر ـ لا يقدم ولا يؤخّر في حقّ الإمام عليه السلام.

ثم إنه صحيح أنّ بعض الناس يرفع من قدره السرير لكن البعض الآخر لا يؤثر فيه السرير رفعة ولا مقاماً؛ لأنّه بلغ الغاية القصوىٰ والشأو الأبعد في الكمال والمنزلة. سئل أحمد بن حنبل بعد أن طال النقاش عنده حول أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته، فقال: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة»(١). وهنا يخاطبه أحد الأُدباء بقوله:

إنــي أتــيتُك أجـتليك وأبـتغي	**وِرداً فـعندك لـلعطاش مـعينُ**
وأغضُّ من طرفي أمام شوامخٍ	**وقــع الزمــان وأُسُّــهُنَّ مـتينُ**
وأراك أكـبرَ مـن حـديث خـلافةٍ	**يســتافُها مــروانُ أو هــارونُ**
لك بـالنفوس إمـامةٌ فـيهونُ لو	**عصفت بك الشورى أو التعيينُ**
فـدع المـعاول تـزبئرّ قسـاوة	**وضــراوة إن البــناء مـتينُ(٢)**

إذن أهم ألقاب الإمام عليه السلام هو الرضا، وهو أشهرها وأحبّها إلى نفسه الكريمة.

المأمون يجمع له علماء دار الخلافة

وهكذا كان الإمام عليه السلام يجلس متصدياً لأسئلة الناس، حتى إن المأمون جمع له جماعة من علماء الأديان ليناظروه، وراحت الأسئلة تنهال على الإمام عليه السلام، فأجابهم جميعهم، حتى إن المؤرّخين يقولون: ما تلكّأ في جواب قط. وهكذا كان عليه السلام يتصدّىٰ للإجابة على جميع الأسئلة الفقهية وغير الفقهية.

جوابه عمن سأله عن معنى الجواد

وقف أحدهم للإمام عليه السلام في الطواف وقال له: من الجواد؟ فقال عليه السلام: «**إن**

---

(١) الهداية الكبرى: ١٢، شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٤٦، تاريخ بغداد ١: ١٤٥.
(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

لكلامك وجهين: فإن كنت تسأل عن المخلوقين، فإن الجواد الذي يؤدّي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع؛ لأنه إن أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإن منعك منعك ما ليس لك»(١).

ذلك أنّ اللّه تعالى عندما يمنع عطاءه عن بعض الناس فإنما يمنعه لمصلحة اقتضتها حكمته وارتأتها مشيئته، كأن يريد أن يربيهُ؛ فبعض الناس إذا أُعطي أفسد. ونحن نخاطب اللّه عزّ وجلّ في دعاء الافتتاح فنقول: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأُمور» (٢).

ولأُقرب لك المعنى بأن أروي لك الحادثة التالية: كان أحد الصحابة ثقيل السمع، وكان من الفقراء، وكان يحرص على أن يجلس إلىٰ جانب النبي ﷺ؛ كيلا يفوته شيء من كلامه، وكان قيس بن ثابت من وجهاء الأنصار، وقد دخل يوماً علىٰ النبي ﷺ، وشقّ طريقه إليه كي يجلس إلىٰ جانبه ويستمع إليه أيضاً، وكان يظن أن هذا الفقير سوف يتنحّىٰ له عن مكانه ويتركه من أجله؛ لأنه يظن أنه أفضل منه باعتباره غنياً ووجيهاً، وهذا من عائلة فقيرة، لكنه لم يفعل؛ اعتزازاً بقرب مكانه من النبي ﷺ، فقال له قيس: يابن فلانة، أقف عليك ولا تقوم؟

فآذت هذه الكلمة النبي ﷺ؛ لأن العرب كانوا يقصدون من تسمية الشخص باسم أُمّه في مثل هذه المواقف تحقيراً له، فلما فرغ ﷺ من كلامه ناداه فأقبل، فقال ﷺ له: «**انظر، ماذا ترىٰ في المجلس؟**». قال: أرىٰ الأحمر والأبيض والأسود. قال النبي ﷺ: «**إنك لا تفضل علىٰ أحد منهم إلّا بالتقوىٰ والعمل**

---

(١) مشكاة الأنوار: ٤٠٧، تحف العقول: ٤٠٨.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

الصالح». فقال: يا رسول اللّه أخطأت، وسأُعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادىٰ النبي ﷺ الرجل الأوّل وقال له: «**سمعت ما قال أخوك، هل ترضىٰ عنه ويعطيك نصف أمواله؟**». قال: روحي فداك، بل أرضىٰ عنه من غير هـذا. قـال النبي ﷺ: «**لماذا؟**». قال: أخشىٰ أن يدخلني ما دخله[1].

وهذا هو موضع الشاهد، وهو أنّ الإنسان حينما يمتلك ثروة أحياناً فإنّه يطغىٰ في الأرض ويفسد، وقد تقضي على أخلاقه التي هي أهم مـن الثـروة بـالنسبة للرجل، لكن الأخلاق تبقىٰ ميزة متصلة بالإنسان لا تبتعد عنه.

إذن كان الإمام عليه السلام يقول: إنّ اللّه تعالى جواد سواء أعطىٰ أو منع؛ لأنّه لا يريد من وراء عطائه أو منعه مصلحة ما، وأجوبته عليه السلام كلها من هـذا النـوع. وكـان عليه السلام يستشهد بما يرويه عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **قال الله عز وجل: ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي، ومـا عـرفني مـن شـبّهني بخلقي** »[2].

فالقرآن الكريم لا يـمكن أن يـفسّر بـالرأي؛ لأنّ التـفسير بـالرأي بـإجماع المسلمين باطل، أمّا التفسير القائم على أساس الوسائل العلمية فهو تفسير مقبول ولا بأس به.

ويقول ﷺ عن الله تعالىٰ: « **ما على ديني من استعمل القياس في ديني** »[3].

يعني بهم هؤلاء الذين يستعملون القـياس دون أن يكـون مسـتنداً إلى عـلة معروفة صحيحة. ومثال ذلك أن يعمد أحد إلى قياس مقاربة الأهـل فـي شـهر

---

(١) الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨، ولم يسميا قيساً.

(٢) التوحيد: ٦٨ / ٣٢، الأمالي (الصدوق): ٥٥ - ٥٦.

(٣) المصدر نفسه.

رمضان على تعمّد الأكل والشرب فيه أو بالعكس؛ بحجّة أنّهما كليهما من المفطّرات المنهيّ عنها والمبطلة للصوم. وهذا القياس باطل بالضرورة ومخطوء وغير مقبول؛ لأنّ اللّه عزّ وجلّ فرّق بين المتساويات وساوىٰ بين المتفرقات.

ولتوضيح هذا الأمر نقول: إنّ اللّه تعالىٰ جعل من نواقض الوضوء النوم والذهاب إلى الحمام (التخلّي)، وهما أمران متباينان لكنه تعالىٰ جمع بينهما، وكذلك لو سرق أحد ربع دينار من حرز فإنّ يده تقطع[1]، لكن إذا غصب أرضاً قيمتها مئة ألف دينار فإن يده لا تقطع، ويكون له حكم آخر[2]، والحال أنّ هاتين الحالتين متساويتان، لكن اللّه تعالى فرّق بينهما، إذن القياس لا يجري دائماً.

وقد ناقش الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة في القياس نقاشاً عسيراً[3].

---

(١) المقنع: ٤٤٤، الأُم ٤: ٣١١، ٦: ١٥٩. (٢) المراسم العلويّة: ٢٦٠.

(٣) علل الشرائع ١: ٨٦، الأمالي (الشيخ الطوسي): ٦٤٥، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٦، أخبار القضاة (محمد بن خلف بن حيان) ٣: ٧٨. وذلك أن أبا حنيفة دخل على أبي عبد الله عليه السلام فقال له: «يا أبا حنيفة، بلغني أنك تقيس». قال: نعم أنا أقيس. قال عليه السلام: «اتق الله ولا تقس؛ فإن أول من قاس إبليس حين قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢. فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نوريّة آدم بنوريّة النار عرف الفضل ما بين النورين، وصفاء أحدهما على الآخر. ولكن قس لي رأسك: أخبرني عن الملوحة في العينين، وعن المرارة في الأُذنين، وعن الماء في المنخرين، وعن العذوبة في الشفتين، لأي شيء جعل ذلك؟».قال: لا أدري. قال: فأنت لا تحسن أن تقيس رأسك، فكيف تقيس الحلال والحرام؟». قال: يابن رسول الله، أخبرني ما هو؟ قال عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ خلق العينين فجعلهما شحمتين، وجعل الملوحة فيهما ضنّاً منه على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا فذهبتا. وجعل المرارة في الأُذنين ضنّاً منه عليه، ولولا ذلك لهجمت الدوابّ فأكلت دماغه. وجعل الماء في المنخرين ليصعد التنفس وينزل ويجد منه الريح الطيبة من الريح الرديئة. وجعل العذوبة في الشفتين ليجد ابن آدم طعم لذّة مطعمه ومشربه».

ثم قال عليه السلام له: «أيما أعظم عند الله قتل النفس أو الزنا؟». قال: لا، قتل النفس. فقال له عليه السلام: «إن الله عز وجل قد رضي في قتل النفس بشاهدين، ولم يقبل في الزنا إلّا بأربعة. أيما أعظم

الجوانب الأخلاقية في حياة الإمامعليه السلام

وعلى العموم كان الإمامعليه السلام يتصدّىٰ دائماً إلى الإجابات العلمية، وكانت الأسئلة تنهال عليه، وكان يوزّع وقته بين الإجابة على الأسئلة العلمية وبين الإجابة على غيرها من الأسئلة. وإضافة إلى هذا كان بيته مأمناً للخائف، وكانت داره مرتاد الوّفاد. يقول الغفاري: كان لرجل من آل أبي رافع ـ ورافع هذا كان مولى رسول اللهصلى الله عليه وآله، وكان منهم كاتب عند أمير المؤمنينعليه السلام ـ علي حقّ، فألح عليّ في الطلب، فأتيت الرضاعليه السلام، وقلت له: يابن رسول اللّه؛ إن لمولاك فلان عليّ حقّاً، وقد شهرني.

يقول: وكنت آمل أنه يرسل خلفه من يأتيه به، وأمره بأن يخفّ طلبه ماله مني قليلاً، حتى ييسّر الله لي، لكنهعليه السلام طلب مني أن أنتظره في مكاني، ثم ذهب ولم يعد إليّ إلّا عند المغرب، وكنت صائماً، وقد أحسست بالجوع. فلمّا جاء قال لي: «**لعلك لم تأكل**». فقلت: نعم. فأخذني معه إلى منزله، ثم أمرني بالجلوس على الوسادة، فلما أكلنا وفرغنا قال: «**ارفع الوسادة وخذ ما تحتها**». فرفعتها فإذا بدنانير تحتها، فأخذتها، وأمر غلمانه بأن يوصلوني إلى بيتي، فطلبت منه أن أُرجعهم من مكان معلوم، ولمّا سألني السبب، أجبته بأني أخشى الوالي، فقبل.

فلمّا أتيت المنزل نظرت إلى الدنانير فإذا هي ثمانية وأربعون ديناراً، وفيها دينار يلوح، منقوش عليه: «**حق الرجل عليك ثمانية وعشرون ديناراً، وما بقي فهو لك**». ووالله لم أكن قد عرّفت ماله عليّ على التحديد[1].

☚ عند الله الصوم أم الصلاة». قال: لا، بل الصلاة. فقالعليه السلام: «فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة؟».

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٦، بحار الأنوار ٤٩: ٥٩ / ٧٦.

وهذا كان ديدن الإمام عليه السلام ـ ومن قبله طريقة آبائه وأجداده عليهم السلام ـ سواء في خراسان أو في أيام مكثه في المدينة المنوّرة؛ فهو عليه السلام معروف بعطائه المعنوي والمادّي والأخلاقي. يروي أحد المؤرّخين عن إبراهيم بن العباس أنه قال: «ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحداً بكلمة قطّ، ولا رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجله بين يدي جليس له قطّ، ولا اتّكأ بين يدي جليس قطّ، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قطّ، ولا رأيته بصق ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسّم. وإذا خلا ونصب مائدته أجلس معه عليها مماليكه وموإليه، حتى البوّاب والسائس.

وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أوّلها إلى الصبح، وكان كثير الصيام، فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول: «**ذلك صوم الدهر**». وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقه»[1].

فهذا الخلق العالي، وهذه التربية النبيلة السامية، وهذا الأُسلوب الكريم هو شأن أئمّة أهل البيت النبوي المطهّر عليهم السلام، فهم في حركاتهم وسكناتهم، وفي كلامهم وسكوتهم مادّة حيّة للدرس الأخلاقي والمعنوي والوعظي والإرشادي. وكان عليه السلام يقول: «**إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أُمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت**»؛ لأنه يترك هذه الدنيا الواسعة إلى قبر ومجموعة من الأحجار والصفائح، يقول الشاعر:

ومسنَّدين على الجُنوب كأنهم … شِرب تخاذل بالطلا أعضاؤهُ

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٧ – ١٩٩ / ٧.

تحت الصعيد لغير إشفاق إلىٰ يوم المعاد يضمّهم أحشاؤهُ

أَكَلتهُمُ الأرضُ التي ولدتْهُمُ أكلَ الضَّروس حلت له أُكلاؤهُ[١]

ويتابع عليه السلام موعظته فيقول: «**فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا. و قد سلّم الله عزّ وجلّ على يحيى عليه السلام في هذه الثلاثة المواطن، و آمن روعته، فقال: ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾**[٢]**، وقد سلّم عيسى بن مريم عليه السلام على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾**[٣]**...»**[٤]. وقد صوّر الله تعالى حال هؤلاء بقوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾**[٥].

فهو عليه السلام يقول: إنّ الإنسان أوحش ما يكون في هذه المواطن، ولذلك فإن اللّه سلّم على أنبيائه فيها

فكان الإمام عليه السلام يغتنم الفرص للدرس الأخلاقي والدرس الاجتماعي والدرس العلمي بفروعه كافّة، وكانت حياته عامرة بالتقوى، زاخرة بالإيمان، وكان لسانه يلهج بذكر اللّه، ويده متمرّسة بالعطاء، وروحه منفتحة عليه.

المبحث الخامس: الإمام عليه السلام وخلفاء عصره

لقد عاصر الإمام عليه السلام الفترة الأخيرة من خلافة الرشيد، ثم خلافة ابنه محمد الأمين، وكانت ثلاث سنوات وخمسة وعشرين يوماً، ثم خلع الأمين وأُجلس عمّه إبراهيم بن شكلة، وكانت بيعته أربعة عشر يوماً، عاد محمد بعدها إلى الحكم

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤.
(٢) مريم: ١٥.
(٣) مريم: ٣٣.
(٤) بحارالأنوار ٦: ٥٨ / ١٨.
(٥) يس: ٥٢.

حيث أُخرج من الحبس وبويع له ثانية، وجلس في الملك سنة وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ثم قتله طاهر بن الحسين الخزاعي وزير عبد اللّه المأمون الذي استلم الحكم بعده، والذي استشهد الإمام عليه السلام في عصره كما سيمرّ علينا [١].

من مغيّـباته عليه السلام

إخباره عليه السلام من رأىٰ رؤيا فيه أنه سيدفن في طوس

كان عليه السلام يخبر أصحابه بأنّه سيُستدعى إلى خراسان وأنه عليه السلام سيدفن فيها، جاءه عليه السلام رجل من أهل خراسان وقال له: يابن رسول الله، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام كأنه يقول لي: «كيف أنتم إذا دفن في أرضكم بضعتي، واستحفظتم وديعتي، وغيّب في ثراكم نجمي؟». فقال له الرضا عليه السلام: «**هل وعيت ما قاله النبي صلى الله عليه وآله؟**». قال: لا يابن رسول اللّه. فقال عليه السلام «**أنا المدفون في أرضكم، وأنا بضعة نبيّكم؛ فأنا الوديعة والنجم. ألا ومن زارني وهو يعرف ما أوجب الله تبارك وتعالى من حقّي وطاعتي، فأنا وآبائي شفعاؤه يوم القيامة، ومن كنّا شفعاءه نجا ولو كان عليه مثل وزر الثقلين: الجنّ والإنس. ولقد حدثني أبي عن جدّي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من زارني في منامه فقد زارني لأن الشيطان لا يتمثّل في صورتي، ولا في صورة أحد من أوصيائي، ولا في صورة أحد من شيعتهم، وأن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة**»[٢].

إخباره عليه السلام دعبلاً بذلك وإنشاده فيه شعراً

ولذلك فإنّه عليه السلام حينما دخل دعبل بن علي الخزاعي رضي الله عنه عليه بمرو قال له: يابن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨ - ٢٩.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٧ - ٢٨٨ / ١١.

رسول الله، إني قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي ألّا أُنشدها أحداً قبلك. فقال عليه السلام: «**هاتها**». فأنشدها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصاتِ

فلمّا بلغ إلى قوله:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً وأيديهُمُ من فيئهم صفراتِ

بكى عليه السلام وقال: «**صدقت يا خزاعي**». فلمّا بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدّوا إلى واتريهُمُ أكفّاً عن الأوتار منقبضاتِ

جعل عليه السلام يقلّب كفّيه وهو يقول: «**أجل والله منقبضات**». فلمّا بلغ إلى قوله:

لقد خفت في الدنيا وأيّام سعيها وإنّي لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال عليه السلام له: «**آمنك الله يوم الفزع الأكبر**». فلما انتهى إلى قوله:

وقبر ببغداد لنفس زكيّة تضمّنه الرحمن في الغرفاتِ
وقبر بأرض الجوزجان محلّه وقبر بباخمرى لدى الغرباتِ

قال عليه السلام له: «**أفلا أُلحقُ لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك؟**». فقال: بلى يابن رسول اللّه. فقال عليه السلام:

«وقبر بطوس يا لها من مصيبة توقّد في الأحشاء بالحرقاتِ
إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرّج عنا الهمّ والكرباتِ»

فقال دعبل: يابن رسول الله، هذا القبر الذي بطوس قبر من هو؟ فقال عليه السلام: «**قبري، ولا تنقضي الأيّام والليالي حتى تصير طوس مختلف شيعتي وزوّاري في غربتي، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً**

له»[1].

المأمون يأمر باستدعاء الإمام عليه السلام من المدينة المنوّرة

فالإمام عليه السلام كان يشير إلى ذلك المعنى الذي ذكرنا، وفعلاً استدعاه المأمون من مدينة جدّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله سنة (٢٠١)هـ ـ أي قبل وفاته الشريفة بسنتين وأشهر ـ حيث كان قد بعث الجلودي خلفه.

والجلودي هذا له مواقف شائنة وقاسية مع عائلة الإمام موسى الكاظم وعائلة الإمام الرضا عليهما السلام من بعده، وكان من أقسىٰ القوّاد، وصاحب تاريخ إجرامي مؤلم مع أهل البيت عليهم السلام، وقد أحرق دور آل محمد صلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة، وجاء إلى دار الإمام الكاظم وهو في السجن فأشعل فيها النار بأمر من الرشيد حيث إنه لما خرج محمد بن جعفر بن محمد بالمدينة بعثه الرشيد إليه وأمره أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهن إلّا ثوباً واحداً.

ففعل الجلودي ذلك، فخرج الإمام الرضا عليه السلام يتخطّىٰ النار ويقول: «**أنا ابن إبراهيم خليل الله، أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن محمد حبيب الله، أنا ابن عيسى روح الله**». حتى أطفأها، ولمّا نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلّهن في بيت، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن عليه السلام: لابدّ من أن ادخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين. فقال الرضا عليه السلام: «**أنا أسلبهن لك، وأحلف أني لا أدع عليهن شيئاً إلّا أخذته**». فقبل، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام، فلم يدع عليهن شيئاً ـ حتى أقراطهن وخلاخيلهن وأزرارهن ـ إلا أخذه منهن

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤ / ٣٤، كمال الدين وتمام النعمة: ٣٧٣ - ٣٧٦، دلائل الإمامة: ١٨٢، إعلام الورى: ٢٣٠.

وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير، فأعطاه إياه [١].

الموقف الإنساني للإمام عليه السلام مع الجلودي

والجلودي هذا على الرغم من إجرامه وبغضه لآل البيت النبوي الطاهر وشنآنه لهم كان للإمام الرضا عليه السلام بعد ولايته العهد موقف مشرّف معه، ذلك أنّ الجلودي أُدخل يوماً على المأمون وكان قد حبسه مع اثنين آخرين؛ لأنهم نقموا عليه أخذه البيعة للرضا عليه السلام، ولم يرضوا به. وفي اليوم التالي دعا المأمون بهؤلاء النفر فأُخرجوا من الحبس وأُدخلوا عليه، فأمر بقتلهم، وحينما جاء دور الجلودي وأُدخل على المأمون قال الرضا عليه السلام: «**هب لي هذا الشيخ**». وتشفّع له عنده، فقال المأمون: هذا الذي فعل ببنات محمد صلى الله عليه وآله ما فعل من سلبهن!

فلمّا نظر الجلودي إلى الرضا عليه السلام وهو يكلّم المأمون، ويسأله عن أن يعفو عنه ويهبه له، ظن أنه إنما يعين عليه لما كان فعله به وبعياله، فقال: يا أمير المؤمنين،أسألك بالله وبخدمتي الرشيد ألّا تقبل قوله فيّ. فقال المأمون: يا أبا الحسن، قد استعفى، ونحن نبرّ قسمه. ثم قال: لا والله، لا أقبل فيك قوله، ألحقوه بصاحبيه. فقدّم فضرب عنقه [٢].

والجلودي هذا هو الذي بعث به المأمون لإحضار الإمام عليه السلام، مع ما هو عليه من حقد وبغض ونصب لآل بيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فأحضره وأحضر معه مجموعة من آل أبي طالب؛ من جملتهم إسحاق ابن الإمام الصادق عليه السلام (عم الإمام الرضا عليه السلام)، وحملهم آخذاً بهم على طريق البصرة، فلما صاروا إلى فارس لقيهم رجاء بن الضحّاك وتسلّمهم من الجلودي، وجاء بهم إلى مرو، فأنزلهم المأمون في دار وأنزل الإمام الرضا عليه السلام في دار على حدة وأقبل عليه غاية الإقبال، ثم قال له

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧١ ـ ١٧٣. (٢) المصدر نفسه.

يوماً: يابن رسول الله، إني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك، وأُبايعك. فقال له الرضاﷺ: «**إن كانت الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك**».

فأصرّ المأمون وقال له: لا بد لك من قبول هذا الأمر. فقالﷺ: «**لست أفعل ذلك طائعاً أبداً**». فلمّا يئس من قبوله قال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحبّ مبايعتي لك، فكن وليّ عهدي؛ لتكون لك الخلافة بعدي. فقالﷺ: «**والله لقد حدّثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عن رسول اللهﷺ أني أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسمّ مظلوماً، تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأُدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد**».

فبكى المأمون، ثم قال له: ومن الذي يقتلك، أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي؟ فقال الرضاﷺ: «**أما إني لو أشاء أن أقول من الذي يقتلني لقلت**». فقال المأمون: إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس: إنك زاهد في الدنيا. فقال الإمام الرضاﷺ: «**والله، ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد**». فقال له المأمون: وما أُريد؟ قال الإمامﷺ: «**تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟**».

فقال: إنك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، فبالله أُقسم لابدّ من قبولك ولاية العهد. فقالﷺ: «**قد نهاني الله عزّ وجلّ أن أُلقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أني لا أُولّي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنّة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً**».

فرضي منه بذلك، وجعله ولي عهده [١].

وتم إعلان ولاية العهد للإمام الرضاعليه السلام، يقول أبو الصلت الهروي: وفي تلك السنة خُطب على المنابر باسم الإمام الرضاعليه السلام، ودُعي له، وضربت السكّة باسمه، وهي الدراهم المعروفة بالرضوية، وقام بين يديه الخطباء والشعراء، وخفقت الألوية على رأسه، فاستبشرت في ذلك اليوم، وقلت: حق من حقوق آل محمّد عليهم السلام عاد إليهم. فنظر إلي وانا مستبشر بما جرى، فأوما إليّ أن ادنُ، فدنوت منه، فقال لي من حيث لا يسمعه غيري: «**لا تشغل قلبك بهذا الأمر، ولا تستبشر؛ فإنه شيء لا يتمّ**» [٢].

يقول أبو الصلت الهروي: لما عزم المأمون على الذهاب إلى العراق والإمام معه، بدا لهم أن يدسّوا له السمّ، فدخل عليه رسول المأمون يستدعيه، فلما دخل عليه ناوله رمّاناً اعتصره بيده وكان قد دسّ فيه السم، أو عنقود عنب قد أكل نصفه وقد كان شرّبه بالسم، وقال للرضاعليه السلام: حمل إليّ هذا العنقود، فاستطبته، فأكلت منه وتركت هذا لك. فقال عليه السلام: «**أو تعفيني من ذلك؟**». قال: لا والله، فإنك تسرّني بما تأكل منه. فاستعفاه الإمام عليه السلام ثلاث مرات فلم يقبل منه، فأخذ عليه السلام منه ثلاث حبات فأكلها، فلمّا أحسّ عليه السلام بالسمّ يسري في بدنه، غطّى رأسه ونهض من عنده.

ولما أتى عليه السلام بيته دخل حجرته، وامتدّ على فراشه وهو يتألّم من حرارة السمّ، وأحسّ عليه السلام به يسري في بدنه، ومرّت به ساعات يمتزج فيها الألم بالشعور بالغربة والبعد عن الأهل، وفي الساعة التي دنا فيها أجله جلست عنده، ثم طلب مني أن أُسجّيَه إلى القبلة، فأسبل يديه ورجليه وفاضت روحه الطاهرة.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ١٢٥ – ١٢٨ / ١١٥.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٣، الخرائج والجرائح ١: ٣٥٢ – ٣٥٩.

وإذا المأمون قد وافى، وهرع الناس كلّاً ينادي: واسيّداه، واإماماه. وتصدّر المأمون تشييعه حتى جاؤوا به إلى قبره[١].

ونقول: لكن جدّه الحسين عليه السلام لم يشيّعه أحد، ولم يدفن لساعته، وقفت الحوراء زينب عليها السلام بعد وقعة الطف في اليوم العاشر من المحرّم وتلفّتت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟». يروي أبو الصلت فيقول: أمرني الرضا عليه السلام أن أُسرج في موضع غسله. ويعلله البعض بأن الروح تعود إلى موضع الجسد؛ فإن رأته مظلماً استوحشت، ولست أدري هل أسرجت الحوراء ليلة الحادي عشر من المحرّم مكان إخوتها وأبناء عمومتها أسرجة، أم بقيت مصارعهم مظلمة تلك الليلة، والأطفال يتصارخون في الظلماء؟

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينَها	رُعباً غَداةَ عَليها خِدرَها هَجموا
عجَّتْ بهم مُذْ على أبرادِها اختَلَفَت	أيدي العدوّ ولكن من لها بِهِمُ[٢]

قضايانا بين القرآن والموروث السلفي

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[٣].

مباحث الآية الكريمة

إن هذه الآية الكريمة تشتمل على مضامين عدّة، نذكر منها ما يتّسع له المقام كلّاً في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالىٰ:

(١) انظر روضة الواعظين: ٢٢٦ / ٨.
(٢) ديوان السيّد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.
(٣) التوبة: ٦٥.

المبحث الأوّل: نظرتنا الواقعية إلى عدالة الصحابة

وهذه الآية الكريمة من سورة براءة (التوبة)، وهي السورة التي يُسميها المفسّرون الفاضحة؛ لأنها سلطت الأضواء على سلوك كثير ممن عاصر النبيّ ﷺ وعاش ضمن نطاق الذين يُسمونهم المنافقين. فهذه الشريحة من الصحابة سلطت عليهم سورة التوبة التي منها آية المقام الأضواء، وفضحت اتّجاهاتهم وانحرافاتهم وتصرفاتهم وأعمالهم. وفي هذه السورة دلالة واضحة وبرهان قوي، بل أقوىٰ الأدلة وأصحّ البراهين على أنّ موضوع الصحبة هو موضوع غير عاصم لصاحبه، ولا يُعطيه مناعةً ضد النقد والتقويم كما يتصوّرها البعض؛ لأنّ النظرية السائدة أن الشخص بمجرد أن يعاصر النبيّ ﷺ ويكون إلى جانبه فإنّه يكتسب حصانةً ومناعةً تحول دون من يحاول أن يتعرض له أو يقدح فيه.

وهذا في الواقع خلاف منهج القرآن الكريم، وأُحبّ أن أُنوّه إلىٰ إنّه ينبغي ألّا يُفهم منا أن منهجنا هو اتجاه يرمي إلىٰ هدم عدالة الصحابة، أبداً؛ إذ أن جزءاً من الواسطة التي بيننا وبين رسول اللّه ﷺ يمرّ عبرهم. وفي الوقت نفسه فإن الصحابة عاشوا جوّاً لا يتيسر للآخرين أن يحصلوا على مثله؛ لما فيه من ألوان روحية صافية، لكن هذا لا يعني أنّ كلَّ من عاش في هذه الفترة ولو كانت ساعةً ـ كما يدّعيه البعض ـ أصبح معصوماً، ولا يمكن أن تناقش تصرّفاته كافّة، أو أن يتطرّق الشكّ إليه في سيرته أو إيمانه[1].

وهذا المقياس غير مقبول؛ لأنّه في حقيقته ضحك على العقول؛ فسيرة العقلاء تأبىٰ هذا، ولا يمكن الإقرار بأنّ كل من عاصر الرسول الأكرم ﷺ هو معصوم.

---

(١) وكأنه من حقّه أن يتّصف بأنه: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ الأنبياء: ٢٣.

وهؤلاء الذين عاصروا الرسول ﷺ هم من البشر شأنهم شأن غيرهم في كلّ ما هم فيه من إمكان الوقوع في الخطأ والمعصية؛ فإن ثبتت عدالته وثبت صلاحهُ كان موضع احترامٍ وتقديرٍ كبيرين؛ لأنّه قد اكتسب شرفاً كبيراً بصحبة النبيّ ﷺ التي يشترط فيها كما قلنا استقامة صاحبها وإيمانه ووثاقته وعدالته.

وهذا هو منهجنا الذي هو منهج القرآن ومنهج السنة النبوية الشريفة. ولو رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لوجدنا أنهما يُقيّمان الصحابة تقييماً موضوعياً عادلاً. ولو نظر أحد في كتب الصحاح سيما (صحيح البخاري) و(صحيح مسلم)، وبالذات أخبار الحبّ وغيرها، لوجد كيف أنّها تُصور لنا الصحابة. فمنهجنا لا يتعدىٰ هذا، وهو عين المنهج الذي رسمه كلّ من القرآن والسنة النبوية المطهرة بالنسبة إلى هذه الطائفة من الناس. والذي يتصور أن لدينا هدفاً نريد أن نهدم به عدالة بعض الصحابة فهو واهم مخطئ، فنحن نعتزّ غاية الاعتزاز بمن يرتبط بالنبيّ ﷺ برباط العقيدة والإيمان من قريبٍ أو من بعيد، بشرط أن يكون على سنّته وعلى هديه وسيرته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

إنّ سبب نزول هذه الآية الكريمة هو أنّ النبيّ ﷺ كان خارجاً إلى غزوة تبوك ـ وقيل: عند رجوعه من تبوك ـ وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين: اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك، وكانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم، ويفتح مدائنهم فما أبعده من ذلك، وأنه يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه.

فأطلع الله نبيه ﷺ على قولهم، بأن أهبط عليه جبرائيل عليه السلام وجلّى الصورة أمامه، فقال ﷺ: «**احبسوا على الركب**». فدعاهم وقال لهم: «**قلتم كذا وكذا**». فلمّا

فاجأهم رسولنا الأكرم ﷺ بهذا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي كنا نتحدّث ونخوض في الكلام، كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

والخوض هو أن تستنقع قدم الإنسان في مائع رطبٍ أو في طين. أمّا اللعب فهو عبارة عن إنزال النفس منزلاً على وجهٍ ينافي الحكمة؛ في سبيل أن ترتاد مسالك اللذة. فهؤلاء قالوا للنبيّ ﷺ: ﴿**إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾. وهذا المعنىٰ فيه استعارة، أي أنّهم يريدون أن يقولوا: إننا غير جادين في هذا الكلام، فردّ عليهم الرسول ﷺ قائلاً: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾ أي ألا يوجد عندكم ما تخوضون وتلعبون به غير مقدّساتكم؟

يقول عبد اللّه بن عمر: «كان أحدهم ويدعى وديعة بن ثابت[1] يشتدّ امام رسول الله ﷺ وقد أمسك بعقب ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكبه، وهو يقول: ﴿**إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾، ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾..».[2].

المبحث الثالث: أن المنافقين كانوا منهزمين من الداخل

ففي الآية الكريمة تصوير واضح لهذه الحالة التي كانت تتملك هؤلاء، وهي حالة تنافي ما كان يُريده الإسلام من الطبيعة التي يجب أن يكون عليها المسلمون، إذ أنه كان يعمد إلىٰ بناء المسلم بناءً قائماً على أساس التعبئة الداخلية. وهذه التعبئة السليمة هي الأساس الذي بُنيت عليه دولة الإسلام، وهي السبب الذي كنا نرىٰ عبره مبرّرات انتصار المسلمين في معاركهم ضدّ قريش وجبروتها وضدّ القوتين الكُبريين السائدتين آنذاك. فمن غير المعقول مثلاً أن ينتصر المسلمون في معركة بدر وهم ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً على جموع قريش

---

(١) في المصدر أنه عبد الله بن أبي.

(٢) مجمع البيان ٥: ٨١ – ٨٢، تفسير البغوي ٢: ٣٠٨، التفسير الكبير ١٦: ١٢٢ – ١٢٣.

وجبروتها وأسلحتها وحقدها، في الوقت الذي لم يكن لأصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله سوىٰ بضعة سيوف وبضعة نوق وبعض أسلحة بسيطة.

فانتصارهم هذا دون شك راجع إلىٰ التعبئة الإيمانية التي عبأهم بها الرسول صلى الله عليه وآله، والتي كانت تزلزل الأرض تحت أقدام الجبابرة بحيث إنها كانت بمقدارٍ لو أن أُمم الأرض تداعت عليهم من كلّ مكان لهزموها؛ لأنّ التعبئة النفسية هي الأساس الذي يحقق كلَّ نصر، وهي السلاح الأوّل الذي يجب أن يتسلح به المقاتل. ولو إننا رجعنا إلى العقيدة العسكرية عند الدول المعاصرة لوجدنا أن عندهم فرعاً من فروع علم النفس اسمه علم النفس العسكري، وفرعاً من فروع علم الاجتماع اسمه علم الاجتماع العسكري. ومهمة علم النفس العسكري هي تعبئة الفرد تعبئةً كاملة، فهي تزوّده بسلاحين:

الأوّل: التعبئة النفسية

وهي عملية يُهدف منها إلىٰ أن يؤمن هذا المقاتل بأن العسكر الذي سيقف قُبالته سينهزم أمامه؛ لأنّه كيان منخور ويعيش حالة من الهزيمة الداخلية، وهو عسكرٌ ليس لديه عقيدة بخلافه هو؛ حيث إنّه يمتلك عقيدة تؤهّله لأن يصمد بوجههم، وتُشعره بأنه ذاهب إلى اللّه دون أن يكون ذلك الشعور موجوداً عندهم: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾[1].

فهذه التعبئة تُقنعهُ بأنّه ذاهب إلىٰ الحياة الدائمة المليئة بالنعيم: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[2].

ظروف التعبئة النفسية في الإسلام

إن التعبئة النفسية في الإسلام تقوم على جملة من الأساسات منها: ﴿**وَلاَ تَهِنُوا**

(١) المؤمنون: ٣٧.
(٢) آل عمران: ١٦٩.

فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّـهِ مَـا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[1]، **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾**[2].
فهاتان وسيلتان من وسائل التعبئة التي اعتمدها الإسلام الحنيف ورسوله الكريم في تعبئة المسلمين ضدّ الكفر وأهله في مرحلة نشر الإسلام في الأرض. وهكذا فإن أوّل ما يُعبّأ به الجندي هو السلاح النفسي، حيث إنّه يُملأ إيماناً واعتقاداً بأنّه قادم على اللّه ومقبل على ساحته، وأنّه بهذا سينال رضاه وجنانه، ويُشبّع بفكرةِ أن هذه القضية هي قضيته، أو أنها لن تذهب سُدى.

ومعنى هذا أنّ اللّه تعالىٰ سيضمن له الخلود في الدنيا والآخرة؛ لأن الخلود في الدنيا كان يلعب عندهم دوراً كبيراً، وهنا نجد أن هذه التعبئة تقول له: إنك لن تفنىٰ، وإنّما ستنتقل إلى حياة اُخرىٰ. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنك ستأخذ جزاءك في الحياة الآخرة عن كلّ قطرة دمٍ سفك منك. ومن ناحية ثالثة إنك ستخلق العزّة لاُمّتك والمجد لأبناء دينك، وستترك لهم إرثاً كريماً مخلّداً. فكلُّ هذا ستحصل عليه عن طريق الشهادة.

فالتعبئة النفسية تتجه دائماً إلىٰ ملء هذا الفرد، وتقول له: إنك ستأخذ هذه المزايا جميعها؛ وعليه فأقدم ولا تُحجم؛ لأن إقدامك متعيّن في مثل هذه الموارد.

الثاني: التعبئة المسلّحة

ثم بعد هذا كلّه يأتي دور التعبئة المادية أو تعبئة السلاح، فمعلوم ما للسلاح من أهميّة ودور في تعزيز ثقة المقاتل بنفسه، وبتحقيق النصر عنده، لكن مع هذا تبقى للتعبئة النفسية أثرها الأكبر في خلق أجواء ذلك، فالمقاتل حينما يُسلّح من غير

(١) النساء: ١٠٤. (٢) آل عمران: ١٤٠.

عقيدة فكأنّه لم يُسلّح، يقول أحد الشعراء:

أيــها المســتعير ألف ســلاح لأعـــاديك كــل مــا تســتعيرُ

هزّك الذعـر لا الحـديد ولا النـا رُ وعبء على الوغـى المـذعورُ

أغــرور عــلى الفــرار لقــد ذا ب حــياءً مـن الغَـرور الغُـرورُ

القصور المحصّنات إلى الجبـ ـن حـماها خـورنق وسـدير

فالإنسان في الواقع حتىٰ لو زُوّد بأحدث الأسلحة وأعتاها لكن لم يُزود بعقيدةٍ عسكريةٍ قائمة على أساس التعبئة النفسية، ولم يكن لديه إيمان بقضيته التي يُقاتل من أجلها وبعدالتـها فـإنّه سـينهزم عـند أول مـعركة وفـي أوّلهـا، يـقول أمـير المؤمنين عليه السلام: «**ما لقيت أحداً إلّا أعانني علىٰ نفسه**»[1]؛ لأنّه يشعر بأنه سيقاتل علي بن طالب عليه السلام وهو مهزوم من الداخل، فقد كانت ضرباته عليه السلام بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ[2]، وبهذا كانت العرب تعتبر الفرار من الزحف عاراً إلّا من سيف علي عليه السلام. وكانوا يقولون: من يهرب من سيف علي بن أبي طالب، فلا تثريب عليه. وهذا عامل قوي، وهذا هو الاتّجار والنصر والفتح، يقول أحـد الأُدبـاء وكأنـه يخاطب الإمام علياً عليه السلام:

وعلى عـدوِّك يـابنَ عـمِّ مـحمدٍ رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ

فـــإذا تــنبَّهَ رُعــتَهُ وإذا غــفا سلَّت عليه سـيوفَك الأحـلامُ[3]

وهكذا نجد أن هذا اللون من التعبئة يلعب دوراً كبيراً في إحراز النصر وإلحاق

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٣١٨.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

(٣) البيتان لأشجع بن عمر، وقيل: لمروان بن أبي حفصة، قالهما في المتوكّل العباسي. مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧، ونسبهما البكري وابن عساكر لأشجع بن عمر في الرشيد، معجم ما استعجم ٢: ٥٨٤، تاريخ مدينة دمشق ٩: ١٠٧.

الهزيمة بالعدوّ، وهو اللون عينه الذي اعتمدهُ الرسول الأكرمﷺ في تهيئة جيوش المسلمين وإعدادها. وقد وصل الأمر حدّاً كان المسلمون معه واثقين بأنفسهم ومن انتصارهم حتىٰ قبل تسليحهم؛ لأنهم لم يكونوا يحملون سلاحاً كذلك السلاح الذي كانت تحمله الجيوش التي تقابلهم.

ولأُقربْ المعنىٰ بما ينقلهُ المؤرخون عن معركة بدر من أن المسلمين كانوا يقاتلون بجريد النخل. وهذا من الأُمور العجيبة لأنّهم كانوا يقابلون طلحة بن أبي طلحة الذي أراد أن يضع بيضة على رأسه يومها، فلم يجد، لعظم رأسه، فأتوه بثلاث عصائب وصلوها ببعضٍ فدارت على رأسه. وكان بطلاً ضخم الجثة، ومع ذلك فإن المسلمين قابلوه وقابلوا أمثاله بجريد النخل المدعّم بتلك التعبئة التي عبّأهم بها رسول اللّهﷺ.

وكمثالٍ آخر كان عمرو بن الجموح شديد العرج (أي أنّ الجهاد ساقط عنه؛ لأن المعركة تحتاج كرّاً وفرّاً، وذهاباً وإياباً وهذه العاهة تمنع ذلك وتحول دونه) لكنه أبىٰ إلَّا أن يجاهد، وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول اللهﷺ إذا غزا، فلما أراد رسول اللهﷺ أن يتوجّه إلى أُحد قال له بنوه: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لك رخصة؛ فلو قعدت، فنحن نكفيك؛ فقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى رسول اللهﷺ وقال له: يا رسول الله، إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أُستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنّة. فقال له رسول اللهﷺ: «**أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد**». وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه؛ لعلّ الله يرزقه الشهادة؟**». فهذا معبأ نفسياً بهذا اللون من التعبئة الرساليّة.

وهكذا أذن له النبيﷺ في أن يجاهد حينما رأى إصراره على الجهاد، وفعلاً فخرج مع رسول اللهﷺ، وكان أحد المعلّمين (والمعلَّم هو الذي يضع إشارة في

الحرب)، وكان معلّماً بعمامة صفراء، فقتل يوم أُحد شهيداً[١].

وكمثالٍ ثالث كان أحد الصبيان ويُدعىٰ رافعاً قد جاء في موقعه أُحد إلىٰ النبيّ ﷺ ليخرج معه إلىٰ القتال، وكان يعلم أن النبيّ ﷺ لن يأذن له في الخروج إلىٰ القتال؛ لأنّ من شروط الجهاد البلوغ وهو صبي لم يبلغ بعد، وكان قصير القامة، فراح يبحث عن ربوة يعلوها ويتطاول حتىٰ يراه النبيّ ﷺ ويأذن له في الخروج، فلما نظر إليه النبيّ ﷺ تبسّم وأذن له بالخروج للجهاد.

فالمسلمون كانوا معبّئين تعبئة كافية تُغنيهم عند القتال عن كل سلاح؛ لأنّ الجندي إذا حمل هذه الروح كان حقاً أن يُنتظر منه هذا الفتح وإلّا (أي إن لم يحقق الفتح) فإنها عقيدة ضحلة تستعمر السطح ولا تصل إلىٰ الأعماق، وبالنتيجة فإنه لا فائدة تُرجىٰ منه هنا. ولهذا وكان أميرالمؤمنين يقول: «**لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم**»[٢].

أي أنه عليه السلام يروم أن يقرّر بقوله هذا أنه يريد من يقف معه وليس من يتفرّج

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٢٤، الاستيعاب ٣: ١١٦٨ - ١١٦٩ / ١٩٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٦ - ٢٢٧، وفي (الاستيعاب) أن رسولنا الأكرم ﷺ قال: «لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته».

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ٩٧. وهي خطبة تنمّ عن كبير ألم كان يعتمل في صدر أمير المؤمنين عليه السلام، وقد جاء فيها: «أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أُمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه. لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم؛ فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم. يا أهل الكوفة منيت بكم بثلاث واثنتين: صمّ ذوو أسماع، وبكْم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء. تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها، كلّما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر».

أو يحمل شعاراً فارغاً، فالشعار الفارغ لا يفضي إلىٰ نتيجة أبداً، بل يُراد من الشعار أن يتجسّد على شكل فعل. ومن يفعل ذلك فهو الذي يصنع التاريخ ويغير المواقف.

وهذا ما حدث فعلاً فقد غيّر هؤلاء النفر الثلاثمئة والثلاثة عشر وجه التاريخ والحياة والعلم، وغيّروا الحضارة. وكلّ ما في الأمر أن يوطنّ الإنسان نفسه على التضحية والفداء، وعلى العطاء حتىٰ يخلص في نهاية الأمر إلى النتيجة التي يبتغيها.

ولذا فإن هؤلاء المرجفين كانوا منهزمين فعلاً كما أشرنا؛ فقد كانوا يرددون: أنّى لنا النصر على بني الأصفر، فأجابهم الله عزّ وجلّ على لسان الرسول ﷺ بأن نصر اللّه تعالى لا يرتبط بكثرة وقلّة، ولا علاقة له بسلاح: **﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[1]. فاللّه تبارك وتعالىٰ يمنح النصر إذا كان الجيش يمتلك مقوّماته التي هي عبارة عن عملية التعبئة التي ذكرناها.

في نسبة البعض إلى أُمّهاتهم

إنّ أوّل ما يطرأ على البال عندما نقرأ قول الشاعر:

أعني ابن ليلى ذا السدى الندى أعني ابن بنت الحسب الفاضلِ

هو تساؤل حول سبب نسبة بعضٍ إلى أُمّهاتهم عند العرب، وعن الداعي الذي يدفعهم إلىٰ ذلك حتىٰ قال الشاعر هنا: «ابن ليلىٰ».

إننا نعرف أن عند العرب أغراضاً وأساليب بلاغية يستخدمونها في كلامهم،

(١) البقرة: ٢٤٩.

وعندما ينسبون شخصاً إلىٰ أُمّهِ فإن لهم حتماً أهدافهم الخاصة، ومن هذه الأهداف:

أوّلاً: التحقير

فعندما يريدون أن يحقروا أحداً ينسبونه إلىٰ أُمّه، ووجه التحقير كأن توجد فيه عاهة اجتماعية، فيقولون: يابن الزرقاء، ويابن النابغة، ويابن فلانة. وهذا ما كانوا يفعلونه مع زياد؛ حيث إنّهم كانوا ينادونه بابن سمية، وكذلك كانوا ينادونه بابن أبيه؛ ولذلك فإن السيّدة عائشة أرادت يوماً أن تكتب كتاباً لزياد جواباً على كتاب كان قد كتبه إليها، فتحيّرت ما الذي تكتبه له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا كذب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[1]، فمن لم يولد على فراش شرعي لا يعتبر ولداً شرعيّاً، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أُم المؤمنين إلىٰ ولدها زياد. فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أُمّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[2].

ثانياً: التعظيم

وفي المقابل فإنّ العرب يسمون الإنسان باسم أُمّه للتمجيد والتعظيم، وذلك فيما إذا طغت شهرة الأُم على شهرة الأب. فهنالك الكثير ممن ينسب إلىٰ أُمّه؛ لأنّ لأُمّهِ شهرة وتأثيراً كبيراً ومكانة في الحياة أكبر من تلك التي لبعلها. وحينئذٍ فإن

---

(١) الكافي ٥: ٤٩١ / ، ٤٩٢ / ، ٧: ١٦٣ / ، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

هذا ينسب لأُمّه لهذا السبب.

ثالثاً: لاشتهار الأب شهرة فائقة

وهذا من الأسباب أو الأهداف التي كان العرب يضعونها في اعتبارهم عندما يريدون نسبة أحدٍ؛ فإنهم حينئذٍ ينسبونه إلىٰ أُمّه. فحينما يمتلك الأب شهرة طاغية جداً فإنّهم يلجؤون إلىٰ نسبة ولده إلىٰ أُمّه كي يوجدوا معادلة بين شهرة الأُمّ وشهرة الأب. فالولد حينما يكون أبوه بهذه الصفات ويمتلك تلك المكانة الكبرىٰ وذلك المركز الاجتماعي الراقي، وتكون أُمّه غير معروفة فإنهم حينئذٍ ينسبونه إليها حتى يقال: إنّه ليس ابن أبٍ عظيم فقط، وإنّما هو ابن أُمٍّ عظيمة. وهذا ما فعله الفرزدق مع الإمام زين العابدين عليه السلام؛ حيث دخل هشام بن عبد الملك ـ وهو لا يزال وليّ العهد ـ إلى الكعبة فلم يجد طريقاً إلىٰ الحجر الأسعد، فاضطرّ إلىٰ الجلوس والانتظار. وفي هذا الوقت يدخل علي بن الحسين عليه السلام، فانفرج له الناس سماطين حتى وصل الحجر ولمسه، ويُسأل هشام: من هذا؟ فيقول: لا أعرفه. وكان يعرفه، لكنه خشي أن يميل الناس إليه، لكن الفرزدق ينبري له ليقول:

هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَهُ ... بجدِّهِ أنبياءُ اللهِ قد خُتِموا

وليس قولُك من هذا بضائِرِهِ ... العُربُ تعرِفُ من أنكرتَ والعَجَمُ[1]

والفرزدق من محبي أهل البيت عليهم السلام يدل عليه أنه حينما وفد أبوه غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين عليه السلام وهو معه قال له عليه السلام: من أنت؟ فقال: غالب بن صعصعة المجاشعي. قال عليه السلام: «**ذو الإبل الكثيرة؟**». قال: نعم. قال: «**ما فعلت**

(١) ديوان الفرزق: ١٧٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦، تهذيب الكمال ٢٠: ٤٠٠ ـ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٨.

إبلك؟». قال: أذهبتها النوائب، وذعذعتها الحقوق. قال عليه السلام: «**ذاك خير سبلها. ومن هذا الغلام معك؟**». قال: ابني، وهو شاعر. قال: «**علّمه القرآن؛ فهو خير له من الشعر**»(١).

وإنما قال له الإمام عليه السلام ذلك لأنّه خشي أن يغلب عليه قول الشعر وإنشاده ويصبح في وضع يمدح به هذا ويذمُّ ذاك دون أن يستحق المدح ممدوحُه أو القدح مقدوحُه.. خشي عليه أن يمدحَ التوافه وأن يقع في هذا النمط من قول الشعر لكسب الأموال.

إذن كان بوسع الفرزدق أن يقول له: هذا ابن علي أو هذا ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله لكنّه لم يفعل لأنّه يريد أن يقول له: إنّ عليّ ابن أبي طالب أو رسول اللّه صلى الله عليه وآله معروفان وهما من الشهرة والمكانة بدرجة لا يحتاجان معها إلىٰ زيادة إيضاح، ويقول كذلك: أُريد أن أزيد فقط أن هذا ينتمي من جهة إلىٰ علي عليه السلام ومن جهة أُخرىٰ إلىٰ رسول اللّه عن طريق فاطمة عليها السلام. ومثل هذا قول الشاعر مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وآله:

يـابن الفـواطـم والعـوا ... تك والتـرائك والأرائكْ(٢)

---

(١) تقول الرواية: فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيّد نفسه، وآلى ألّا يحلّ قيده حتى يحفظ القرآن الكريم، فما حلّه حتى حفظه. وفي ذلك يقول:

وما صبّ رجلي في حديد مجاشع ... مع القدّ إلّا حاجة لي أُريدها

شرح نهج البلاغة ١٠: ٢١ - ٢٢، كنز العمال ٢: ٢٨٨ / ٤٠٢٦، الإصابة ٥: ٣٠١ / ٧٠٥٠.

(٢) البيت لبديع الزمان الهمداني. تذكرة الخواصّ: ٣٤، أعيان الشيعة ١٠: ٧٨.

والفواطم اللائي ولدن رسول الله خمس: قرشية وقيسيّتان ويمانيّتان. فالقرشية هي فاطمة بنت عمرو، أُم أبيه عبد اللّه. والقيسيتان هما فاطمة بنت عبد الله بن رزاح، وأُمّها فاطمة بنت الحارث. واليمانيّتان هما أُم قصي بن كلاب فاطمة بنت سعد، وفاطمة بنت نصر بن عوف، أُم حيي بنت حليل.

وهذا لبيد يفخر بأُمّ البنين في مجلس النعمان:

نحن بنو أُمِّ البنينِ الأربعهْ ونحنُ خيرُ عامر بن صعصعهْ

المطعمونَ الجَفنةَ المدعدَعَهْ والضاربونَ الهامَ تحتَ الخيضعهْ[1]

فلبيد يفخر بأُمّ البنين والمفروض أن لها بعلاً، لكن كان يريد أن يفخر بها حتىٰ يُوجد معادلة في هذا.

إذن كان أمراً ضرورياً عند العرب أن يتساوىٰ أبو الرجل وأُمّه وإلّا عُدّ هجيناً، بل ربما يخلق له هذا الأمر مشكلة، ولأضرب لك مثلاً هذه الحادثة حيث دخل ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي، فقال أحدهم: إننا إخوة وقد مات أبونا. فقال: رحمه اللّه. قال: ونحن الاثنان أشقّاء، أمّا الثالث فأُمّه أمة، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا. فقال: ليس في البين مشكلة؛ فلكلّ واحد منكم الثلث. فقالا معاً: لا نراك فهمت. قال: بل فهمت؛ فإنه أخوكما، وكونه هجيناً لا

☚ وأما العواتك فاثنتا عشرة: قرشيّتان، وهما عاتكة بنت هلال جدّة أُمّه آمنة بنت وهب، وعاتكة بنت غالب بن فهر. وواحدة من بني يخلد بن النضر وهي عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة. وثلاث سلميات هن عاتكة بنت مرة أُم هاشم بن عبد مناف، وعاتكة بنت هلال أُم عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة أُم جدّه لأُمه وهب بن هلال. وعدويتان ـ من جهة أبيه عبد الله ـ وهما عاتكة بنت عامر، وعاتكة المعروفة بالحصان بنت عدوان. وأزدية هي عاتكة بنت الأزد بن الغوث. وقد ولدته هذه الأزدية مرّة أخرى من قبل غالب بن فهر؛ فإن أُمه ليلى بنت سلمى بنت طابخة، وهي ابنة عاتكة بنت الأزد هذه. وهذلية هي عاتكة بنت سعد. وقضاعية هي عاتكة بنت رشدان. وأسدية هي عاتكة بنت دودان بن أسد.

تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨١ – ١٢٤، النهاية في غريب الحديث والأثر ٣: ١٨٠، الكامل في التاريخ ٢: ٣٣ – ٤١.

(١) ديوان لبيد (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨، الأمالي (المرتضى) ١: ١٣٦، الإرشاد ٢: ١٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٠، مقاتل الطالبيّين: ١٤٩، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام): ١٥٧، قصص العرب ٣: ١١١ ـ ١١٤ / ٤٨.

يبخسه حقّه من ميراث أبيه. قالا: تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فـقال: بلى. فقالا: إنك لقليل الخالات بالدهناء[١].

أي بتعبير آخر إنك لست ابن البادية، وليست عروبتك عروبةً خالصة، وإلّا لو كنت كذلك (لك خالات بالدهناء، أي من قلب العرب)، لما قلت هذا.

وهذا اللون من العصبية الذي يُعدّ ابن غير العربية هجيناً توجّه يخلق نوعاً من المشاكل بين الإخوة، وهو توجّه يرفضه الإسلام.

على أية حال فإن الفرزدق لا يجهل أن الزهراء لا ترقىٰ إلىٰ مستوى علي بن أبي طالب عليه السلام.

القرطبي ونسبة الحسنين عليهما السلام إلى فاطمة عليها السلام

وأنا أستغرب من شيء يستغرب منه القرطبي، هذا المفسّر الضخم والذي يُعدُّ تفسيره طعمةً؛ إذ يجد فيه القـارئ الفكـرة الرأي الفـقهي والأُصـولي والجـانب التاريخي، لكنّه مع ذلك حينما يأتي إلىٰ هذه الآية الكريمة: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ**﴾[٢] فإنّه يقول: إن جميع الناس يوم القيامة يدعون بأسماء أُمّهاتهم؛ وذلك لثلاثة أسباب:

الأوّل: إكراماً لعيسى بن مريم عليه السلام، لأنه لا أب له.

الثاني: تشريفاً للحسنين عليهما السلام بنسبتهما إلى أُمّهما.

وهذه فكرة غير مـقبولة؛ لأنّ اللّـه تـعالىٰ لو أراد أن يـناديهما بـاسم أبـيهما أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول فيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله مخاطباً فاطمة: «**زوّجتك خـير الناس من بـعدي**»[٣]، لما كان يضيرهما ممّا يدّعيه شيء. والزهراء عليها السلام وغـيرها

(١) الكامل في الأدب ٢: ٤٨. (٢) الأحزاب: ٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، وفيه: «خير من أعلم»، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ

لا يرقون إلىٰ مستوىٰ علي بن أبي طالب‏عليه‌السلام الذي هو إمام المتّقين، ويعسوب الدين، ومفخرة الإسلام.

أيّهما تشرف بهذه الزيجة؟ علي أم فاطمة‏عليهما‌السلام

وهذه المسألة يُثيرها المؤرّخون فيقولون: أيّهما تشرّف بالزواج من صاحبه؟ هل هو علي بن أبي طالب‏عليه‌السلام، أم فاطمة‏عليها‌السلام؟ وكأن هؤلاء قد تناسوا أن الإمام عليّاًعليه‌السلام هو حامي الإسلام ورافع لوائه في أربع وثمانين غزوة كان فيها المدافع عن حمىٰ المسلمين والمدرسة السيارة الذي لا زالت آراؤه إلىٰ الآن يضيق عنها الزمان. ومن يطلع على فكر علي بن أبي طالب‏عليه‌السلام يجد فيه العجب العُجاب، وليس كلُّ ما يعرف يُقال.

إذن فهذا الرأي الذي يطرحهُ القرطبي لا يُقبل بأي حالٍ من الأحوال، وليس من المعقول أن اللّه جل وعلا يدعو الناس بأسماء اُمّهاتهم ولو ضمناً على حساب الحسنين‏عليهما‌السلام، فيشرفهم بنسبتهم إلىٰ اُمّهم.

☚ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق): ٤٣٤ / ٥٧٤: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: إن رسول الله‏صلى‌الله‌عليه‌وآله كان ذات يوم في منزل أم إبراهيم، وعنده نفر من أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالب‏عليه‌السلام، فلمّا بصر به النبي‏صلى‌الله‌عليه‌وآله قال: «يا معشر الناس، أقبل إليكم خير الناس بعدي، وهو مولاكم؛ طاعته مفروضة كطاعتي، ومعصيته محرمة كمعصيتي».

وفي بشارة المصطفى (الطبري): ٤٢٠ - ٤٢١ / ٢٨: «يا علي أنت خير الناس بعدي، وأنت أوّل الناس تصدّراً، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاك فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، يا علي لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق أو كافر».

الثالث: أن في ذلك ستراً على الناس؛ إذ أن البعض منهم أولاد زنا، فإن نودوا بأسماء آبائهم الحقيقيّين افتضحوا وأُمّهاتهم.

وهنا أودّ أن أُلفت النظر إلىٰ أنّ الوالد الحقيقي الذي يُسمىٰ والداً هو الأُم وليس الأب، والأب إنّما يُسمىٰ والداً من باب المقابلة. وهذا من قبيل إطلاق اسم القمرين على الشمس والقمر فهو إطلاق تغليب ومقابلة كما هو مذكور في علم البلاغة. فالأب والد لأنه يقابل الأُم، لأن الأب لا يلدّ والأُم هي التي تلد والتي يقع عليها عبء الولادة وآلامها.

وهذا الأمر من جملة الأُمور التي يستند إليها الفقهاء في باب التزاحم في الحكم بتقديم قول الأُم على قول الأب فيما لو تساويا فلو قال الأبُ: لا تفعل، وقالت الأُم: افعل أو بالعكس، وجب تقديم قول الأُم ما لم يكن فيه معصية لله أو ضرر للولد؛ لأن تعب الأُم على ولدها أكثر من تعب الأب عليه. فالأب يضع ابنه وهو في ألذّ حالاته أما الأُم فتضعه في أشدّ حالاتها، وربما وضعته وهي في حالة نزع واحتضار فإن نجت وسلمت فإنّها تكون قد نجت بأُعجوبة. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن الأب لا يستطيع أنّ يتحمّل هذا الطفل وصراخه ليلاً، في حين أن الأُم تلتذّ بتربيته مع ما يسبّبه لها من أذىٰ. وهذا يدلّ على عمق علاقة الأُمومة التي تسري في كيانها وعروقها.

ثم إنّ من أشدّ الأُمور إيلاماً للمرأة وجرحاً لعاطفتها هو قول القائل لها: إنك امرأة عقيم، فهو قول فظيع من وجهة نظرها؛ لأنّه يطعن أُمومتها ويضربها في الصميم؛ فأعظم وظائف الأُم هي الأُمومة وتربية الولد.

إذن فالأب والد مجازي للمقابلة، وهما والدان للتغليب، والأُم والدة حقيقة، وهذا ما يشير إليه التعبير القرآني الدقيق في قوله تعالىٰ: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ**

وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] فتأمّل قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ**﴾، فهو لا يسميه والداً ولا يطلق عليه هذا اللفظ هنا أبداً. وحتى تعبير ﴿**الْمَوْلُودِ لَهُ**﴾ لم يكن ليستحقّه لولا أنه من مائه. فمن يلد فعلاً هي الأُم؛ ولذلك جعل اللّه الجنّة تحت أقدامها على لسان رسوله الأكرمﷺ في قوله: «**الجنة تحت أقدام الأُمّهات**»[2]. فلا يدخل في خلد أحد أنّ لأحد حقّاً على الآخر كالحقّ الذي افترضه اللّه تعالى للأم على ولدها؛ لأنّها الكائن الوحيد الذي يتحمّل كل أذى الوليد منذ وضعه وحتىٰ نضجه، فهي التي كرّست له كل حياتها وجهدها وطاقتها بمواصلة رعايته وتربيته، وبذلت كل حياتها ونذرتها لأجله.

فالأُم يخالجها شعور بأنّ الدنيا قد ابتسمت لها حينما يبتسم لها وليدها، وتظن أنّ الدنيا قد أغلقت أبوابها بوجهها حينما ترىٰ وليدها قد مسّه مرض أو ألم. وهذا هو السبب الذي من أجله جعل اللّه حقوق الأُم أعظم من حقوق الأب، فهي صانعة الحياة وبانية الأجيال ومشيّدة المجتمع، والتي تملأ كل ذلك حناناً وعطفاً. لقد أعجبني قول أحد الأُدباء وهو يصفها: «تغريد الملائكة بفم الأُم لطفلها». وهذا هو الذي يتوجّب علينا توفيره للطفل؛ لأنّه كائن ضعيف يحتاج إلى العطف والحنان والرعاية، ولا أحد يستطيع أن يملأ نفسه بهذا سوى الأُم ببسمتها له ومناغاتها إيّاه وضحكتها في وجهه.

رجع

إذن فكلام القرطبي في هذا المورد مرفوض؛ لأنّ أمير المؤمنينعليه السلام لم يتشرّف

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

بالزهراء وإن كان قد تشرّف برسول اللّه صلى الله عليه وآله، بل الزهراء هي التي تشرفت به. وهو كلام عجيب يثير الاستغراب، وأنا لا أتّهم القرطبي، بل أظن أنّ في الأمر غفلة وقع فيها، فهذا الرجل عقلية ضخمة، وكونه صادراً من هذا الرجل يحملني على حسن الظن به وعدم تهمته، بل أحمله على الغفلة، أمّا أن يصدر من غيره فأنا أتّهمه.
ولهذا الكلام نظير، وهو أن معاوية بن أبي سفيان سأل جلساءه يوماً، فقال لهم: من أحقّ بالخلافة؟ قالوا: أنت. وهؤلاء بطبيعة الحال لا يمكن أن يعدوا هذا الجواب، أو أن يجيبوا بغيره وإن لم يكن عن قناعة منهم؛ لأنهم صنائعه، فقال لهم: لا، أنا لست الأحقّ بها. فعجبوا من قوله، وقالوا: فمن هو الأحقّ بها إذن؟ قال: علي الأكبر بن ليلى.

وهنا موضع الشاهد؛ حيث إنه نسبه إلى أُمّه بقوله: ابن ليلى، فقالوا له: ولم؟ فقال: لأن فيه زهوَ ثقيف. ذلك أن أُمّه هي ليلى ابنة أبي مرّة بن عروة بن مسعود الثقفي؛ فهو يلتقي مع المختار بن أبي عبيدة عند جدّهما الرابع من ناحية الأُمّ. وقوله: فيه زهو ثقيف، لأن ثقيفاً كانت عندها خصلة الزهو والخيلاء، والاعتزاز بالنفس، والعنفوان.

ثم قال معاوية: وسخاءَ أُميّة. ذلك أن جدّته لأُمّه ليلى هي ميمونة بنت أبي سفيان. ومعنى هذا أنه يريد أن يقول: إننا ورّثناه سخاءنا.

ثم قال: وشجاعةَ هاشم.

ونحن نقول لمعاوية: هذا السخاء الذي نسبه للأمويين من أين ادّعاه؟ هل هو قبل أن يتولّى الخلافة أم بعدها؟ فإن كان قبل الخلافة فليُرجع إلى كتب التفسير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[1]،

(١) الفتح: ١٠.

فالمفسّرون بصورة عامّة يقولون: إن هند زوجة أبي سفيان جاءت لتبايع، فلمّا فرغت قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أُطعم عيالنا من ماله؟ قال ﷺ: «**لا، إلا بالمعروف**». أي بقدر الحاجة[1]. فمن يبخل على أهله كيف يوّرث غيره السخاء؟ وإن كان بعد أن وصلت إليه الإمارة والسلطة فهو من باب «وهب الأمير ما لا يملك»:

ومن دخل البلاد بغير حرب   يهون عليه تسليم البلادِ[2]

وهذا البيت ينطبق عليه تماماً، وأبسط مثال على ذلك أنّ الأمر وصل بـه أن أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص بعد أن طلب هذا الأخير منه ذلك، ووقف له قائلاً: ما لي إن شايعتك على أمرك حتى تنال ما تريد؟ قال: حكمك. قال عمرو: اجعل لي مصر طعمة ما دامت لك ولاية. فقال له معاوية: لك مصر طعمة[3].

وهذا الذي يذكره المؤرّخون كافّة. فهل يعدّ كرماً أن يمنح بلداً بأكمله إلى شريك له بالإثم والمعصية؟ من أين أتته هذه الصلاحيّة؟ ومن أعطاه خاصية التصرّف هذه؟ فهل ورثه من أبيه؟

---

(١) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ - ١٧٨، وكذلك كتب الحديث، ومنها مارواه كل من أحمد بن حنبل، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم من أن فاطمة بنت قيس جاءت رسول الله ﷺ فذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لامال له».
انظر: مسند أحمد ٦: ٤١٢، صحيح مسلم ٤: ١٩٥، سنن أبي داود ١: ٥١٠ / ٢٢٨٤، سنن النسائي ٦: ٧٧ - ٧٥.

(٢) مجمع الحكم والأمثال ج١ / موضوع الوطن.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٧٣ - ٧٤، الأخبار الطوال: ١٥٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٦، الغارات ١: ٢٧١ - ٢٧٢، ٢: ٧٤٨، سير أعلام النبلاء ٣: ٧٢ - ٧٣.

والنتيجة أنهم غير معروفين بالسخاء، لكن حينما تسلّموا السلطة وأصبحت أموال المسلمين بأيديهم بدأ التصرّف غير المشروع بها.

وهذا ما لا يمكن أن يُسمى سخاءً بل إنّه سوء تصرّف وعبث بأموال المسلمين؛ لأنّ السخاء أن يعطي الإنسان من كسب يده وعرق جبينه وتعبه، كما فعل أمير المؤمنين عليه السلام حيث أوقف عينين له احتفر أحدهما بيده، يقول أبو نيزر: كان للإمام علي عليه السلام قطعة أرض يملكها، فجاءني يوماً وأنا أقوم بالضيعتين: عين أبي نيزر والبغيبغة فقال: «**هل عندك من طعام؟**». فقلت: عندنا طعام لا أرضاه لك، قرع من قرع الضيعة صنعته. فقال عليه السلام: «**عليّ به**». فقام إلى الجدول فغسل يده، ثم أصاب من ذلك الطعام شيئاً: ثم رجع إلى الجدول، فغسل يده بالرمل حتى أنقاها، ثم ضم يديه كلّ واحدة إلى اُختها، ثم شرب بهما وقال: «**يا أبا نيزر، إن الأكفّ أنظف الآنية**».

ثم مسح من ذلك الماء على بطنه وقال: «**من أدخله بطنه النار فأبعده الله**». ثم أخذ المعول وانحدر إلى العين فأقبل يضرب فيها وأبطأ عليه الماء فخرج وقد تفضّخت جبهته عرقا، فاستشفّ العرق من جبينه ثم أخذ المعول وعاد إلى العين فأقبل يضرب فيها وجعل يهمهم، حتى انثالت كأنها عنق جزور، فخرج مسرعاً فقال: «**الله أكبر، سيخيب الوارث، اُشهد الله أنها صدقة. عليّ بدواة وصحيفة**». فعجّلت بها إليه، فكتب عليه السلام: «**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تصدّق به عبد الله علي أمير المؤمنين، تصدّق بالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل؛ ليقيَ الله وجهي حرّ النار يوم القيامة، ولا تباعا ولا توهبا حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين، إلّا أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق لهما ليس لأحد غيرهما**»[1].

---

(١) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ٨١ - ٨٣ / ٣٦٥، جامع أحاديث الشيعة ١٩:

وهكذا فعل عليه السلام بعيني أبي نيزر والبغيبغة اللتين كانتا يملكهما فقد استنبعهما وأصلح بهما الأرض، ثم أوقف ذلك كلّه على فقراء المسلمين ومساكينهم. وهذا هو السخاء الحقيقي الذي يكون عن عرق الإنسان وكدّه، والذي أوصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّه كان يرجع إلى البيت خالي اليد دون أن يحمل معه حاجة لأهله، فقد كان يفرّق جميع ما يحمله معه على بيوت الفقراء ويوزّعه عليهم.

وهاتان العينان دفع فيهما معاوية نفسه مليوني دينار للإمام الحسين عليه السلام حينما ركبه دين، فأبىٰ عليه السلام أن يبيع صدقات أبيه، وقال: «**إنما تصدّق بها أبي ليقي الله بها وجهه حرّ النار**»(١).

فعطاء أمير المؤمنين عليه السلام هو العطاء؛ لأنّه في شيء سكب عليه عرقه وحازه بكدّه وتعبه، أمّا أن يستولي شخص على أموال الآخرين ويكرم بها غيره فهذا لا يسمىٰ جواداً أو كريماً، بل هو مغتصب وفعله ليس جوداً أو سخاءً.

ثم إنّ محاولة معاوية تلك ـ قوله: إنّ الأكبر أحقّ بالخلافة ـ هي محاولة لئيمة وفكرة حقّ يراد بها باطل.. فكرة قد دُسّ السمّ بين ثناياها، فهو يريد أن يصرف الناس عن الإمام الحسين عليه السلام، ويلقي حوله ظلالاً من الشك، وإلّا فإن الحق أن يقول: إن الحسين عليه السلام أحق بها؛ لأنّه يعرف منزلة الحسين ومكانته وأحقيته بالخلافة(٢).

إنّ هؤلاء قد عمدوا إلى نفي الحسين عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يمكن أن يصلوا إلى الخلافة في وجود الحسين عليه السلام، فقد ادّعوا أن الحسين عليه السلام

☚ ١١٠ - ١١١، معجم ما استعجم ٢: ٦٥٧ ٦٦٠.

(١) المصدر نفسه، وفيها: مئتا ألف دينار.

(٢) إن هذا القول يذكّر بمحاولة المأمون إبعاد أمير المؤمنين عليه السلام عن الخلافة وإعطاء الحقّ فيها للحسنين عليهما السلام بعد أن أثبت أفضليته عليه السلام على سائر الخلفاء. العقد الفريد ٤: ٣٦١٦ ـ ٣٦٣٧.

إنّما هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وليس ابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله بـل هـو ابـن ابـنته الزهراء، وابن البنت ليس ابناً[1]. وهذه العملية هي مـحاولة مـفضوحة لتشـويه الحقيقة في أعين الناس، وإظهارها أمامهم بمظهر مغاير؛ لأنها محاولة يهدف من ورائها إبعاد نظر الناس عن الإمام الحسين عليه السلام كما قلنا.

في كرم الأكبر وشجاعته

ثم قال الشاعر:

يغلي نـئيّ اللـحم حـتى إذا ... أنضج لم يـغلُ عـلى الآكـلِ

كــان إذا شــبّت له نــاره ... أوقــدها بـالشرف القـابلِ

أقسام النار عند العرب

أودّ أن اُلفت النظر إلى أنّ للعرب أربعة عشر اسماً للنار، كل اسم منها يدلّ على نار معيّنة ترتبط بحدث معيّن، وهذا ما كان عليه العرب كما يحدّثنا عنه تاريخهم. وسأذكر هنا ما يتعلّق منها بحاجتنا كي نخلص منها إلى معنى النار التي يـريدها الشاعر وهو يصف بها علياً الأكبر. فمن هذه النيران:

الأُولىٰ: نار الحرب

وهي النار التي توقد حينما يريدون الخروج للحرب؛ فقد كانت وسيلتهم في إعلام القبائل الأُخرىٰ أن يعمدوا إلى مرتفع من الأرض فـيشعلوا نـاراً عـليها، فتراها تلك القبائل فتبادر إلى الاجتماع عندها. وهذه النار هي التي يعبّر عـنها

---

(١) حول موضوع كون ابن الابنة ولداً صلبيّاً انظر محاضرة (البناء الأُسري في الإسلام) في ج ٤ من موسوعة محاضرات الوائلي.

القرآن الكريم بقوله: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾(١).

وأظن أن هذه الظاهرة لم يختصّ بها العرب وحدهم، بل إن الشعوب البدائية كلها تلجأ إلى هذه الطريقة، كما عند شعوب أفريقيا؛ حيث إنّهم كانوا يستمدّون منها العزيمة.

الثانية: نار العبادة

وهي النار التي يتوجّهون إليها عند العبادة أو يتحلّقون حولها. وفكرة عبادة النار ناشئة من كون النار من دنيا القوىٰ، ودنيا القوىٰ أشرف.

وهذا هو الذي يدفع مُقدّسي إبليس إلى القول بتفضيله، ولذا يقول بشّار بن برد:

إبـلِيسُ خـيْرٌ مـن أَبِيكُمْ آدَم　　فـتَنَبَّهُوا يَـا مَـعْشَرَ الفُـجَّارِ

إبْـلِيسُ مـن نَـارٍ وآدَمُ طِـينَةٌ　　والأَرْضُ لاتَسْمو سموّ النارِ(٢)

الثالثة: نار الحلف

وهي النار التي يوقدونها حينما يريدون أن يقسموا على أمر، فيحلفوا بها، يقول شاعرهم:

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه　　كما صدّ عن نار المهولة حالفُ(٣)

---

(١) المائدة: ٦٤.

(٢) ديوان بشّار: ٥٣٩. بل وهو ما دعا إبليس نفسه الى التفاخر بها على آدم في قوله تعالىٰ: ﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف: ١٢.

(٣) الفائق في غريب الحديث ٣: ٢٥٦ – ٢٥٧، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات (شرح شواهد الكشاف): ٤٦٧، لسان العرب ١١: ٧١٣ ـ هول. ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطرحون الملح في النار مع الكبريت ويتحالفون عليه، ويسمون تلك النار الهولة،

الرابعة: نار الأحلاف

وهي نار توقد عندما يريدون أن يعقدوا معاهدة أو حلفاً بينهم، فإذا تحالفت قبيلتان أو أكثر على أمر أوقدوا لذلك ناراً.

الخامسة: نار القِرىٰ

وهي النار التي أشار إليها الشاعر في بيته الآنف. ونار القرىٰ هي النار التي يوقدونها ليلاً سيّما في الليالي المظلمة والباردة؛ ليستدلّ بها الطارق أو ابن السبيل على مضاربهم وربوعهم فيُقروه، أي يضيّفوه؛ ولهذا فإنّ هؤلاء يعمدون إلى إشعالها على ربوة أو تلّة كي يسهل على الطارق رؤيتها.

ومعلوم أن وسائل المواصلات عند الناس سابقاً كانت بدائية، فإذا أراد أحدهم سفراً بعيداً فإنّه لن يصل إلى هدفه بزمن قياسي كما هو الحال اليوم؛ ولذا فإنّ المسافر كان يحتاج إلى أن يستغرق في سفره أيّاماً وليالي كثيرة مع ما يصاحب ذلك من تعرّضه للبرد شتاءً، ولم تكن هناك ـ سيما في الصحراء ـ فنادق أو دور استراحة؛ ولذا كانت محطّات التوقّف للمسافر آنذاك بيوت العرب الذين اشتهروا بالكرم والجود وإقراء الضيف. ومعروف أنهم كانوا يتسابقون إلى اجتذاب الأضياف عبر إيقاد هذه النار على المرتفعات القريبة منهم. قال حاتم الطائي مخاطباً غلامه يساراً:

أوقد فإنّ الليل ليل قَرُّ ... والريح يا موقد ريح صِرُّ
علّ يَرىٰ نارك من يمرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ[1]

☚ وموقدها المهول.

(١) تفسير السمعاني ١: ٣٥٠، الوافي بالوفيات ١٠: ٥١، أضواء البيان ٧: ١٦.

من مظاهر جود الأكبر

وهذه هي الصفة الحميدة التي يشير إليها الشاعر وهو يمدح علياً الأكبر في قوله:

كان إذا شبّت له نـاره أوقدها بالشرف القابلِ

يروي المؤرخون أنه كان ينحر الإبل ثم يوقد نار القرى وينضج الطعام، ثم يبدأ بإطعام الناس والأضياف. وهذه الخصلة لم تأته عن كلالة، بل إنّها سـمة آبـائه الذين كانوا يحملون الطعام في الليالي الباردة على ظهورهم، ثم يدورون بها على بيوت المدينة يطرقون أبوابها ليوصلوا الطعام إلى أهلها والمحتاجين منهم. يقول الزهري:

كنت في إحدى الليالي أمشي في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين ماشياً وهو يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «**أُريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز**». فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «**لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني**».

فانصرفت عنه، وبعد أيّام رأيته فقلت له: يابن رسول اللّـه، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ قال: «**يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله كنت استعدّ**». فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: «**هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة**»[1]. وهكذا كان دأبهم عليهم السلام.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣.

إذن فعلي الأكبر كان يمتلك هذه المزايا، وهذا البيت الذي ذكرناه يتعرض لها ويذكرها، فهو قد أخذ محامد البيتين؛ فجده من ناحية الأُم عروة بن مسعود الثقفي الذي يُعبر عنه النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «**مثل عروة مثل صاحب يس دعا قومه إلى اللّه تعالى فقتلوه**»[1].

والذي عبر عنه القرآن بأنّه أحد العظيمين في قوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[2].

وفعلاً كان أحد العظماء، وكان جليل القدر. هذا هو الجد الأول له، والجد الآخر هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي استغنىٰ بفضائله عن أن يُمدح. ومن بين هذين الشرفين كان علي الأكبر، حيث إنّه اكتسب التربية العالية من بيت الرسالة الذي يُعد منطلق الشعاع إلى دنيا المسلمين. وهكذا فإنّ علياً الأكبر كان خلاصة هذه التربية وخلاصة هذه الوراثة، ولذا فإن الحسين عليه السلام كان ينزله منزلة كبيرة عنده لا حدود لها، يقول المؤرخون: لمّا كان الركب الحسيني في طريقه من المدينة إلىٰ كربلاء هوّمت عينا الحسين عليه السلام ثم انتبه وهو يقول: «**لا حول ولا قوة إلّا باللّه، إنّا للّه وإنا إليه راجعون**». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟

يروى أنه لم يكن يقول لأبيه: يا أبي، ولكنه قالها مرة واحدة وذلك حينما سقط صريعاً كما سيمرّ بنا إن شاء اللّه تعالىٰ، وإلّا فإن خطاباته لأبيه عليه السلام لم تكن سوى

---

(١) تحف العقول: ٤٦٥، تفسير السمعاني ٤: ٣٧٤، المستدرك على الصحيحين ٣: ٦١٦، مجمع الزوائد ٩: ٣٨٦، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥٣٠، مسند أبي يعلى ٣: ١٧٤، المعجم الكبير ١٧: ١٤٨، الاستيعاب ٣: ١٠٦٧، الدرر (ابن عبد البرّ): ٢٤٧.

(٢) الزخرف: ٣١.

قول: يابن رسول اللّه، أو يابن أمير المؤمنين، أو يا سيّد شباب أهل الجـنة، أو ياسيدي. على أية حال سأل علي الأكبر أباه الحسين عليه السلام قائلاً: فداك نفسي يابن رسول الله، لماذا استرجعت؟ فأجابه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: «**يابني، رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نـعيت إلينا**». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «**بلىٰ والذي إليه مرجع العباد**». قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّين. فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «**جزاك اللّه مـن ولد خيراً**». ثم أخذ يقبّله ويلثمه[1].

فهو يقول لأبيه: ليكن ذلك؛ فنحن لا نبالي ما دمنا قد أعددنا أنفسنا للموت وله خلقنا، فمرحباً بالموت في أية لحظة وأي مكان ما دمنا على الحقّ. فالموت بعزّ هو غايتنا لا الحياة الممزوجة بماء الذل، وهي أيضاً ستنتهي بالإنسان إلى الموت مع أن الذليل ميت وهو في حال الحياة. والموت الذي يكون فيه عزّ الإنسان ليس موتاً حقيقياً بل هو حياة له، ففي الواقع إن شريحة عريضة من الناس يمشون على الأرض وهم أموات، فهذا الماشي ليس إنساناً، بل هو قبر يمشي بصاحبه عـلى وجه الأرض:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسـيرُ

فالعزيز حيّ وإن فارقت روحه بدنه.

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

مكانة النخل وفضل ثمره

تقول الآية الكريمة: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾، والنخلة هي شجرة التمر التي تسمى العجوة، وقد ورد في الروايات: «**أكرموا عماتكم النخل**»[1]. والمفسرون عندما يتناولون هذا الحديث يذكرون أسباب أمر اللّه تعالى بإكرامها، وهي:

أوّلاً: أنّها هبطت من الجنة

فحينما يعبر الحديث الشريف عنها بقوله: «**عمّاتكم**» فلأنّها هبطت من الجنة مع أبينا آدم عليه السلام. ويستفاد من هذه الرواية أن التمر من ثمار الجنة، وشجر الجنة وثمرها له خصائص يمكن أن تكون إحداها وجه فرق بيننا وبينها، فالإنسان عادة ينشّئ نفسه على أن يأخذ دون أن يعطي إلّا ما ندر، فهو يطالب الآخرين بأن يكسوه ويشبعوه دون أن يتحرّك ليقدّم مقابلاً لذلك، بل إنّه يرتع في جوّ من الخمول. وهذه الظاهرة تُلبس ثوباً اجتماعياً، فنجد أنّ البعض لا يعمل عملاً ما بدعوى أنّ هذا العمل لا يناسبه ولا يناسب مكانته الاجتماعية. ثم إنه يقول: إنّ اللّه تعالىٰ كما يدلّني عند الموت فكذلك يدلّني عند الرزق، فلماذا أُتعب نفسي إذن وراء الرزق وطلبه مع أنني يكفيني منها رغيف؟

وهذا في الواقع إنما يعطي تبريراته لأجل أن يقنع نفسه والمجتمع بصحّة مذهبه هذا، مع أنّه في واقع الأمر يريد أن يأخذ دون أن يعطي. أمّا النخلة فهي على

(١) وتتمّة الحديث الشريف: «فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، وليس من الشجر يلقّح غيرها». وفي حديث آخر: «أطعموا نساءكم الولّد الرطب، فإن لم يكن رطب فالتمر، وليس من الشجر أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران».
بحار الأنوار ٥٧: ١٨١، شرح أُصول الكافي ٩: ١٦٤، مسند أبي يعلى ١: ٣٥٣ - ٣٥٤، كتاب أمثال الحديث: ٧٣، الجامع الصغير ١: ٢١٢ / ١٤٣٢.

العكس من هذا تعطي كل شيء ولا تأخذ منّا شيئاً، فهي تعطي عطاء لا حدود له فيستفاد من جذعها وسعفها وورقها وثمرها الذي يعدّ غذاءً كاملاً. فكل جزء منها عطاء فضلاً عن جمال منظرها. كما أنّها تعدّ رصيداً اقتصادياً؛ لأنّ البلد الذي يكثر فيه النخيل لا يمرّ بمجاعة أبداً.

الثاني: شبهها بالإنسان

وهذا الوجه من الشبه هو أيضاً مسوّغ لإكرام النخلة، ووجه الشبه هنا أنّها كالإنسان الذي حينما يقطع رأسه فإنّه يموت وهي كذلك إن يقطع رأسها تمت. ومن هنا أيضاً يصح توجيه تعبير الحديث عنها بأنها «**عمّاتكم**».

المحبث الثاني: شرف العمل

تقول الآية الكريمة: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ لقد كان ديدن مريم عليها السلام قبل الحمل والولادة العبادة والانقطاع إلى اللّه تعالىٰ، فقد وقفت كل وقتها على التوجه إلى اللّه وعبادته. وكل ذلك في المعبد الذي اتخذته محراباً لصلاتها وتعبّدها؛ ولذا فإن اللّه تعالى أراد أن يكافئها على انشغالها بذكره وعبادته بتوفير رزقها لها: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً**﴾[1]، فكان رزقها مكفولاً لها تؤتاه وهي في مكانها.

وسبب تعبّدها أنّ أمها «حنّة» نذرت للّه إن رزقها ولداً أن تجعله خادماً للمعبد، فلما حملت نذرت ذلك، لكنها حينما وضعت كان الوليد انثىٰ، تقول الآية: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾[2]. وكان هذا سبب أسفها؛ لأنها قد نذرت ولداً يخدم في المعبد، وهذه فتاة يمرّ عليها من الأدوار ما لا

(١) آل عمران: ٣٧.
(٢) آل عمران: ٣٦.

يمرّ على الرجل، وهذا يمنعها من أن تمكث في المعبد أو أن تعبد اللّه تعالى في هذه الأدوار والفترات. لكن اللّه تعالى جعلها بتول عذراء طاهرة لم ترَ الدم كما تقول الروايات، فكانت نظيفة طاهرة.

السبب الطبيعي

لقد كان من الممكن أن يهيّئ اللّه تعالى لمريم عليها السلام رزقها كما كان تعالى يهيّئه سابقاً لها، دون تدخّل منها ودون أن تحرّك ساكناً، لكنه تـعالىٰ أراد أن يـجري الأُمور على طبيعتها؛ فلذا كلّفها بالسعي، فقال: ﴿وَهُزِّي﴾. هذا من جهة ومن جهة أُخرىٰ أراد القرآن الكريم أن يصحّح اعتقاداً كان ولا يزال سائداً عند الناس وهو: «إن من يدلّني عند الموت يدلّني عند الرزق». وهذا التفكير خطأ؛ لأن اللّه تعالىٰ ربط الأسباب بمسبّباتها، فلو أنّ الإنسان لم يمت لفترة جيلين مثلاً أو أكثر فحينها لن يجد مقدار شبر من الأرض ليسكن فيه، بل إننا سنجد خصومة على كل شبر فيها؛ ولذا فإن اللّه تعالىٰ قدّر لكل إنسان أن تنتهي فرصته في الحياة عند أجـل معيّن كي يفسح المجال للآخرين على الأرض ليعيشوا.

وعليه فإن السماء تنظر إلى المسألة من زاوية تختلف عن الزاوية التي نـنظر منها نحن إليها، بل إن وجهة نظر السماء تختلف عن وجهات نظرنا في كل شيء.

ثم إنّ الموت لا ينهي الإنسان ولا يعدمه، بل إن كل ما يحصل هو أن يستردّ التراب قسمه من هذا الجسم، أما الروح فإنها تنتقل إلى مكان آخر وتعيش فيه. وهذا ما عليه مأثوراتنا الإسلامية وأدلتنا العلمية، فالموت لا يعدمنا وإنما يفرّق بين أجسادنا وأرواحنا.

إذن لابدّ من تصحيح هذا المفهوم عند الناس «الذي يدلّني عند الموت يدلّني عند الرزق»، والآية الكريمة تبيّن للإنسان أنّ عليه أن يسعىٰ ويجتهد كي يحصل

على مبتغاه، وإلّا فإنّه لن يحصل على شيء أبداً؛ لأنّه إنّما يحصل على ما يـريد فيما إذا استخدم السبب الطبيعي، فإن لم يستخدم السبب الطـبيعي فـإن الأرض ستمتلئ بالناس الذين لا عمل لهم، والذي يظلّون ينتظرون من السماء أن تهيّئ لهم ما يحتاجون إليه.

إن اللّه تعالىٰ استعمرنا في الأرض وأراد منا أن نسخّر الأسباب الطبيعية كافّة في تسيير أُمورنا الحياتية. وعمارة الأرض تشتمل على جوانب مادية وجوانب معنوية، ونحن مسؤولون أمام اللّه تعالىٰ أن نملأ كل أبعاد هذا الفراغ حتى نصل إلى مرحلة إعمار الأرض. فمفهوم انتظار الرزق دون إخضاعه إلى السبب الطبيعي هو مفهوم مخطوء وبحاجة إلى تصحيح، وهذا ما ندب إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَهُزِّي﴾.

وهناك أمر أثاره البعض من المتزهّدين وهو أنّ العمل ينافي التوكّل؛ لأن معنى أن يعمل الإنسان: أنّه ليس له ثقة باللّه تعالى من حيث إنّه سيكفل له رزقه، فهو حينما يعمل فإنّما ينتظر ثمار عمله بعيداً عن اللّه تعالىٰ. ولو أنّ هذا يمتلك أدنىٰ قدر من التوكل على اللّه تعالى لترك العمل؛ لأنّ التوكّل سيهيّئ له كل مطالبه. وهذا الاعتقاد غلطة كبيرة، فالعمل لا ينافي التوكّل على اللّه مطلقاً، ولا ينافي الزهـد كذلك؛ لأنّ الزهد هو أن يأكل الإنسان من حلال[1]، أمّا أن يعيش الإنسان كلّاً على الآخرين فهذا بعيد كل البعد عن الزهد الحقيقي.

ومما يروىٰ في هذا المجال أنّ رسول اللّه ﷺ كـان جـالساً إذ جـاءه اثـنان يحملان رجلاً لا يقوى على الحركة، فسأل عنه، فقالا له: إنه أخونا، وقد انـقطع للعبادة. قال: «**ومن يطعمه ويسقيه؟**». قالا: نحن. قال ﷺ: «**أنتما أعـبد مـنه**».

---

(١) انظر محاضرتي (أمير الزاهدين عليه السلام) ج ٥، و(الزهد في حياة علي عليه السلام) ج ٦ من موسوعة محاضرات الوائلي.

فالذي يعمل يعتبر أكثر عبادة من غيره؛ لأن العبادة إنما تأتي بعد إحراز الرزق، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**النفس إذا أحرزت معيشتها اطمأنت**»[1].

فعندما يتوجّه الإنسان في محرابه إلى اللّه وهو يعلم أن ليس في بيته رغيف خبز وأنّ أطفاله جياع فإنّه سوف لن يتمكن من أن يتوجّه بقلب خالص وانقطاع تامّ إلى اللّه تعالىٰ، ولن يتمكن من ضبط قراءته، وسيبقىٰ جزء من مراسيمها غير صحيح أو غير مراعى فيه جانب الكمال. فمتى ما أحرزت النفس قوتها توجّهت بقلب مطمئن إلى العبادة. وهذا هو معنى الحديث الشريف: «**لولا الخبز ما عبد الله**»[2]. أما إذا كان ذهنه مملوءاً بالشعور بالفراغ، فإنّه يصبح بأمسّ الحاجة إلى العمل قبل أن يقدم على العبادة.

فالسعي والطلب للرزق، والتوكّل الواعي على اللّه تعالى هو أوّل أهداف الآية، وهو معنى أخذه الشاعر فقال:

توكّل على الرحمن في الأمر كله	**ولا تركنن للعجز يوماً عن الطلبْ**
ألم ترَ أن الله قال لمريم	**وهزّي إليك الجذع يساقطْ الرطبْ**
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها	**جنته ولكن كلّ شيء له سببْ**[3]

ففي الآية عبرة واضحة، وبيان لبعض المفاهيم المخطوءة التي تعيش في أذهاننا، وهي أنّ الإنسان يأتيه رزقه عفواً، وتبيّن أن الأُمور مرهونة بأسبابها الطبيعية.

---

(١) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكافي ٥: ٨٩ / ٣، والعلل (ابن حنبل) ٣:٤٠٢ / ٥٧٧٤، وغيرهما لسلمان رضي الله عنه.

(٢) الكافي ٥: ٧٣ / ١٣، وفيه: «ما صلينا ولا صمنا، ولا أدّينا فرائض ربّنا»، المبسوط ٣٠: ٢٥٨، تفسير السمعاني ٤: ١٣٢.

(٣) أحكام القرآن ٣: ٢٤٩، تفسير الآلوسي ١٦: ٨٥، أضواء البيان ٣: ٣٩٩، المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٥٤٧.

المحتويات